النص الكامل

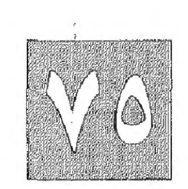
الطبعة القانونية الأولى والوحيدة باللغة العربية

Agatha Christie

أغاثا كريستي

قَضَايا بْوارو المُبَكِّرة







قَضَايا بُوارو المُبَكِّرة

هذه هي الترجمة القانونية الوحيدة لهذا الكتاب
وهي تضم النص الكامل لمجموعة من قصص بوارو القصيرة
مما نُشر في مجلات متنوعة بين عام ١٩٢٣ وعام ١٩٣٦
وقد نُشرت هذه المجموعة القصصية أول مرة عام ١٩٧٤ بعنوان

Poirot's Early Cases

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: agatha@al-ajyal.com

الطبعة الرابعة

٢٠٠٤

أغاثا كريستي

قضايا بوارو المبكّرة

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٧٤

صورة الغلاف مستوحاة من قصة «مغامرة الطفل المخطوف»

ترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسّون

تنفيذ الغلاف: عروة مؤمن ديرانية



بسم الله الرحمن الرحيم

لغز اختفاء الطبّاخة

عندما كنت وصديقي هيركيول بوارو نشترك في مسكن واحد، كان من عادتي أن أقرأ له بصوت عالٍ عناوين صحف الصباح، وخاصة صحيفة ديلي بلير.

كانت ديلي بلير صحيفة تبالغ في استغلال أية فرصة لأغراض الإثارة. لم تنزوِ جرائم السرقة والقتل في مكان منعزل في صفحاتها الداخلية، بل كانت تفجأ عينيك بخطوط عريضة على الصفحة الأولى.

قرأت: «موظف بنكٍ فارّ يختفي ومعه ما قيمته خمسون ألف جنيه من السندات المالية القابلة للتداول». «زوج يضع رأسه في فرن الغاز: حياة منزلية تعِسة». «فقدان فتاة طابعة: فتاة جميلة في الواحدة والعشرين. أين اختفت إيدنا فيلد؟».

ثم قلت لبوارو: ها هي العناوين... كثير من القضايا التي يمكنك أن تختار منها. موظف بنك هارب ومختف، وانتحار غامض، وفتاة طابعة مفقودة... أية قضية ستختار؟

كان صديقي يتمتع بمزاج هادئ رائق، فاكتفى بأن هزّ رأسه

بهدوء وقال: لم أنجذب كثيراً لأيٍّ من هذه القضايا يا صديقي. أشعر اليوم بالميل نحو حياة الراحة، وسيتعين على القضية التي تدفعني إلى ترك مقعدي وملاحقتها أن تكون قضية مثيرة جداً. سأراك لاحقاً، فلدي قضايا مهمة تخصني عليّ إنجازها.

- مثل ماذا؟

- ملابسي يا هيستنغز؛ فإنّ على بدلتي الرمادية الجديدة -إن لم أكن مخطئاً- بقعة من الشحم. إنها البقعة الوحيدة، ولكنها تكفي لإزعاجي، ثم عليّ أن أخزن معطفي الشتوي بعد رشّه بالمسحوق الحافظ. وأعتقد، نعم... أعتقد أن الوقت قد حان لتعديل وتشذيب شاربي، وعليّ بعد ذلك أن أدهنه بالمرهم العطري.

قلت وأنا أتجه إلى النافذة: حسناً، أشك في إمكانية قيامك بهذا البرنامج المحموم، فقد كانت قرعة جرس... لقد جاءك زبون.

صرح بوارو بنبرة كرامة: ما لم تكن القضية ذات أهميةٍ وطنيةٍ فلن ألمسها.

بعد دقيقة اقتحمت علينا خلوتنا سيدةٌ بدينة محمرة الوجه كانت تلهث بصوت مسموع نتيجة صعودها السريع للدرج. سألت وهي تغرق في أحد الكراسي: أأنت السيد بوارو؟

- نعم يا سيدتي، أنا هيركيول بوارو.

- إنك لا تشبه في قليل أو كثير الصورة التي كوّنتُها عنك.

قالت ذلك وهي ترمقه ببعض الازدراء، ثم أضافت: هل تدفع

مالاً مقابل ما يكتب في الجريدة من مدح لك كتحرٍّ ذكي، أم أنهم يكتبون ذلك من تلقاء أنفسهم؟

- قال بوارو وهو يعتدل في جلسته: سيدتي!

- إنني آسفة بالتأكيد، ولكنك تعرف طبيعة الصحف في هذه الأيام. ما أن تبدأ بقراءة مقالة لطيفة عن «ما قالته العروس لصديقتها البشعة العازبة» حتى تدرك بأن الموضوع كله يدور حول سلعة تافهة اشتريتَها من الصيدلي وغسلت بها شعرك... لا شيء غير الإعلانات الكاذبة الفارغة. ولكن أرجو أن لا تعتبر كلامي إساءة، سأخبرك بما أريد أن تفعله لي: أريدك أن تجد لي طباختي.

نظر بوارو إليها وقد خذله -لأول مرة- لسانه الذَرِبُ، واستدرت أنا جانباً لأخفي ابتسامتي الواسعة التي لم أتمكن من السيطرة عليها.

قالت السيدة: كل ذلك بسبب الإعانة السيئة التي تعطيها الحكومة للعاطلين عن العمل. فليوقفوا تلك الإعانة... هذا رأيي. بودي لو أعرف ما لدى خدمي أنا من أمور يشكون منها، فهم يأخذون إجازة نصف يومٍ وليلته في كل أسبوع، ويتناوبون أيام الأحد، والغسيل مستثنى من مهماتهم، ويتناولون نفس طعامنا، ولا يوجد في بيتنا نقطة من السمن الصناعي، إذ لا نستعمل إلاّ أفضل أنواع الزبدة.

توقفت قليلاً لحاجتها لالتقاط أنفاسها فاغتنم بوارو فرصته، وتكلم بأكثر أساليبه عجرفة ناهضاً ليقف على قدميه أثناء كلامه: أخشى أن تكوني مخطئة يا سيدة، فأنا لا أجري تحقيقات في ظروف خدم البيوت. إنني رجل تحرٍّ خاص.

قالت زائرتنا أعرف ذلك ألم أقل لك إنني أريدك أن تعثر لي على طباختي؟ لقد خرجَتْ من البيت يوم الأربعاء، حتى دون أن تقول لي كلمة واحدة، ولم تعد أبداً بعدها

- أنا آسف يا سيدتي، ولكني لا أدخل في هذا النوع الخاص من العمل. أتمنى لك صباحاً طيباً

زمجرت زائرتنا بسخط قائلة: هكذا إذن يا صاحبي الرائع؟ أنت متكبر جداً، إيه؟ لا تتعامل إلاّ مع أسرار الدولة وجواهر الكونتيسات؟ دعني أقل لك إن الخادمة هي في نفس أهمية إكليل جواهر بالنسبة لامرأة مثلي. لا يمكن أن نكون جميعاً نساء فاتنات يخرجن في سياراتهن مع جواهرهن ولآلئهن فالطباخة الجيدة طباخة جيدة، وعندما تفقدها فذلك يعني بالنسبة لك ما يعنيه اللؤلؤ لامرأة فاتنة.

بدا للحظات أن الأمر بالنسبة لبوارو يتأرجح بين قطبين متقاربين جداً هما كرامته وروح الدعابة لديه. وأخيراً ضحك وجلس ثانية قائلاً: سيدتي، أنت محقة وأنا المخطئ. إن ملاحظاتك صائبة وذكية. ستكون هذه القضية تغييراً بالنسبة لي؛ إذ لم أصطد من قبل خادمة بيوت مفقودة. وها هي حقاً القضية ذات الأهمية الوطنية التي كنت أطلبها من القدَر قبل وصولك تماماً. لقد قلتِ إن هذه الطباخة الجوهرة خرجت يوم الأربعاء ولم تعد؛ أي أنها خرجت يوم أمس الأول.

- نعم، كان الأربعاء هو يوم عطلتها الأسبوعية.

- ولكن يحتمل يا سيدتي أن تكون قد تعرضت لحادث. هل

سألت أية مستشفيات؟

هذا بالضبط ما اعتقدته أمس، ولكنها أرسلت هذا الصباح طالبةً صندوق متاعها، ولم تكلف نفسها عناء الكتابة لي ولو سطراً! ولو أنني كنت في البيت لما سمحت للقضية أن تمر هكذا تعاملني بهذا الشكل! ولكني كنت قد خرجت لتوي ذاهبة إلى الجزار!

- هل لك أن تصفيها لي؟

- إنها في أوسط العمر، ذات شعر أسود بدأ يتحول رمادياً... محترمة جداً. كانت قد أمضت عشر سنوات في مكان عملها السابق، واسمها إليزا دَنْ.

وأنت، ألم تختلفي معها قبل يوم الأربعاء؟

- أبداً، وهذا ما يجعل الأمر كله بهذه الغرابة.

- كم عدد الخدم الذين يعملون لديك يا سيدتي؟

- اثنتان. الثانية هي خادمةُ ردهةِ الاستقبال، آني، وهي فتاة لطيفة جداً، تنسى بعض الأمور أحياناً، وعقلها مسكون بالشبان، ولكنها خادمة جيدة إن حملتَها دوماً على القيام بواجبها

- وهل كانت علاقتها مع الطباخة على ما يرام؟

- كانتا -إجمالاً- بأفضل حال.

- وهذه الفتاة، ألا تستطيع إلقاء أي ضوء على اللغز؟

- تقول إنها لا تستطيع، ولكنك تعرف طبيعة الخدم... إنهم يتضامنون جميعاً بعضهم مع بعض.

- حسناً، حسناً... ينبغي أن ننظر في هذا الأمر. قلتِ أين تسكنين يا سيدتي؟

- في كلافام، ٨٨ شارع الأمير ألبرت.

- حسناً يا سيدتي، سأتمنى لك صباحاً سعيداً، وتستطيعين الاطمئنان إلى زيارتي لك في منزلك خلال هذا اليوم.

استأذنت السيدة تود للمغادرة، وهذا كان اسم صديقتنا الجديدة.

نظر إليّ بوارو بكآبةٍ بعض الشيء وقال: حسناً يا هيستنغز. إن في هذه القضية، التي أتتنا هنا، جِدّةً وتغييراً. «اختفاء طباخة كلافام»! لا ينبغي أبداً، أبداً، أن يسمع صديقنا جاب بهذا الأمر!

ثم مضى بعد ذلك ليحمّي مكواته، وأزال بحذر بقعة الشحم عن بدلته الرمادية بقطعة من الورق النشاف. أما شارباه فقد اضطر آسفاً لتأجيل معالجتهما حتى يوم آخر، ثم انطلقنا إلى كلافام.

وجدنا أن شارع الأمير ألبرت ذو بيوت أنيقة متشابهة تماماً، ذات ستائر مكشكشة جميلة تحجب نوافذها وطارقات أبواب نحاسية ملمعة جيداً. قرعنا جرس المنزل رقم ٨٨، ففتحت الباب خادمة مرتبة ذات وجه جميل. ثم جاءت السيدة تود إلى الصالة لتحيتنا، وما لبثت أن صاحت: لا تذهبي يا آني، إن هذا السيد من رجال التحري، وهو يريد أن يسألك بعض الأسئلة.

عكس وجه آني صراعاً بين الذعر والإثارة الممتعة. وقال بوارو: شكراً يا سيدتي، إنني أود استجواب خادمتك الآن، وأحب أن أراها بمفردها إن كان ذلك ممكناً.

أخذتنا السيدة تود إلى غرفة جلوس صغيرة، وعندما غادرت بعد تردد واضح، بدأ بوارو استجوابه: حسناً يا آنسة آني، إن كل ما تخبرينا به سيكون ذا أهمية قصوى، فأنت وحدك التي يمكن أن تلقي أي ضوء على القضية، وبلا عون منك لا أستطيع أن أفعل شيئاً.

اختفى الذعر من وجه الفتاة، وأصبحت الإثارة الممتعة أكثر بروزاً. قالت: أنا واثقة يا سيدي بأنني سأخبرك بكل ما أستطيعه.

انفرجت أسارير بوارو لها بحسن القبول وقال: هذا جيد. والآن، قبل كل شيء: ما هو رأيك الخاص؟ إنك فتاة على جانب كبير من الذكاء... يمكن تمييز ذلك على الفور! ما هو تفسيرك الخاص لاختفاء إليزا؟

انطلقت آني، وقد جرى تشجيعها على هذا النحو، في حديث منفعل: إنهم تجار الرقيق الأبيض يا سيدي، لطالما قلت ذلك! كانت الطباخة تحذرني منهم دائماً: "لا تستنشقي أي رائحة أو مادة، ولا تأكلي أية حلويات مهما يكن صاحبها مهذباً!". تلك كانت كلماتها لي. وها هم اليوم قد اصطادوها! إنني واثقة من ذلك، ويحتمل أنها قد نُقلت على ظهر سفينة إلى بعض تلك الأماكن البعيدة حيث يفضّلون النساء السمينات!

حافظ بوارو على رزانة تستحق الإعجاب، وقال: ولكن، في هذه الحالة -وهي بالفعل فكرة رائعة!- هل كانت سترسل في طلب صندوق ثيابها؟

- حسناً، لا أدري يا سيدي. ولكنها ستحتاج متاعها، حتى في تلك الأماكن الأجنبية.

- من الذي أتى لأخذ الثياب... رجل؟

- نعم، أخذها كارتر باترسن يا سيدي.

- وهل رزمتِها أنت؟

- لا يا سيدي، كانت مرزومة ومشدودة بالحبال سلفاً.

- هاه! هذا مثير. إن ذلك يظهر أنها كانت قد قررت سلفاً عدم العودة عندما غادرت البيت يوم الأربعاء. إنك تدركين هذا، أليس كذلك؟

بدت آني وكأنها قد فوجئت قليلاً بالفكرة، وقالت: لم أفكر في هذا. ولكني -رغم ذلك- ما زلت أحسب أن تجار الرقيق الأبيض ربما كانوا هم الذين أخذوها، أليس ذلك ممكناً يا سيدي؟

طرحت سؤالها الأخير بلهفة كئيبة، فأجابها بجدية: بلا شك! هل كنتما -أنتما الاثنتين- تشغلان نفس الغرفة؟

- لا يا سيدي؛ فلدينا غرف منفصلة.

- وهل عبّرت إليزا عن أي استياء أمامك في أي وقت؟

- إنها لم تذكر أبداً مغادرة البيت؛ فالمكان هنا على ما يرام...

ترددت، فقال بوارو بلطف: تكلمي بحرية؛ فلن أخبر سيدتك.

- حسناً يا سيدي. إن سيدتي تثير الاستغراب، نعم، ولكن الطعام جيد، يوجد منه الكثير بلا أي تقتير، وعلى العشاء وجبة حارة، وتستطيع أن تستعمل من دهن القلي بقدر ما يروق لك، والإجازات جيدة. وفي كل الأحوال، إن كانت إليزا قد أرادت التغيير، فما كانت لتذهب بهذه الطريقة، أنا واثقة من ذلك. كانت ستكمل شهرها. يمكن لسيدتي أن تقتطع منها أجر شهر لقاء تصرفها هذا!

سأل بوارو: والعمل، هل هو شاقٌ جداً؟

- حسناً، إن سيدتي تدقق كثيراً، تدور دوماً بين الزوايا بحثاً عن غبار أهملت مسحه. ولدينا النزيل، أو الضيف بالأجرة كما يُسمى دائماً. ولكن هذا لا يكلفنا إلاّ الإفطار والعشاء، مثل سيدي. فهما خارجان طوال النهار في المدينة.

- هل تحبين سيدك؟

- لا بأس به، هادئ جداً، ويميل قليلاً إلى الخجل.

- أحسبك لا تذكرين آخر شيء قالته إليزا قبل خروجها؟

- نعم، أتذكر. قالت: "إن بقي شيء من الخوخ المغلي في غرفة الطعام، فسنأخذه لعشائنا، مع قليل من اللحم والبطاطا المقلية". كانت مهووسة بالخوخ المغلي، ولن أُدهش إن علمت أنهم اصطادوها بهذه الطريقة!

- هل كان يوم الأربعاء يوم إجازتها الاعتيادية؟

- نعم، هي لها الأربعاء، وأنا الخميس.

طرح بوارو بضعة أسئلة أخرى، ثم أعلن اكتفاءه، فخرجت آني وسارعت السيدة تود بالدخول وقد غطى الفضول وجهها. وشعرتُ يقيناً أنها غضبت بمرارة بسبب إقصائها عن الغرفة خلال حديثنا مع آني. ولكن بوارو كان حريصاً على تهدئة مشاعرها بحذق ومهارة. قال: إنه لمن الصعب على امرأة ذات ذكاء استثنائي مثلك يا سيدتي أن تتحمل الطرق الملتوية التي نضطر -نحن رجال التحري المساكين- لاستخدامها. إن الصبر على الغباء صعب بالنسبة لأصحاب الذكاء اللماح!

وبعد أن طرد بسحره أي سخط بسيط قد تحسه السيدة تود، أدار بوارو الحديث إلى موضوع زوجها، واستخرج منها معلومة تقول إن زوجها يعمل في شركة في المدينة، وإنه لن يعود إلى البيت إلاّ بعد الساعة السادسة.

قال بوارو: لا شك أنه منزعج جداً وقلق حول هذا الأمر الذي لم يكن بالحسبان، أليس كذلك؟

- إنه لم يقلق أبداً، وكل ما قاله لي هو: "حسناً، حسناً، أحضري واحدة غيرها يا عزيزتي"، وهو هادئ إلى الحد الذي يدفعني للجنون أحياناً. قال: "إنها امرأة ناكرة للجميل، وخير لنا أننا تخلصنا منها".

- وماذا عن ساكني البيت الآخرين يا سيدتي؟

تعني السيد سيمبسن، ضيفنا بالأجرة؟ حسناً، ما دام يحصل على إفطاره وعشائه بانتظام فإنه لا يهتم.

- ما هي مهنته يا سيدتي؟

- إنه يعمل في مصرف.

ذكرت اسم المصرف، وذهِلتُ أنا قليلاً وأنا أتذكّر ما قرأته في صحيفة ديلي بلير.

قال بوارو: أهو شاب؟

- في نحو الثامنة والعشرين كما أعتقد، وهو شاب لطيف هادئ.

- أود أن أتكلم معه قليلاً، وكذلك مع زوجك إن أمكن. سوف أعود لهذا الغرض مساء اليوم. وسأتجرأ وأقترح عليك أن تريحي نفسك قليلاً؛ فأنت تبدين مرهقة.

- أعتقد أنني فعلاً كذلك! أولاً بسبب قلقي بشأن إليزا، وثانياً لأنني كنت في السوق طوال يوم أمس عملياً، وأنت تعرف ماذا يعني ذلك يا سيد بوارو، ثم بسبب هذا الأمر أو ذاك، وعمل كثير في البيت، لأن آني لا تستطيع طبعاً القيام بكل شيء، والتفكير في أنها ستقدم استقالتها على الأغلب، إذ أنها غير مستقرة بعد... حسناً بسبب ذلك كله أصابني الإنهاك!

تمتم بوارو بكلمات متعاطفة، ثم استأذنّا بالانصراف. قلت له: إنها لمصادفة غريبة، ولكن ذلك الموظف المختفي... ديفيس... كان من نفس البنك الذي يعمل فيه سيمبسن! هل يحتمل أن تكون

بينهما أية علاقة برأيك؟

ابتسم بوارو وقال: لدينا في الجانب الأول موظف مختلس، وفي الجانب الآخر طباخة مختفية. من الصعب رؤية أية علاقة بين الأمرين، ما لم يكن ديفيس قد زار سيمبسن ووقع في غرام الطباخة، وأقنعها بمرافقته في رحلته!

ضحكتُ، ولكن بوارو بقي جاداً وقال مؤنباً: "ربما فعل أسوأ من ذلك. تذكر يا هيستنغز أنك إن كنت ذاهباً إلى المنفى فإن طباخة ماهرة قد تريحك أكثر مما يريحك وجه جميل!". ثم صمت لحظة ومضى قائلاً: إنها قضية غريبة، مليئة بالسمات المتناقضة. لقد أثارت اهتمامي... نعم، لقد أثارت اهتمامي بشكل خاص.

* * *

عدنا في ذلك المساء إلى المنزل ٨٨ في شارع الأمير ألبرت، وقابلنا كلا الرجلين: السيد تود وسيمبسن. كان الأول رجلاً كئيب المزاج، ذا فكين طويلين مستدقّين مما يعطي وجهه شكلاً أجوف، وكان في نحو الأربعين من عمره. قال بشكل مبهم: آه! نعم، نعم، إليزا، نعم، طباخة ماهرة كما أعتقد. وهي اقتصادية أيضاً، إنني أهتم كثيراً بالاقتصاد.

سأله بوارو: أتستطيع تخمين أي سبب لمغادرتها بهذا الشكل؟

- آه، حسناً... إنهم الخدم كما تعلم. إن زوجتي تقلق كثيراً؛ لقد استهلكها القلق الدائم، والمشكلة كلها بسيطة في الواقع. إنني أقول لها: "أحضري غيرها يا عزيزتي، أحضري غيرها". لن يتطلب

الأمر أكثر من ذلك، فليس من الخير البكاء على الحليب المسفوح.

ـ لم يكن السيد سيمبسن بأقل من زميله في عدم فائدته. كان شاباً هادئاً غير واضح، ويضع نظارة على عينيه. قال: لا بد أنني رأيتها كما أعتقد، امرأة كهلة، أليس كذلك؟ بالطبع، إن المرأة التي أراها دائماً هي الأخرى، آني. إنها فتاة لطيفة، خدومة جداً.

سأله بوارو إن كانت علاقات الاثنتين جيدة، فأجاب السيد سيمبسن بأنه لا يستطيع الجزم، وأنه يظن أنهما كانتا كذلك.

وبينما نحن نغادر المنزل (وكانت مغادرتنا قد تأخرت بسبب تكرارٍ مندفع صاخب من السيدة تود لكل ما قالته لنا صباحاً، ولكن بتفصيل أعظم) قال بوارو: حسناً، لم نحصل على ما يثير الاهتمام هناك يا صديقي.

سألت بوارو: هل خاب أملك؟ أكنت تتوقع سماع شيءٍ ما؟

هز بوارو رأسه بالنفي وقال: كان يوجد احتمال بالطبع، ولكنني كنت أشك فيه كثيراً.

كان التطور اللاحق عبارة عن رسالة تسلمها بوارو صباح اليوم التالي. قرأها، واحمر وجهه سخطاً، ثم سلمها لي. كان ملخصها كالتالي: تأسف السيدة تود لأنها تريد وقف الاستفادة من خدمات السيد بوارو. فبعد التداول مع زوجها، رأت أنّ من الحماقة استدعاء رجل تحرٍّ لأجل قضية لا تتعلق إلاّ بمسألة خدم. وقد أرفقت السيدة تود بالرسالة جنيهاً مقابل أجور الاستشارة.

صاح بوارو بغضب: ها! ويظنون أن بوسعهم أن يتخلصوا من هيركيول بوارو بهذه السهولة؟! لقد وافقت من قبيل المعروف... بل المعروف الكبير... على التحقيق في قضيتهم التافهة الصغيرة، ثم يطردونني هكذا! إنها بصمات السيد تود هنا بلا شك. ولكنني أقول: «لا»، بل ستة وثلاثون «لا»! سأصرف جنيهاتي الخاصة، ستاً وثلاثين مئةً إن تطلب الأمر، ولكنني سأصل إلى حقيقة هذه المسألة!

قلت: نعم، ولكن كيف؟

هدأ بوارو قليلاً وقال: أولاً، سوف نعلن في الصحف. دعني أفكر قليلاً... نعم، إعلان من هذا القبيل: «إن شاءت إليزا دَنْ أن تتصل بهذا العنوان فإنها ستسمع أشياء لمصلحتها». ضع هذا الإعلان في كل الصحف التي تخطر ببالك يا هيستنغز، وبعد ذلك سأقوم ببعض التحريات. اذهب... اذهب. ينبغي أن يتم كل شيء بأسرع ما يمكن!

لم أره ثانية حتى المساء، حين تعطف وأخبرني بما كان يفعله. قال: لقد قمتُ بتحرياتٍ في الشركة التي يعمل فيها السيد تود. إنه لم يكن غائباً يوم الأربعاء، وهو ذو شخصية مقبولة وذو سمعة جيدة، أكثر مما يستحق. أما سيمبسن فقد كان مريضاً يوم الثلاثاء ولم يذهب إلى البنك، ولكنه كان هناك يوم الأربعاء. كان ذا صداقة معتدلة مع ديفيس، ولا يوجد شيء خارج عن المألوف. لم أجد أي شيء مفيد. كلا، يجب أن نعتمد على الإعلان.

ظهر الإعلان في وقته في كل الصحف اليومية الرئيسية، وكان يُفترض -حسب أوامر بوارو- أن يستمر ظهوره يومياً لمدة أسبوع. كانت لهفتُه تجاه قضية غير مثيرة عن اختفاء خادمةٍ مسألةً غريبة،

ولكنني أدركت أنه يعتبرها قضية شرف... أن يثابر حتى ينجح أخيراً. في أثناء هذا الوقت أتته عدة قضايا مثيرة جداً ولكنه ردها كلها. كان يسرع في كل صباح إلى رسائله الواردة يدقق فيها بجد، ثم يلقيها جانباً وهو يتنهد.

ولكننا كوفئنا أخيراً على صبرنا، ففي يوم الأربعاء الذي أعقب زيارة السيدة تود أخبرتنا صاحبة المبنى أن امرأة اسمها إليزا دَنْ قد جاءت لرؤيتنا. صاح بوارو: أخيراً! دعيها تصعد! فوراً... على الفور.

أسرعتْ صاحبة المبنى بالخروج بعد هذا الإلحاح، وعادت بعد لحظات لتدخل الآنسة دَنْ. كانت طريدتنا تشبه كثيراً الأوصاف التي أعطيت عنها: طويلة بدينة ومحترمة إلى حد بعيد. قالت: لقد جئت استجابة للإعلان، ظننت أنه لا بد من وجود خطأ ما، إذ لعلكم لم تكونوا تعلمون بأنني حصلت فعلاً على مستحقاتي.

كان بوارو يدرسها بإمعان. سحب كرسياً إلى الأمام بطريقة مسرحية ثم قال: حقيقة الأمر هي أن سيدتك، السيدة تود، كانت قلقة كثيراً عليك، وقد خشيتْ أن تكوني قد تعرضت لحادث ما.

بدت إليزا مدهوشة تماماً وقالت: ألم تستلم رسالتي إذن؟

- لم تستلم أية كلمة من أي نوع.

وتوقف قليلاً ثم قال بأسلوب مقنع: أعيدي عليّ القصة بكاملها، هل هذا ممكن؟

لم تكن إليزا دَنْ بحاجة إلى تشجيع. اندفعت فوراً في رواية مطولة: كنت عائدة إلى البيت مساء يوم الأربعاء، وكنت قد أوشكت

على الوصول إليه عندما استوقفني رجل. كان رجلاً طويلاً ذا لحية وقبعة كبيرة. قال لي: "أنت الآنسة إليزا دَنْ؟". قلت: "نعم"، فقال: "لقد كنت أسأل عنك في عنوانك رقم ٨٨، وقد قالوا إنني يمكن أن أصادفك آتية هنا. يا آنسة دَنْ، لقد جئت من أستراليا خصيصاً للعثور عليك. هل تعرفين اسم جدتك لأمك؟" فقلت له: "إنها جين إيموت"، فقال: "بالضبط، والآن يا آنسة دَنْ، بالرغم من أنك ربما لم تسمعي من قبل أبداً بما سأقوله لك، إلاّ أن جدتك كانت لها صديقة عظيمة اسمها إليزا ليتش. وهذه الصديقة ذهبت إلى أستراليا حيث تزوجت أحد المستوطنين الأثرياء جداً، وقد مات طفلاها في صغرهما، فورثت كل ثروة زوجها وممتلكاته، ثم ماتت هي نفسها منذ بضعة أشهر، وبناء على وصيتها فإنك سترثين بيتاً في هذا البلد، ومبلغاً محترماً من المال".

ومضت الآنسة دَنْ قائلة: كان يمكن وقتها أن يُغمى علي من الذهول. شعرت للحظات بالريبة، ولا بد أنه لاحظ ذلك، لأنه ابتسم وقال: "لك الحق تماماً أن تكوني حذرة يا آنسة دَنْ. ها هي أوراقي المُثبتة". وسلمني رسالة من مكتب محاماة في ملبورن اسمه مكتب هيرست وكروتشيت وبطاقة شخصية، وكان هو السيد كروتشيت. ثم قال: "يوجد شَرطان؛ فقد كانت عميلتنا غريبة الأطوار بعض الشيء. فالميراث مشروط باستلامك لملكية البيت -وهو في كامبرلاند- قبل الساعة الثانية عشرة من ظهر الغد. والشرط الثاني لا أهمية له، فهو مجرد تعهد بأنك لا تعملين في خدمة البيوت". وقد تملكني الحرج فقلت: "آه يا سيد كروتشيت، إنني طباخة. ألم يخبروك بذلك في البيت؟" فقال: "آه، يا عزيزتي المسكينة، لم يخطر ببالي مثل هذا

الأمر. ظننت أنك ربما كنت شريكة أو مالكة للمنزل. هذا أمر مؤسف تماماً... مؤسف جداً حقاً!".

قلت له بلهفة: "وهل سأخسر كل المال؟". فكّرَ للحظاتٍ ثم قال أخيراً: "توجد دائماً طرق للتحايل على القانون يا آنسة دَنْ، ونحن -المحامين- نعرف ذلك. المخرج لك في هذا الأمر أن تكوني قد تركت عملك ظهر هذا اليوم". قلت له: "ولكنْ ماذا عن شهري الذي لم أكمله؟". قال مبتسماً: "يا عزيزتي الآنسة دَنْ... يمكنك أن تتركي أي ربّ عمل في أي وقت لو ضحّيتِ بأجر شهرٍ. إن سيدتك ستفهم الوضع بالنظر إلى الظروف. فالصعوبة تكمن في الوقت! يتحتم عليك أن تستقلي قطار الحادية عشرة وخمس دقائق من محطة كينغز كروس إلى الشمال. أستطيع أن أقرضك عشرة جنيهات لدفع الأجور، ويمكنك أن تكتبي ملاحظة في المحطة إلى سيدتك، وسآخذها لها بنفسي وأشرح لها كل الظروف".

وافقتُ على ذلك طبعاً، وبعد ساعة كنت في القطار، وقد انشغل ذهني فلم أعد أعرف هل أقف على رجليّ أم على رأسي. والحقيقة أنه لدى وصولي إلى كارليسل كنت أميل قليلاً إلى الاعتقاد بأن الأمر كله كان واحدة من عمليات الاحتيال التي تعتمد على الثقة الساذجة بالمحتالين، مما نقرأ عنه أحياناً. ولكنني ذهبت إلى العنوان الذي أعطاه لي، وكان فعلاً مكتب محاماة، وكان كل شيء على ما يرام. بيت صغير جميل، بأجرٍ سنوي يبلغ ثلاثمئة جنيه. كان هؤلاء المحامون لا يعرفون إلاّ القليل، إذ كانوا قد تلقوا رسالة من رجل في لندن يطلب منهم فيها أن يسلموني البيت ومئة وخمسين جنيهاً مقابل الأشهر الستة الأولى. أرسل لي السيد كروتشيت متاعي، ولكن لم

تكن مرفقة معه أية رسالة أو كلمة من سيدتي. وافترضتُ أنها غاضبة، وأنها حسدتني على نصيبي من الحظ. وقد احتفظتُ بصندوقي أيضاً، وأرسلتُ ملابسي بلفافات من الورق، ولكن يحق لها طبعاً إن لم تكن استلمت رسالتي، فقد ترى في ذلك بعض الصفاقة من جانبي.

أصغى بوارو بانتباه إلى هذا التاريخ الطويل. واخذ الآن يهزّ رأسه بالموافقة كمن اقتنع تماماً بما سمع، ثم قال: شكراً يا آنستي. لقد حدث فعلاً -كما قلتِ- خطأ صغير. اسمحي لي أن أعوضك عما لاقيتِه من عناء.

وسلمها ظرفاً وقال: هل ستعودين فوراً إلى كلاميرلاند؟ كلمة صغيرة فقط أضعها في أذنك: «لا تنسي كيف تطبخين». من المفيد للمرء أن يكون لديه ما يعود له في حال حدوث خطأ لا تحمد عقباه.

عندما غادرت زائرتنا تمتم بوارو: "يا لها من ساذجة! ولكن ربما لا تكون أكثر سذاجة من غالبية أبناء طبقتها". وعلا الجِدّ وجهه ثم قال: هيا يا هيستنغز، لا وقت لدينا لنضيعه. اطلب سيارة أجرة بينما أكتبُ ملاحظة للمفتش جاب.

كان بوارو ينتظر أسفل الدرج عندما عدت بسيارة الأجرة. سألته بلهفة: أين نحن ذاهبان؟

- أولاً لنرسلْ هذه الملاحظة مع رسول أمين.

وقد قمنا بذلك، ولدى عودته إلى سيارة الأجرة أعطى بوارو العنوان للسائق: "٨٨ شارع الأمير ألبرت، كلافام".

قلت: إذن فنحن ذاهبان إلى هناك؟

- نعم، مع أنني أخشى -بصراحة- أن نكون قد تأخرنا كثيراً، وأن يكون «عصفورنا» قد طار يا هيستنغز.

- من هو عصفورنا؟

ابتسم بوارو وقال: السيد سيمبسن الغامض!

- ماذا؟

- آه، هيا الآن يا هيستنغز، لا تقل لي إن الأمور لم تَتَضِح كلها أمامك الآن!

- لقد تم استبعاد الطباخة عن الطريق، إنني أدرك ذلك. ولكن لماذا؟ لماذا يرغب سيمبسن بإبعادها عن البيت؟ أتُراها تعرف شيئاً عنه؟

- لا تعرف شيئاً أبداً.

- لماذا إذن؟

- لأنه يريد شيئاً تمتلكه هي.

- أهو المال؟ التركة الأسترالية؟

- لا يا صديقي... بل شيء مختلف تماماً.

توقف قليلاً ثم قال بجدية: صندوق قصديرٍ بالٍ...

رمقته بطرف عيني. بدا قوله غريباً إلى الحد الذي شككت معه بأنه يريد خداعي ومشاكستي، ولكنه كان جاداً ورزيناً تماماً. صحت به: من المؤكد أنه يستطيع شراء صندوق إن كان بحاجة لصندوق.

- إنه لا يريد صندوقاً جديداً. لقد أراد صندوقاً ذا أصالة وتاريخ، صندوقاً يلقى احتراماً أكيداً.

صحت به: اسمع يا بوارو... هذا يصعب هضمه؛ أنت تخادعني.

نظر بوارو إليّ وقال: أنت تفتقر إلى عقل وخيال السيد سيمبسن يا هيستنغز. اسمعني: في مساء يوم الأربعاء أبعد سيمبسن الطباخة بالخديعة. إن بطاقةً وورقةَ ملاحظاتٍ مطبوعةً مسائلُ يسهل الحصول عليها، وهو مستعد لدفع مئة وخمسين جنيهاً، وإيجار بيت لمدة سنة، ليضمن نجاح خطته. إن الآنسة دَنْ لم تتعرف إليه بسبب اللحية والقبعة ولكنةِ المستعمرات البسيطة مما خدعها تماماً. وهنا نصل إلى نهاية يوم الأربعاء، باستثناء الحقيقة الصغيرة التافهة، وهي أن سيمبسن قد ابتلع ما قيمته خمسون ألف جنيه من السندات القابلة للصرف.

قلت: سيمبسن...؟ ولكنه كان ديفيس!

قال بوارو: لو سمحت لي فقط أن أكمل حديثي يا هيستنغز! لقد عرف سيمبسن أن السرقة ستُكشف بعد ظهر يوم الثلاثاء، فلم يذهب إلى البنك ذلك اليوم، ولكنه جلس منتظراً خروج ديفيس إلى الغداء. وربما اعترف بالسرقة أمام ديفيس وأخبره أنه سيعيد إليه السندات. على كل حال فقد نجح في استدراج ديفيس ليأتي معه إلى كلافام. كان ذلك يوم عطلة الخادمة، والسيدة تود كانت في السوق، وهكذا فلم يكن في البيت أحد. وعندما تُكتشف السرقة ويُفقد أثر ديفيس ستكون دلالات ذلك طاغية بأن ديفيس هو اللص، وسيكون السيد سيمبسن آمناً تماماً، ويستطيع العودة إلى عمله في اليوم التالي بنفس براءة الموظف النزيه الذي اعتقدوه فيه!

قلت: وديفيس؟

قام بوارو بإشارة معبرة، وهزّ رأسه ببطء وحيرة ثم قال: إنها تبدوّ جريمة ارتكبت بأعصاب باردة إلى الحد الذي يصعب فيه تصديقها. ومع ذلك، فما هو التفسير الآخر الذي يمكن أن يرد هنا يا صديقي؟ إن إحدى الصعوبات التي تواجه القاتل هي التخلص من الجثة. وقد خطط سيمبسن لذلك مسبقاً. لقد لفتت انتباهي فوراً حقيقة أنه بالرغم من أن إليزا دَنْ كانت -كما هو واضح- تريد العودة في تلك الليلة عندما خرجت -بدليل ملاحظتها بخصوص الخوخ المغلي- فإن صندوقها كان مرزوماً جاهزاً عندما أتوا لأخذه وتسليمه. لقد كان سيمبسن هو الذي أرسل ملاحظة إلى كارتر باترسن ليأتي يوم الجمعة، وقد كان سيمبسن هو الذي ربط الصندوق بالحبال بعد ظهر يوم الثلاثاء. ما الشكوك التي يمكن أن تثور؟ خادمة تُرسل في طلب صندوقها، توضع على الصندوق علامة وعنوان ويرسل، ربما إلى محطة قطارات قريبة من لندن. وبعد ظهر يوم السبت يطالب سيمبسن -متنكراً كأسترالي- بالصندوق، حيث يضع عليه عنواناً جديداً ويعيد إرساله إلى مكان آخر، على أن «يُترك حتى تتم المطالبة به». وعندما تثور شكوك السلطات -لأسباب قاهرة- وتفتحه، فإن كل ما يمكن استنباطه سيكون أنّ رجلاً من المستعمرات أرسله من إحدى المحطات المركزية قرب لندن. لن يوجد ما يربط بين تلك القضية وبين ٨٨ شارع الأمير ألبرت. آه! هذا ما حدث.

كانت تكهنات بوارو صحيحة. إذ كان سيمبسن قد غادر قبل أيام. ولكن لم يقدر أن يفلت من عواقب جريمته، فبمساعدة اللاسلكي تم العثور عليه على متن طائرة خطوط أولمبيا المتجهة إلى أمريكا.

في غضون ذلك جذب صندوقٌ من القصدير موجه إلى السيد هنري وينترغرين انتباه مسؤولي السكة الحديد في غلاسكو، فقاموا بفتح الصندوق ليجدوا فيه جثة المسكين ديفيس.

أما ورقة الجنيه التي أرسلتها السيدة تود لبوارو فإنها لم تصرف أبداً. وبدلاً من ذلك قام بوارو بتأطيرها وتعليقها على جدار غرفة جلوسنا معلقاً: إنها بالنسبة لي تذكرة صغيرة يا هيستنغز، كيلا أزدري الضئيل التافه المسكين. خادمة تختفي من جهة، وجريمة قتل بأعصاب باردة من جهة أخرى... إنها -بالنسبة لي- واحدة من أكثر قضاياي إثارة!

* * *

عشّ الزنابير

خرج جون هاريسن من المنزل، ووقف على المصطبة الأمامية بعض الوقت ينظر إلى الحديقة أمامه. كان رجلاً ضخماً ذا وجه نحيل شديد الشحوب. كانت سيماه عادة تميل إلى الجهامة، ولكن عندما ترق القسمات المتغضنة -كما هو الآن- فتصبح ابتسامة، يصبح فيه شيءٌ ما شديد الجاذبية.

لقد أحب جون هاريسن حديقته، ولم يسبق لها أن بدت أفضل مما تبدو عليه هذا المساء الصيفي من شهر آب، باعثةً على الاسترخاء. لم تزل الورود المعترشة جميلة، والبازلاء الحلوة تملأ الجو بعبقها.

صوت صرير مألوف تماماً جعل هاريسن يدير رأسه بحدة. مَن هو القادم من بوابة الحديقة؟ وبعد دقيقة علا وجهه تعبير الدهشة التامة، لأن هيئة الرجل المهندم القادم عبر ممر الحديقة كانت آخر ما يتوقع رؤيته في هذا المكان من العالم.

صرخ هاريسن: هذا والله عجيب، السيد بوارو!

وكان حقاً هيركيول بوارو الشهير الذي طبقت شهرته الآفاق.

- نعم. لقد قلت لي يوماً: "إن وجدت نفسك يوماً في هذا الجزء من العالم فتعال لزيارتي"، وقد أخذتُك بجريرة كلمتك وجئت.

أجاب هاريسن بحماسة: وأنا ممتن لذلك، اجلس واشرب شيئاً.

وأشار إلى طاولة على الشرفة، فقال بوارو وهو يغرق في كرسي شبكي القاعدة: "أشكرك. لا أظن أن لديك عصير فواكه محلّي؟ كلا، لا أظن ذلك. قليل من ماء الصودا إذن، لا مشروبات كحولية". ثم أضاف بصوت حساس معبر بينما كان هاريسن يضع له كأس الصودا بجانبه: خسارة.. شاربان متهدلان! والسبب هو هذا الحر.

سأله هاريسن وهو يجلس على كرسي آخر: وما الذي جاء بك إلى هذه البقعة الهادئة؟ المتعة؟

- كلا يا صديقي، بل العمل.

- العمل؟ في هذا المكان النائي؟

هزّ بوارو رأسه بالإيجاب وهو متجهم الوجه ثم قال: نعم يا صديقي، فليست كل الجرائم ترتكب بين الحشود الغفيرة كما تعلم.

ضحك الآخر وقال: أظنها كانت ملاحظة بلهاء من طرفي. ولكن ما هي الجريمة المحددة التي تحقق فيها هنا، أم أن ذلك شيء يجب أن لا أسأل عنه؟

- تستطيع أن تسأل، والحقيقة أنني أفضّل أن تسأل.

نظر إليه هاريسن بفضول؛ فقد أحس بأنّ في أسلوب صديقه

وطريقة كلامه شيئاً غير عادي. بعدها تقدم بحديثه على نحو متردد بعض الشيء، قال: هل قلت إنك تحقق بجريمة؟ جريمة جدية؟

- من أكثر ما يمكن أن تكون الجرائم جدية.

- ماذا تعني...

- جريمة قتل.

وقد نطق بوارو هاتين الكلمتين بجدية بالغة جعلت هاريسن تأخذه المفاجأة. كان بوارو يحدق إليه مباشرة، وأيضاً كان في نظرته شيء غير عادي تماماً بحيث لم يعد هاريسن يعرف كيف يستمر في الحديث. ولكنه قال أخيراً: ولكنني لم أسمع بأية جريمة قتل.

- نعم، فأنت لم تكن لتسمع بها.

- ومن هو القتيل؟

- حتى الآن، لا أحد.

- ماذا؟

- ولذلك قلت إنك لم تكن لتسمع بها. إنني أحقق في جريمة لم ترتكب بعد.

- اسمعني يا بوارو، هذا هراء.

- أبداً. إن كان بوسع المرء أن يحقق في جريمة قبل حدوثها، فإن ذلك أفضل بكثير -بالتأكيد- من التحقيق بعد الجريمة. يمكن للمرء حتى أن يمنعها.

نظر هاريسن إليه ثم قال: إنك لست جاداً يا سيد بوارو.

- بلى، إنني جاد.

- أتعتقد حقاً بأن جريمة قتل ستُرتكب؟ آه، هذا سخيف!

أنهى بوارو الجزء الأول من جملته دون أن يلقي بالاً لتعجب صاحبه: ما لم نستطع أن نمنعها. نعم يا صديقي، هذا ما أعنيه.

- نمنعها؟

- نعم قلت: نمنعها نحن. فسأحتاج إلى تعاونك.

- ألهذا أتيت إلى هنا؟

مرة أخرى نظر بوارو إليه، ومرة أخرى جعله ذلك الشيء غير المحدد في نظرة بوارو يضطرب ويقلق.

- جئتُ إلى هنا يا سيد هاريسن لأنني.. حسناً، لأنني أحبك.

ثم أضاف بصوت مختلف كلياً: إنني أرى يا سيد هاريسن بأن لديك هناك عش زنابير. عليك أن تدمره.

أدى تغيير الموضوع بهاريسن إلى أن يقطب جبينه بطريقة تلفها الحيرة. ثم تبع بعينيه نظرة بوارو وقال بصوت مذعور: أنا في الحقيقة سأدمره... أو بالأحرى سيدمره الشاب لانغتن. هل تتذكر كلود لانغتن؟ كان حاضراً في نفس دعوة العشاء تلك التي قابلتك فيها. إنه قادم هنا هذه الليلة ليدمر هذا العش. يبدو شغوفاً بعض الشيء بهذا الأمر.

- آه، وكيف سيدمره؟

- بالنفط وحقنة الحديقة. ولكنه سيحضر إبرته الحاقنة؛ فحجّمها أكبر من حجم إبرتي.

- ألا توجد طريقة أخرى؟ باستخدام سيانيد البوتاسيوم؟

بدا وكأن هاريسن قد فوجئ قليلاً، وقال: بلى، ولكن تلك مادة خطيرة، ومن المجازفة دوماً الاحتفاظ بها في البيت.

هزّ بوارو رأسه موافقاً ببطء وقال: "نعم، إنه سم قاتل". تريث قليلاً وردد مرة أخرى بصوت وقور: سم قاتل.

علق هاريسن ضاحكاً: إنه مفيد إن كنت تريد «تصريف» حماتك، إيه؟

ولكن بوارو ظل جاداً، وقال: وهل أنت واثق يا سيد هاريسن بأن ما سيستخدمه السيد لانغتن في تدمير عش الزنابير هو النفط؟

- واثق تماماً، لماذا؟

- إنني أتعجب! لقد كنت عند الصيدلي في بارتشيستر عصر اليوم. وكان عليّ أن أوقّع في سجل السموم مقابل إحدى العقاقير التي اشتريتها، ورأيت في السجل آخر مادة وآخر توقيع. كانت المادة سيانيد البوتاسيوم وقد وقّع أمامها كلود لانغتن.

نظر هاريسن إليه وقال: غريب!... لقد أخبرني لانغتن أمس بأنه لم يحلم أبداً باستخدام هذه المادة، والحقيقة أنه قال إنه يجب عدم بيعها لهذه الأغراض.

أرسل بوارو ناظريه إلى الحديقة. وكان صوته هدئاً جداً وهو يطرح سؤاله: هل تحب لانغتن؟

جفل هاريسن؛ إذ بدا وكأن السؤال قد فاجأه على حين غفلة. قال: أنا... أنا... حسناً، بالطبع أحبه، ولماذا لا أحبه؟

قال بوارو بهدوء: كنت أتساءل فقط إن كنت تحبه.

ولما لم يجب هاريسن مضى بوارو قائلاً: وقد تساءلت أيضاً إن كان هو يحبك؟

- ما الذي تريد الوصول إليه يا سيد بوارو؟ في عقلك شيءٌ لا أستطيع سبر غوره.

- سأكون صريحاً جداً معك. إنك خاطب، وستتزوج يا سيد هاريسن. وأنا أعرف الآنسة مولي دين. إنها فتاة جميلة جداً وفاتنة جداً، وقبل أن تكون مخطوبة لك، كانت مخطوبة لكلود لانغتن، وقد تركته من أجلك.

هزّ هاريسن رأسه موافقاً، واستمر بوارو: أنا لا أسأل عن دوافعها في ذلك، فربما تكون لها مبرراتها. ولكنني أقول لك ما يلي: ليس من المُستكثَر عليك أن تفترض بأن لانغتن لم ينسَ ولم يغفر ذلك.

- أنت مخطئ يا سيد بوارو... أقسم أنك مخطئ. لقد تحلى لانغتن بروح رياضية، وتقبل الأمور كرجل، وقد كان شريفاً معي إلى حدٍ مدهش... بذل كل ما بوسعه ليكود ودوداً.

- ولم يسترعِ ذلك انتباهك كأمر غير عادي؟ لقد استعملت تعبير «إلى حدٍّ مدهش» ولكنك لا تبدو مدهوشاً.

- ما الذي تعنيه يا سيد بوارو؟

قال بوارو وفي صوته نبرة جديدة: أعني بأنه يمكن لرجل أن يخفي كرهه حتى يأتي الوقت المناسب.

- كرهه؟

هزّ رأسه بالنفي وهو يضحك.

- الإنكليز أغبياء جداً؛ يعتقدون أنهم يستطيعون خداع الجميع، وأن أحداً لا يستطيع خداعهم. هذا روحهُ رياضية، وهذا شابٌ طيب... لن يصدقوا أبداً وجود الشرّ فيه، ولأنهم شجعان -رغم غبائهم- فهم أحياناً يموتون في وقت ليسوا مضطرين للموت فيه.

قال هاريسن بصوت منخفض: إنك تحذرني. أنا أدرك ذلك الآن... أدرك ما حيرني طوال هذا الوقت. إنك تحذرني من كلود لانغتن. وقد جئت هنا اليوم لتحذرني...

هزّ بوارو رأسه موافقاً، فقفز هاريسن واقفاً وقال: ولكنك أنت المجنون يا سيد بوارو. نحن نعيش في إنكلترا، والأمور لا تجري بهذا الشكل هنا، فالخاطبون الذين تركتهم خطيباتهم لا يركضون في الشوارع طاعنين الناس في ظهورهم. وأنت مخطئ بخصوص لانغتن؛ فذلك الشاب غير مستعد أن يؤذي ذبابة.

قال بوارو بهدوء: حياة الذباب ليست موضع اهتمامي. ورغم

أنك تقول إن السيد لانغتن غير مستعد لقتل ذبابة، فإنك تنسى أنه يعد العدة الآن لقتل عدة آلاف من الزنابير.

لم يجب هاريسن على الفور. ونهض بوارو بدوره وتقدم من صديقه ووضع يده على كتفه. كان بوارو ثائراً منفعلاً حتى إنه كاد أن يهز جسد الرجل الضخم، وبينما كان يفعل ذلك همس بأذن صديقه قائلاً: تغلّب على غفلتك يا صديقي، تغلب على غفلتك. وانظر... انظر إلى حيث أشير. هناك عند الحافة، تماماً قرب جذر الشجرة. انظر إلى الزنابير وهي تعود إلى عشها هادئة في نهاية النهار. خلال ساعة قصيرة سيحل بها الدمار، وهي لا تعرف ذلك. ليس هناك من يخبرها.. ليس لديها -كما يبدو- أحد مثل هيركيول بوارو. إنني أقول لك يا سيد هاريسن بأنني قد جئت إلى هنا في عمل، وإن جرائم القتل هي عملي، وهي عملي قبل أن تُرتكب بقدر ما هي عملي بعد ارتكابه. في أي وقت سيأتي السيد لانغتن لنزع عش الزنابير هذا؟

- لانغتن لن...

- سألتك: في أي وقت؟

- في الساعة التاسعة. ولكنني أقول لك: إنك مخطئ تماماً. لانغتن لن يقدم أبداً...

صاح بوارو مقاطعاً في نوبة عاطفة: يا لهؤلاء الإنكليز!

ثم أخذ قبعته وعصاه ومضى عبر الممشى، توقف قليلاً ليلتفت ويقول: لن أبقى لكي أتجادل معك، فلن أجني من ذلك إلاّ إغضاب نفسي، ولكن، ليكن بعلمك: سأعود في الساعة التاسعة.

فتح هاريسن فمه ليتكلم، ولكن بوارو لم يعطه فرصة لذلك، إذ قال: أعرف ما ستقوله... لانغتن لن يقدم أبداً... إلخ. حسناً، أنتَ تقول: إن لانغتن لم يقدم أبداً! ولكنني -مع ذلك- عائد إليك في الساعة التاسعة. نعم، وسيسرني ذلك، اعتبرها هكذا: يسرني أن أشاهد تدمير عشر الزنابير. اعتبرها رياضة أخرى من رياضاتكم الإنكليزية!

لم ينتظر جواباً، بل مضى سريعاً في ممر الحديقة، ثم إلى الخارج عبر البوابة التي تصدر صريراً. وما أن أصبح في الشارع حتى خفّت سرعة خطواته، وتلاشت حيويته ونشاطه، وأصبح وجهه قلقاً وقوراً. أخرج ساعته من جيبه ونظر إليها. كانت العقارب تشير إلى الثامنة وعشر دقائق. تمتم قائلاً: أكثر من ثلاثة أرباع الساعة. عجباً، هل استعجلت؟

تباطأت خطواته، بل بدا وكأنه وصل إلى نقطة يكاد يعود فيها. بدا أن نذير شرٍ غامضاً يهاجمه، ولكنه طرد ذلك الهاجس عنه بتصميم واستمر في سيره باتجاه القرية. ولكن وجهه كان ما يزال قلقاً، وقد هز رأسه مرة أو مرتين صنع رجل لا يملك إلاّ بعض القناعة.

* * *

كانت الساعة قبل التاسعة ببضع دقائق عندما اقترب مرة أخرى من بوابة الحديقة. كان المساء صافياً ساكناً لا تكاد ترى فيه هبة نسيم تحرك أوراق الشجر. ربما كان في هذا السكون شيءٌ ما شرير، كالهدوء الذي يسبق العاصفة.

تحركت قدما بوارو بشكل أسرع قليلاً، إذ شعر فجأة بالذعر وعدم اليقين. كان يخاف شيئاً لا يدرك كنهه. وفي تلك اللحظة فتحت بوابة الحديقة، وخرج منها كلود لانغتن بسرعة إلى الشارع. وقد جفل عندما رأى بوارو وقال: آه...مـ... مساء الخير.

- مساء الخير يا سيد لانغتن. لقد خرجت مبكراً.

نظر لانغتن إليه وقال: لا أدري ما الذي تعنيه؟

- هل عالجت عش الزنابير؟

- في الحقيقة... لا، لم أعالجه.

قال بوارو بلطف: آه، أنت لم تعالج عش الزنابير. فماذا فعلت إذن؟

- جلست فقط وتحدثت قليلاً مع هاريسن العجوز. إنني مضطر حقاً للإسراع بالانصراف الآن يا سيد بوارو. لم تكن لديّ فكرة بأنك باقٍ في هذا الجزء من العالم.

- لديّ عمل هنا.

- آه! حسناً، ستجد هاريسن على المصطبة. أنا آسف لأنني لا أستطيع البقاء.

وأسرع مبتعداً. تابعه بوارو بنظراته. كان شاباً عصبي المزاج، حسن الهيئة، ذا فم ينم عن الضعف! تمتم بوارو قائلاً: فسأجد هاريسن على المصطبة إذن. ترى هل سأجده؟

دخل من بوابة الحديقة، ثم عبر الممر. كان هاريسن جالساً

على كرسي قرب الطاولة. جلس ساكتاً، بل إنه لم يُدِر رأسه عندما اقترب منه بوارو قائلاً: آه! يا صديقي. ألَنت علَى ما يرام؟

ساد صمت طويل، قال بعده هاريسن بصوت ذاهل: ماذا قلت؟

- قلت: هل أنت على ما يرام؟

- بخير، نعم... أنا بخير. ولماذا لا أكون كذلك؟

- ألا تشعر بأية آثار سيئة؟... هذا جيد.

- آثار سيئة؟ من ماذا؟

- من مسحوق غسول الصودا.

نهض هاريسن فجأة وقال: غسول الصودا؟ ما الذي تعنيه؟

قام بوارو بحركة اعتذار وقال: إنني آسف جداً لاضطراري لذلك، ولكنني وضعت بعض حبيبات مسحوق الصودا في جيبك.

- وضعت حبيبات الصودا في جيبي؟ لماذا بالله عليك؟

حدق هاريسن إليه. تكلم بوارو بهدوء وبأسلوب موضوعي، وكأنه محاضر نزل إلى مستوى طفل صغير: أنت تعلم أن واحدة من محاسن -أو مساوئ- العمل كرجل تحرٍّ أن ذلك يجعلك على اتصال مع طبقات المجرمين، وهؤلاء يستطيعون أن يعلّموك بعضاً من أغرب الأمور وأشدها إثارة. صادفت نشالاً ذات يوم، واهتممت به لأنه -في تلك المرة تحديداً، من بين آلاف المرات- لم يكن قد ارتكب ما اتُّهم به، وهكذا أنقذته، ولأنه شعر بالامتنان لي، فقد وقاني أجري

بالطريقة الوحيدة التي وصل إليها تفكيره، وهي تعليمي حيل مهنته. وهكذا فإنني أستطيع نشل جيب رجل -إن أردتُ- دون أن يحس أبداً بذلك. أضع إحدى يدي على كتفه، ثم أمثل دور المنفعل، ولا يحس هو بشيء، فيما أكون قد تمكنت من نقل ما في جيبه إلى جيبي، وترك بعض حبيبات الصودا مكانه.

ثم تابع بوارو حالماً: أرأيت؟ إن أراد رجل أن يصل إلى بعض السم بسرعة ليضعه في كأسٍ دون أن يلحظه أحد فإن عليه أن يحتفظ به في جيب معطفه الأيمن، ليس من مكان آخر. لقد عرفت أنه سيكون هناك.

ثم دس يده في جيبه وأخرج بعض الحبيبات البيضاء المتكتلة المبلورة، وتمتم قائلاً: خطيرة جداً... ولا ينبغي حملها هكذا، دون إناء محكم.

ومن جيبه الآخر أخرج ببطء وهدوء زجاجة واسعة الفوهة. أدخل الحبيبات المتبلورة فيها، ثم تقدم من الطاولة وملأ الزجاجة بالماء الصافي. بعد ذلك أغلق سدادتها بحذر، وأخذ يرجّها حتى ذابت الحبيبات. كان هاريسن يراقبه وكأنه مسحور. وبعد أن اقتنع بوارو بمحلوله مشى إلى عش الزنابير... فتح الزجاجة وأدار رأسه جانباً وسكب المحلول في العش، ثم تراجع خطوتين ليراقب الوضع.

كانت بعض الزنابير التي تحطّ عائدة إلى عشها ترتجف قليلاً ثم ترتمي ساكنه، فيما زحفت زنابير أخرى خارج فتحة العش لترتمي ميتة بعدها. راقب بوارو ذلك برهة، ثم هزّ رأسه وعاد إلى الشرفة قائلاً: موت سريع، سريع جداً.

وجد هاريسن أخيراً صوته وقال: ما هو مدى معرفتك؟

نظر بوارو أمامه تماماً وقال: كما قلت لك، لقد رأيت اسم كلود لانغتن في السجل. أما ما لم أخبرك به فهو أنني صادفته بعد ذلك مباشرة. وقد أخبرني بأنه كان يشتري سيانيد البوتاسيوم بناء على طلبك أنت لتدمير عش الزنابير. وقد أثار ذلك انتباهي باعتباره أمراً غريباً يا صديقي، لأنني أتذكر أنك -في ذلك العشاء الذي تحدثت عنه- تكلمت مطولاً عن الحسنات الكبيرة لاستخدام النفط، واستنكرتَ شراء السيانيد باعتباره خطيراً وغير ضروري.

- استمر.

- وعرفت شيئاً آخر. لقد رأيت كلود لانغتن ومولي دين معاً في مكان لم يكونا يعتقدان أن أحداً سيراهما فيه. إنني لا أعرف تلك المشاجرة بين المحبّين التي جعلتهما أساساً يفترقان ودفعت الفتاة إليك، ولكنني أدركت بأن سوء التفاهم بينهما قد زال، وأن الآنسة دين كانت في طريق عودتها إلى حبيبها.

- استمر.

- وقد علمت شيئاً آخر يا صديقي. لقد كنتُ في شارع هارلي، شارع الأطباء، قبل أيام، وقد رأيتك تخرج من عيادة طبيب معين. وأنا أعرف الطبيب وأعرف المرض الذي يلجأ إليه الناس من أجله، وقد قرأت التعبير على وجهك. ذلك التعبير الذي لم أره سوى مرة أو مرتين طوال حياتي، ولكنه تعبير لا يمكن الخطأ فيه. كان وجهُك وجهَ رجل حُكم عليه بالإعدام. أنا على حق في هذا، أليس كذلك؟

- على حق تماماً، وقد قرر الطبيب أنني لن أعيش سوى شهرين.

- أنت لم ترني يا صديقي؛ لأنك كنت مشغولاً جداً بأمور أخرى تفكر فيها. وقد رأيتُ شيئاً آخر في وجهك، ذلك الشيء الذي قلت لك عصر اليوم إن الرجال يحاولون إخفاءه... رأيت فيه الكراهية يا صديقي. إنك لم تكلف نفسك عناء إخفائها، لأنك لم تظنّ أن أحداً كان يراقبك.

- استمر.

- لم يعد لديّ كثير مما يُقال. جئتُ هنا، ورأيت اسم لانغتن بالمصادفة في سجل السموم كما قلت لك، ثم قابلته، وجئتك هنا. لقد نصبت لك فخاخاً. أنت أنكرت أنك طلبت من لانغتن الحصول على السيانيد، أو بالأحرى عبرت عن دهشتك لفعله ذاك. لقد فوجئت في البداية لدى رؤيتي، ولكنك سرعان ما أدركت أن وجودي سيكون مناسباً لما تفكر فيه، فشجعت شكوكي. كنت أعرف من لانغتن نفسه أنه سيأتي هنا في الساعة الثامنة والنصف، ولكنك قلت إنه سيجيء في التاسعة، معتقداً أنني سآتي لأجد كل شيء منتهياً، وهكذا كنت أعرف كل شيء.

- لماذا أتيت؟ لو أنك فقط لم تأت!

اعتدل بوارو في جلسته وقال: لقد قلت لك، إن القتل هو اختصاصي.

- القتل؟ بل قل: الانتحار.

صدع صوت بوارو حاداً واضحاً وهو يقول: كلا، بل أعني

القتل. كان موتك سيكون سريعاً وسهلاً، ولكن موت لانغتن الذي خططت له كان أسوأ موت يمكن لإنسان أن يلقاه: فهو الذي اشترى السم، وهو الذي جاء لزيارتك، وهو -وحده- الذي كان معك. تموت فجأة، ويُكشف السيانيد في كأسك، ويُشنق كلود لانغتن... تلك كانت خطتك.

زمجر هاريسن مرة أخرى نائحاً: لماذا أتيت؟ لماذا أتيت؟

- لقد أخبرتك. ولكن يوجد سبب آخر؛ وهو أنني أحبك. اسمع يا صديقي، إنك رجل يُحتضَر، وقد فقدتَ الفتاة التي أحببتها، ولكن شيئاً واحداً لا يمكن أن تكونه... فأنت لست قاتلاً. قل لي الآن: أأنت سعيد أم آسف لحضوري؟

سادت لحظات صمت، واعتدل هاريسن في جلسته. بدت في وجهه هيئة جديدة: هيئة رجل استطاع أن يتحكم بدخيلة نفسه العميقة. مد يده عبر الطاولة وصاح: شكراً لله أنك أتيت... آه، شكراً لله أنك أتيت.

* * *

لغز كورنْوول

أعلنت صاحبة المبنى قائلة: "السيدة بينغيللي"، ثم انسحبت بهدوء.

يأتي لاستشارة بوارو العديد من الناس ممن لا يُنتظر حضورهم إليه، ولكن المرأة التي وقفت مرتبكة أمام الباب وهي تمرر أصابعها بعصبية على ياقة الريش حول عنقها كانت -حسب رأيي- أكثر هؤلاء الناس بُعداً عن إمكانية القدوم لاستشارة بوارو. كانت عادية لدرجة استثنائية، نحيلة شاحبة، في نحو الخمسين من عمرها، ترتدي معطفاً مزركشاً وتنورة، وفي رقبتها حليةٌ ذهبيةٌ ما، وقد علت شعرها الأشيب قبعة غير لائقة بشكل غريب. ولو مشيت في بلدة في الريف لصادفتك في كل يوم مئة سيدة كالسيدة بينغيللي.

- تقدم بوارو وحياها بمودة مدركاً حرجها الواضح: سيدتي! اجلسي، أرجوك. هذا زميلي الكابتن هيستنغز.

جلست السيدة وهي تتمتم بشيء من عدم اليقين: هل أنت السيد بوارو، التحري؟

- في خدمتك يا سيدتي.

ولكن ضيفتنا بقيت مربوطة اللسان. تنهدت، ولوت أصابعها، وأخذ لونها يزداد احمراراً باطراد فقال بوارو: هل يوجد ما يمكنني أن أخدمك به يا سيدتي؟ إيه؟

- حسناً، اعتقدت... أي أنني، لا أدري...

- تفضلي يا سيدتي، أرجوك.

سيطرت السيدة بينغيللي على نفسها بعد هذا التشجيع وقالت: الأمر على هذا النحو يا سيد بوارو، لا أريد أن يكون لي أي اتصال بالشرطة. كلا، ما كنت لأذهب للشرطة كائناً ما كان السبب! إنني قلقة جداً من أمر معين، ومع ذلك لا أدري إن كان ينبغي علي أن...

توقفت فجأة، فقال بوارو: بالنسبة لي، فأنني لا علاقة لي أبداً بالشرطة؛ فتحرياتي خاصة تماماً.

التقطت السيدة بينغيللي الكلمة وقالت: هذا ما أريده. لا أريد أية أحاديث أو فضائح أو أشياء تصل إلى الصحف. إنهم يكتبون الأمور بطريقة سيئة شريرة، حتى لا تستطيع العائلة وأفرادها رفع رؤوسهم أبداً بعدها. كما أن الأمر لم يبلغ مني حدّ التأكد واليقين... إنها مجرد فكرة مخيفة راودتني ولم أستطع انتزاعها من رأسي.

توقفت قليلاً لتلتقط أنفاسها ثم أضافت: وربما أكون ظالمة للمسكين إدوارد كلّ هذا الوقت وعلى نحو شرير. إنها فكرة رهيبة بالنسبة لأية زوجة، ولكن المرء يقرأ فعلاً عن مثل هذه الأمور الفظيعة في هذه الأيام.

- اسمحي لي... هل تتحدثين عن زوجك؟

- نعم.

- وأنت تشكّين أنه... ماذا؟

- لا أحب حتى قولها يا سيد بوارو. ولكنك تقرأ حقاً أن مثل هذه الأمور تحدث، ولا تكون الأرواح المسكينة مرتابة بشيء.

كنت سأبدأ في اليأس من إمكانية دخول السيدة في الموضوع، ولكن صبر بوارو كان مساوياً للامتحان الذي تعرض له. قال لها: تحدثي دون خوف يا سيدتي. فكري في مقدار الفرح الذي ستلاقينه إن استطعنا أن نثبت أن شكوكك لا أساس لها.

- هذا صحيح. إن أي وضع سيكون أفضل من عدم اليقين المضني هذا. آه يا سيد بوارو... إنني خائفة بشكل فظيع من أنني يجري... تسميمي.

- وما الذي يجعلك تعتقدين ذلك؟

اندفعت السيدة بينغيللي -وقد زال عنها تحفظها- في رواية كاملة كان الأنسب أن تتلى على مسمع طبيبها الخاص، وبعد أن أكملت قال بوارو وهو يفكر: الألم والمرض بعد الطعام، إيه؟ هل من طبيب يُعنى بك يا سيدتي؟ وما الذي يقوله عن حالتك؟

- يقول إنه التهاب المعدة الحاد يا سيد بوارو. ولكنني أستطيع أن أرى حيرته، وهو يغيّر الدواء دائماً، ولكن أياً من الأدوية لم ينفعني.

- هل تحدثت عن... مخاوفكِ، معه؟

- كلا في الواقع يا سيد بوارو؛ فربما انتشر الخبر في البلدة، وربما كان الأمر التهاب المعدة حقاً. ولكن الغريب جداً أنه في كل وقت يسافر فيه إدوارد لقضاء عطلة نهاية الأسبوع أعود صحيحة من جديد. وحتى فريدا لاحظت ذلك، وهي ابنة حَمِيّ يا سيد بوارو. ثم توجد تلك الزجاجة من السائل القاتل للأعشاب الضارة، إذ يقول البستاني إنها لم تستخدم أبداً، ومع ذلك فهي نصف فارغة.

نظرت ضارعة إلى بوارو، الذي ابتسم لها مشجعاً ثم جذب قلماً ودفتر ملاحظات وقال: لنكن عمليين يا سيدتي. والآن إذن، أين تقيمان أنت وزوجك؟

- في بولغارويذ، وهي بلدة صغيرة تقع في منطقة كورنوول.

- وهل تعيشان هناك منذ زمن طويل؟

- منذ أربعة عشر عاماً.

- والبيت يضمك أنت وزوجك فقط؟ هل لديكما أي أطفال؟

- كلا.

- ولكن توجد ابنة حميك، أظنك قلت ذلك؟

- نعم، إنها فريدا ستانتن ابنة أخت زوجي الوحيدة. لقد عاشت معنا خلال السنوات الثماني الماضية، أي حتى قبل أسبوع.

- آه... وما الذي حدث قبل أسبوع؟

- لم تكن الأمور تسير بشكل مفرح منذ بعض الوقت. لا أدري

ما الذي أصاب فريدا؛ فقد كانت فظة جداً ووقحة، وكان مزاجها مريعاً، وفي النهاية انفجرت غضباً ذات يوم وخرجت من البيت واستأجرت سكناً خاصاً بها في البلدة، ولم أرها منذ ذلك الوقت. من الأفضل أن أتركها حتى يعود إليها رشدها، هذا ما يقوله السيد رادنور.

- من هو السيد رادنور؟

عاد شيء من حرج السيدة بينغيللي الأولي إليها، وقالت: آه، إنه، إنه مجرد صديق... شاب ظريف جداً.

- وهل يوجد أي شيء بينه وبين ابنة حميك؟

قالت السيدة بينغيللي بتأكيد: لا شيء أبداً.

بدل بوارو مجال حديثه وقال: أنت وزوجك تعيشان -كما أحسب- في ظروف مريحة مادياً؟

- نعم، إننا في بحبوحة جيدة.

- والمال، أهو مالك أم مال زوجك؟

- آه.. إنه كله لإدوارد، أنا لا أملك شيئاً خاصاً بي.

- تعلمين يا سيدتي: حتى نكون عمليين، يجب أن نكون قساة. ينبغي أن نبحث عن دافع. إن زوجك لن يسمّك لمجرد قضاء الوقت! هل تعلمين أي سبب يجعله يتمنى إبعادك عن الطريق؟

أجابت السيدة بينغيللي بدفقة غضب: تلك الفاجرة الشقراء التي

تعمل عنده. إن زوجي طبيب أسنان يا سيد بوارو، ولن يفيد عيادته -كما يقول- إلاّ أن يوظف فتاة جذابة ذات شعر قصير ومعطف أطباء أبيض لتنظم له مواعيده وتخلط له حشوات الأسنان. وقد تناهى إلى مسمعي أن مجرياتٍ لطيفة تدور بينهما، مع أنه يحلف طبعاً بأن الأمور عادية.

- من الذي اشترى زجاجة قاتل الأعشاب تلك يا سيدتي؟

- زوجي... منذ نحو السنة.

- وابنة حميك... هل لديها أموال خاصة بها؟

- نحو خمسين جنيهاً سنوياً كما أعتقد. سيسرها أن تعود وترعى شؤون البيت لإدوارد إن تركتُه أنا.

- إذن فقد فكرتِ في تركه؟

- إنني لا أنوي أن أدعه يدير الأمور بطريقته ولمصلحته فقط. إن النساء لم يَعُدن جاريات تُداس بالأقدام كما كُنّ في العهود الغابرة يا سيد بوارو.

- إنني أهنئك على روحك المستقلة يا سيدتي، ولكن لنكن عمليين... هل ستعودين إلى بولغارويذ اليوم؟

- نعم، لقد أتيت في سفرة قصيرة ذهاباً وإياباً؛ انطلق القطار في السادسة من صباح اليوم، وسيعود في الخامسة من بعد الظهر.

- حسناً! ليس تحت يدي الآن عمل ذو أهمية كبرى، وأستطيع تكريس نفسي لقضيتك الصغيرة. سأكون غداً في بولغارويذ. هل يمكن

أن تقول إن هيستنغز هذا هو قريب لك من بعيد، ابن عم أبيك؟ أما أنا فصديقه الأجنبي غريب الأطوار. وفي هذه الأثناء لا تأكلي إلاّ ما تحضّره يداك أنت، أو يُحضَّر تحت نظرك. ألك خادمة تثقين بها؟

- نعم، جيسي، وهي فتاة جيدة جداً. أنا واثقة من ذلك.

- نلتقي غداً إذن يا سيدتي، ولتتحلي بالشجاعة الكافية.

* * *

ودّع بوارو السيدة بانحناءة وعاد إلى كرسيه مفكراً، ولكن استغراقه لم يكن طاغياً إلى الحد الذي يمنعه من رؤية قصاصتي ريش انتزعتهما أصابع السيدة المتوترة. أخذ القصاصتين بحذر ورماهما في سلة المهملات وقال: ماذا استنتجت من هذه القضية يا هيستنغز؟

- أعتقد أنه عمل قذر.

- نعم، إن كان ما تشك فيه المرأة صحيحاً، ولكن هل هو صحيح؟ الويل لأي زوج يشتري زجاجة قاتل أعشاب ضارة في هذه الأيام، فإن كانت زوجته تعاني من التهاب المعدة ويغلب عليها المزاج الهستيري، فإن الفأس توشك أن تقع في الرأس.

- وهل تعتقد أن ذلك هو كل ما في القضية؟

- آه، لا أعرف يا هيستنغز، ولكن القضية تستهويني. إنها تثيرني كثيراً؛ لأنها لا تحمل -بالتأكيد- ملامح جديدة... إن كنت تفهم ما أعنيه. لدينا نظرية الهستيريا، ولكن السيدة بينغيللي -مع

ذلك- لم تسترعِ انتباهي كامرأة هستيرية. نعم، إن لدينا هنا -إن أخطئ- دراما إنسانية مثيرة جداً. قل لي يا هيستنغز: ما هي المشاعر التي تعتقد أن السيدة بينغيللي تُكنّها تجاه زوجها؟

- الولاء الذي يتصارع مع الخوف.

- ومع ذلك، ففي الأحوال العادية قد تتهم المرأة أي شخص في العالم إلاّ زوجها، فهي تتمسك بإيمانها به في السرّاء والضرّاء.

- «المرأة الأخرى» تعقّد المسألة.

- نعم، قد ينقلب الحب إلى كراهية بفعل حافز الغيرة. ولكن الكره كان من شأنه أن يقودها إلى الشرطة، وليس إليّ أنا. كان من شأنها أن تحتاج إلى صرخة مدوية، إلى فضيحة. كلا، كلا... دعنا نشغّل خلايا دماغنا الرمادية الصغيرة. لماذا أتت إليّ؟ لتصل إلى إثبات خطأ شكوكها؟ أم لتصل إلى إثبات صحتها؟ آه، لدينا هنا شيء لا أفهمه... يوجد عامل مجهول. هل تكون صاحبتنا السيدة بينغيللي ممثلة بارعة؟ كلا، لقد كانت صادقة وعلى سجيتها، وبوسعي أن أقسم أنها كانت صادقة، ولذلك أثارت القضية اهتمامي. انظر لنا مواعيد القطارات إلى بولغارويذ، أرجوك.

* * *

كان أنسب قطار خلال النهار قطار الساعة الواحدة وخمسين دقيقة الذي ينطلق من محطة بادينتغتن ويصل إلى بولغارويذ بُعَيد الساعة السابعة تماماً. كانت الرحلة عادية، وكان عليّ أن أقطع إغفاءة لذيذة وأعتدل في جلستي لكي أميّز رصيف المحطة الصغيرة

المهجورة. أخذنا حقائبنا إلى فندق داتشي، وبعد وجبة خفيفة اقترح بوارو أن نخرج لنزور قريبتي المزعومة زيارة مسائية قصيرة.

كان بيت عائلة بينغيللي ينتصب بعيداً قليلاً عن الشارع وأمامه حديقة ريفية قديمة الطراز. هبّت مع نسيم الليل رائحة النبتات العطرية، وبدا مستحيلاً الربط بين أفكار العنف وبين سحر «العالم القديم» هذا. قرع بوارو الباب ورنّ جرسه، وعندما لم يُستجب للنداء رنّ الجرس ثانية، وبعد قليل فتحت الباب خادمة شعثاء المظهر. كانت عيناها حمراوين، وكانت تنشج بعنف.

قال بوارو: إننا نرغب برؤية السيدة بينغيللي. أنستطيع الدخول؟

حدقت الخادمة إلينا، ثم أجابت بصراحة غير عادية: ألم تسمعا إذن؟ لقد ماتت! ماتت هذا المساء، منذ نحو نصف ساعة.

جمدنا نحدق إليها ذاهلين، وأخيراً سألتها: ممّ ماتت؟

قالت الخادمة: يوجد البعض ممن يستطيع إخباركم.

ثم التفتت لتلقي نظرة عجلى ومضت تقول: لو لم يكن الواجب يقضي ببقاء أحدٍ ما هنا في البيت مع السيدة لحزمت صندوقي وذهبت الليلة، ولكنني لن أتركها ميتة دون أحدٍ يحرسها. إنني لست في موقع يتيح لي قول أي شيء، ولن أقول أي شيء، ولكن الجميع يعلمون، والخبر منتشر في كل البلدة. وإذا لم يكتب السيد رادنور إلى وزارة الداخلية فلا بد أن يكتب شخص آخر. يستطيع الطبيب أن يقول ما يحلو له. ألم أشاهد السيد بأم عينيّ يُنزل قاتل الأعشاب عن الرف مساء هذا اليوم نفسه؟ ألم يجفل هو عندما دار ورآني أرقبه؟ ألم يكن حساء

السيدة على المائدة هناك جاهزاً لآخذه لها؟ لن تمر قطعة طعام أخرى من شفتي وأنا في هذا البيت... حتى لو كانت حياتي معلقة بها!

سألها بوارو: أين يعيش الطبيب الذي كان يرعى سيدتك؟

- الدكتور آدامز، عند الزاوية، في شارع هارلي، البيت الثاني.

دار بوارو مبتعداً فجأة. كان شاحباً جداً، وقلت بتحفظ وأنا أتبعه: بالنسبة لفتاةٍ لا تريد قول أي شيء، فقد قالت هذه الفتاة الكثير!

ضرب بوارو قبضة يده براحة يده الأخرى وقال: أبله... أبله مجرماً... هذا ما كنته أنا يا هيستنغز. لقد تبجحتُ بخلاياي الرمادية الصغيرة، وها أنا أفقد الآن حياة إنسان، حياة من سعى إليّ طالباً الأمان. لم أحلم أبداً بأن شيئاً سيحدث بهذه السرعة. فليغفر لي الله، ولكني لم أصدق أن شيئاً سيحدث البتة. بدت لي قصتها مصطنعة! ها قد وصلنا إلى بيت الطبيب... لنرَ ما يمكن أن يخبرنا به.

* * *

كان الدكتور آدامز نموذجاً للطبيب الريفي ذي الوجه الأحمر الذي ترسمه القصص. استقبلنا بشكل مهذب تماماً، ولكن أول تلميح قدمناه عن مهمتنا جعل وجهه الأحمر يتحول أرجوانياً. قال: هراء لعين! هراء لعين بكل كلمةٍ فيه! ألم أكن أنا أشرف على حالتها؟ لقد كان التهاب المعدة، التهاب المعدة ببساطة ودون زيادة أو نقصان. هذه البلدة مرتع للشائعات والقيل والقال، يجتمع الكثير من العجائز من صيادات الفضائح، ويخترعن ما لا يعلمه إلاّ الله. إنهن يقرأن تلك الصحف البالية البذيئة، ولن يقنعهن شيء بقدر ما يقنعهن تسميم أحدٍ

من أبناء بلدتهنّ أيضاً. يبصرن زجاجة قاتل أعشاب على أحد الرفوف، وهيا... سريعاً! يسرح خيالهن بعيداً ليعمل تلفيقاً واختراعاً. إنني أعرف إدوارد بينغيللي، ما كان ليسُمّ حتى كلب جدته. ولماذا يسُمّ زوجته؟ قل لي بربك؟

قال بوارو: ربما يوجد شيء لا تعرفه أنت يا سيدي الطبيب.

ثم أتى -باختصار- على الوقائع الأساسية لزيارة السيدة بينغيللي. وما كان أحد ليُدهَش دهشة الدكتور آدامز، حتى كادت عيناه تخرجان من محجريهما. هتف بقوة: رحماك يا إلهي! لا بد أن المرأة المسكينة قد جنت. لماذا لم تتحدث إليّ؟ كان ذلك هو الإجراء المناسب.

- لكي تضع مخاوفها في موضع سخريتك؟

- أبداً، أبداً. إنني لأرجو أن أكون ذا عقل متفتح.

نظر إليه بوارو وابتسم. كان الطبيب -كما هو واضح- أكثر حيرة وارتباكاً مما يمكن له أن يعترف به. وفيما غادرنا البيت انفجر بوارو ضاحكاً وقال: إنه أعند من خنزير! لقد قال إنه التهاب المعدة، ولذلك فهو التهاب المعدة! ومع ذلك فقد أصبح قلقاً.

قلت: ما هي خطوتنا التالية؟

- عودة إلى الفندق، وليلة رعب تقضى على أسِرّتكم الريفية الإنكليزية يا صديقي. إنه لأمر يثير الشفقة، ذلك السرير الرخيص!

- وغداً؟

- عبثاً نحاول. ينبغي أن نعود إلى المدينة وننتظر التطورات.

قلت وقد أُصبت بخيبة أمل من جوابه هذا موقف فاتر جداً لتفترض أن أي تطورات لم تحدث؟

بل ستحدث. أعدك بذلك! يمكن لطبيبنا العجوز أن يصدر من الشهادات قدر ما يحبّ، ولكنه لن يستطيع وقف عدة مئات من الألسنة عن اللغط والكلام. وسيكون لهذه الألسنة -في لغطها هدف... أستطيع أن أؤكد لك ذلك!

كان مقرراً أن يغادر قطار العودة إلى المدينة في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي. وقبل أن ننطلق إلى المحطة عبّر بوارو عن رغبة برؤية الآنسة فريدا ستانتن ابنة أخت السيد بينغيللي التي ذكرتْها لنا زوجته الميتة. وجدنا المنزل الذي كانت تقطنه بسهولة، وكان معها شاب أسمر طويل قدمته لنا بشيء من الاضطراب على أنه السيد جاكوب رادنور

كانت الآنسة فريدا ستانتن فتاة بارعة الجمال من ذلك الطراز القديم الذي يميز نساء كورنوول، ذات شعر أسود وعينين سوداوين وخدود متوردة. وقد كان في تلك العينين السوداوين وميضٌ ينبئ عن مزاج ليس من الحكمة إثارته

قالت بعد أن قدم بوارو نفسه معرّفاً بعمله. آه! عمّتي المسكينة... إنه لأمر محزن جداً. لقد كنت أتمنى طوال الصباح لو أنني كنت اكثر لطفاً وصبراً معها.

قاطعها رادنور قائلاً: لقد تحملت كثيراً يا فريدا

قالت فريدا: نعم يا جاكوب، ولكنني ذات مزاج حاد، وأعرف ذلك في نفسي لقد كان الأمر في النهاية مجرد سخف من جانب

العمة. كان ينبغي عليّ أن أكتفي بالضحك وعدم الاهتمام بالطبع كان ظنها بأن خالي يسمُّها هراء كله. لقد كانت بالفعل تزداد سوءاً بعد كل طعام يعطيها إياه، ولكنني واثقة أن ذلك لم يكن إلاّ من تفكيرها في ذلك. كانت تحسم أمرها بأنها ستصبح بحالة أسوأ، ثم تصبح كذلك بالفعل.

سألها بوارو: ما هو السبب الفعلي لعدم اتفاقكما يا آنسة؟

ترددت الآنسة ستانتن وهي تنظر إلى رادنور، وكان ذلك الشاب سريعاً في فهم الإيماءة، إذ قال: عليّ أن أذهب يا فريدا. أراك هذا المساء. وداعاً أيها السيدان، أعتقد أنكما ستتوجهان إلى المحطة، أليس كذلك؟

أجابه بوارو بالإيجاب، فغادر رادنور.

سأل بوارو بابتسامة ماكرة: إنكما مخطوبان، أليس كذلك؟

توردت و جنتا فريدا ستانتن خجلاً، واعترفت بأن الأمر كذلك بالفعل، وأضافت: وقد كان ذلك حقاً سبب كل المشكلة مع العمة.

- أرفضته لأنه غير كفء لك؟

- آه، لم يكن الأمر على هذا النحو. ولكن، كانت...

ثم توقفت الفتاة، فشجعها بوارو بلطف قائلاً: نعم؟

- إنه يبدو أمراً فظيعاً أقوله بحقها.. إنها الآن ميتة. ولكنك لن تفهم أبداً إلاّ إن أخبرتك بالحقيقة. لقد كانت تهيم حباً بجاكوب إلى أبعد الحدود.

- حقاً؟

نعم، ألم يكن ذلك سخيفاً؟ كانت تتجاوز الخمسين من عمرها، وهو لم يكد يبلغ الثلاثين! ولكن هذا ما حدث كانت متعلقة به بشكل سخيف! واضطررت أخيراً أن أقول لها إنه إنما يسعى خلفي أنا.. وانخرطت معها في نقاش مخيف. لم تكن لتصدق حرفاً مما قلته لها، وكانت وقحة توجه الإهانات لي، فلا تستغرب أني فقدت أعصابي. تناقشت وجاكوب في الأمر، واتفقنا على أن أفضل شيء أفعله هو أن أترك البيت لبعض الوقت حتى يعود إليها عقلها. المسكينة... أحسبها كانت في حالة غريبة عموماً

- يبدو الأمر كذلك بالتأكيد شكراً يا آنسة، لتوضيحك الأمور لي إلى هذا الحد.

* * *

أدهشني قليلاً أن رادنور كان بانتظارنا في الشارع، وقد بادرَنا بالقول: بوسعي أن أخمن ما الذي كانت فريدا تقوله لكم. لقد كان أمراً مؤسفاً جداً حدوثه، وكان أمراً محرجاً جداً لي كما يمكنكما أن تتصورا، ومن نافلة القول أن أقول إن ذلك لم يكن من فعلي أنا لقد سررت في البداية، لأنني تخيلت أن العجوز كانت تساعدني على التقدم وصولاً إلى خطبة فريدا. كان الأمر كله سخيفاً، ولكنه كان كريهاً إلى أبعد الحدود.

سأله بوارو: متى ستتزوجان أنت والآنسة ستانتن؟

- سريعاً كما آمل. والآن يا سيد بوارو سأكون لطيفاً معك. إنني أعرف أكثر قليلاً مما تعرف فريدا إنها تعتقد أن خالها بريء، ولستُ واثقاً إلى هذا الحد من ذلك. ولكن بوسعي أن أقول لك شيئاً واحداً

إنني سأمسك لساني عن قول ما أعرفه دع الفتنة نائمة لأنني لا أريد لخال زوجتي أن يحاكم ويعدم بتهمة القتل

- ولماذا تخبرني بكل ذلك؟

- لأنني سمعت عنك، وأعرف بأنك رجل ذكي من المحتمل تماماً أن تتمكن من التنقيب حتى تعثر على قضية ضده ولكنني أقول لك. ما نفع ذلك؟ لقد فات أوان مساعدة المرأة المسكينة، ولقد كان من شأنها أن تكون آخر من يرغب بإثارة فضيحة، بل إنها ستتقلب في قبرها لمجرد التفكير باحتمال الفضيحة.

ربما كنت محقاً في هذا. إذن فأنت تريدني أن أطوي القضية؟

- هذا رأيي. وسأعترف بصراحة بأنني أناني في هذا الأمر. إن لي طريقاً عليّ أن أشقّه؛ فأنا أُنشئ مشروعاً صغيراً جيداً للخياطة وبيع الألبسة الجاهزة.

- أغلبينا أنانيون يا سيد رادنور. ولكننا لا نعترف جميعاً بذلك بهذه السهولة. سأقوم بما طلبته مني، ولكني أقول لك بصراحة: إنك لن تنجح في طي الموضوع.

- لماذا؟

رفع بوارو أحد أصابعه، إذ كان هذا اليومُ يوم التسوّق، وكنا نمر في السوق حيث تناهت إلينا من داخله همهمات حثيثة أجابه بوارو: بسبب صوت الناس... لهذا لن تنجح يا سيد رادنور آه، ينبغي أن نركض وإلاّ فاتنا قطارنا.

* * *

قال بوارو بينما كان القطار ينفث دخانه خارجاً من المحطة إنها قضية مثيرة جداً، أليس كذلك يا هيستنغز؟

كان قد أخرج من جيبه مشطاً صغيراً، ومرآة بالغة الصغر، وأخذ يعدل من وضع شاربيه اللذين اختل تناسقهما بعض الشيء أثناء ركضنا السريع. أجبته: يبدو أنك تراها كذلك. أما بالنسبة لي فهي أمر قذر وكريه، ولا تكاد تحتوي على أي لغز.

- أتفق معك، ليس فيها أي لغزٌ مهما كان نوعه.

- وأحسب أن بوسعنا أن نقبل رواية الفتاة الغريبة بعض الشيء عن هيام زوجة خالها، أليس كذلك؟ ويبدو أن ذلك هو الجزء الوحيد المهم عندي. لقد كانت امرأة لطيفة محترمة.

- ليس في ذلك غرابة، فالأمر طبيعي تماماً. إنك ستجد -لو قرأت الصحف بعناية- أنه غالباً ما تهجر امرأة لطيفة محترمة في هذا العمر زوجها الذي عاشت معه عشرين سنة، بل تهجر أحياناً عائلة كاملة من الأطفال أيضاً، لكي تربط حياتها بحياة شاب يصغرها بكثير. إنك تعجب بالنساء يا هيستنغز، وتنبطح أمام كل امرأة جميلة المنظر كان لها من حسن الذوق ما جعلها تبتسم لك، ولكنك لا تعرف عنهن شيئاً من الناحية النفسية، ففي خريف عمر المرأة تأتي دوماً لحظة مجنونة تتوق فيها إلى الرومانسية، إلى المغامرة، قبل أن يفوت الأوان. وهذه اللحظة تأتي بنفس الدرجة من التوكيد لامرأة هي زوجةٌ لطبيب أسنان محترم في بلدة ريفيّة!

- وأنت تعتقد...

- بأن رجلاً ذكياً يمكنه أن يستغل لحظة كهذه.

ما كنت لأعتبر بينغيللي ذكياً إلى هذا الحد. فقضيته شغلت كل البلدة ومع ذلك، أظن أنك على حق إن الرجلين الوحيدين اللذين يعرفان شيئاً رادبور والطبيب. كلاهما يريد طيّ القضية لقد تدبر أمره بشكل أو بآخر أتمنى لو كنا رأيناه

- تستطيع أن تشبع أمنيتك. عُد على متن القطار التالي واخترع ألماً في أحد أضراسك.

نظرتُ إليه بحدةٍ وقلت أتمنى لو أعرف ما الذي تعتبره مثيراً إلى هذا الحد في القضية

- إن اهتمامي يتلخص كثيراً بملاحظةٍ قلتها أنت يا هيستنغر بعد مقابلتنا للخادمة قلت إنها قالت كثيراً بالنسبة لشخص لا يريد أن يقول شيئاً

قلت بارتياب: آه!

ثم عدت ثانية لانتقادي الأصلي أتساءل لماذا لم تحاول رؤية السيد بينغيللي؟

يا صديقي، إنني أعطيه فترة ثلاثة أشهر فقط وبعدها سأراه المدة التي أريدها في قفص الاتهام.

* * *

في هذه المرة، من بين كل المرات، ظننت أن تخمينات بوارو سيثبت بطلانها فقد مر الوقت، ولم يرشَح شيء بخصوص قضيتنا في كورنوول وشغلتنا مسائل أخرى، وكدت أنسى مأساة بينغيللي،

وإذا بها تعود لي فجأة عبر فقرة قصيرة في الجريدة ذكرت أن أمراً بتشريح جثة السيدة بينغيللي قد تم استصداره من وزارة الداخلية.

بعد عدة أيام غدا «لغز كورنوول» موضوعاً رئيسياً لكل الصحف، وبدا أن الشائعات والأقاويل لم تخمد أبداً، وعندما تم إعلان خطوبة الأرمل على الآنسة ماركس سكرتيرته، اندلع كلام الألسن ثانية أعلى من أي وقت مضى. وأخيراً تم إرسال التماس إلى وزارة الداخلية، وقد تم تشريح الجثة، واكتُشفت فيها كميات كبيرة من الزرنيخ، وتم اعتقال السيد بينغيللي واتهامه بقتل زوجته.

وقد حضرت مع بوارو الإجراءات الأولية للمحاكمة، وكان الدليل كبيراً كما هو متوقع. واعترف الدكتور آدامز بأن أعراض التسميم بالزرنيخ يمكن -بسهولة- الخلط بينها وبين أعراض التهاب المعدة. وأدلى خبير وزارة الداخلية بشهادته، وصبّت الخادمة جيسي سيلاً من المعلومات المهذارة رُفِض أغلبُها، ولكن كان من شأنها بالتأكيد تقوية الدعوى ضد المتهم السجين. وأدلت فريدا ستانتن بشهادة قالت فيها إن زوجة خالها كانت تسوء حالتها كلما أكلت طعاماً حضّره زوجها. وأخبر جاكوب رادنور المحكمة كيف أنه زار بيت الضحية على غير موعد يوم وفاة السيدة بينغيللي ووجد السيد بينغيللي يعيد زجاجة قاتل الأعشاب الضارة إلى رف الخزانة، وكان حساء السيدة بينغيللي قريباً على الطاولة. ثم تم استدعاء السكرتيرة الشقراء، فبكت وانهارت واعترفت بأنه كانت بينها وبين مخدومها «صفحات»، وأنه قد وعد بالزواج منها في حال حدوث أي شيء لزوجته. وقد احتفظ بينغيللي بدفاعه، وتم إرساله لمحاكمته.

* * *

مشى جاكوب رادنور معنا في طريق عودتنا إلى الفندق قال بوارو: أرأيت يا سيد رادنور؟ لقد كنتُ محقاً... لقد تكلم صوت الناس، وكان صوتاً أكيداً واثقاً. لم يكن من مجال لطيّ هذه القضية.

تنهد رادنور وقال: لقد كنتَ محقاً تماماً. هل ترى أية فرصة له في النجاة؟

- حسناً، لقد احتفظ بدفاعه. ربما كان لديه شيء «في أكمامه» كما تقولون معشر الإنكليز. هل لك أن تدخل معنا؟

قبل رادنور الدعوة. طلبت كأسين من الليمون، وكوباً من الكاكاو الساخن. وقد سبب الطلب الأخير ذعراً في مطعم الفندق، وارتبتُ كثيراً في إمكانية أن يضفي هذا الطلب شيئاً من الأبهة على طالبه.

كان بوارو يتابع حديثه مع رادنور قائلاً: بالطبع، إن لديّ كثيراً من التجربة في قضايا من هذا النوع، ولا أستطيع أن أرى إلاّ ثغرةً واحدة لنجاة صديقنا.

- ما هي؟

- أن توقّع أنت على هذه الورقة.

وبفجاءة ساحر، أخرج بوارو ورقة مملوءة بالكتابة فقال له رادنور: ما هذه؟

- اعتراف بأنك أنت من قتل السيدة بينغيللي.

ساد الصمت للحظة، ثم ضحك رادنور وقال: لا بد أنك مجنون!

- لا، لا يا صديقي، أنا لست مجنوناً لقد أتيت هنا، وبدأت مشروعاً صغيراً، ونقصك المال. كان السيد بينغيللي رجلاً ثرياً، فقابلت ابنة أخته، وكانت تميل للابتسام لك. ولكن المخصصات القليلة التي كان يمكن للسيد بينغيللي أن يعطيها إياها عند زواجها لم تكن كافية لك. يجب عليك أن تتخلص من الخال وزوجته كليهما وعندها تؤول الأموال إليها؛ إذ أنها كانت القريبة الوحيدة. ويا للذكاء الذي بدأت به خطتك! لقد لاطفتَ تلك المرأة الكهلة الساذجة حتى غدتْ متيمةً بك، ثم زرعت فيها الشكوك بزوجها. فقد اكتشفتْ بداية بأنه يخدعها، ثم بدأتْ تشك -تحت إرشادك- بأنه يحاول تسميمها. وقد كنتَ دائم التردد على البيت، وكانت لديك الفرص لوضع الزرنيخ في طعامها، ولكنك كنت حريصاً على عدم القيام بذلك عندما يغيب زوجها. ولأنها امرأة فإنها لم تحتفظ بشكوكها لنفسها، فتحدثت مع ابنة زوجها، ولا شك أنها أخبرت أيضاً بعض صديقاتها. وكانت الصعوبة الوحيدة أمامك هي المحافظة على علاقتين منفصلتين مع المرأتين، وحتى ذلك لم يكن بتلك الصعوبة التي يبدو عليها. لقد شرحت للخالة بأنك -في سبيل إبعاد شكوك الزوج- مضطر للتظاهر بطلب ود ابنة الأخت. ولم تكن الشابة لتحتاج كثيراً من الإقناع، فلم تكن لتعتبر خالتها منافسة لها بشكل جدي أبداً.

بعد ذلك قررتْ السيدة بينغيللي -دون أن تخبرك بشيء- أن تستشيرني أنا. إن كانت تستطيع التأكد فعلاً، ودون أي شك، بأن زوجها يحاول تسميمها، فسوف تشعر بمبرر لتركه وربط حياتها بك، وهو الأمر الذي كانت تتخيل أنك تريده، ولكنه لم يوافق خطتك على الإطلاق؛ إذ لم تكن تريدُ رجل تحرٍّ يكشف المسألة. وكانت

لحظة مواتية: كنتَ في البيت عندما كان السيد بينغيللي يحضر بعض الحساء لزوجته، فوضعت فيه الجرعة القاتلة. والبقية سهلة، ففيما كنتَ حريصاً -ظاهرياً- على طيّ المسائل، كنت تنشرها بالسر. ولكنك وضعت حساباتك دون اعتبار لهيركيول بوارو يا صديقي الشاب الذكي.

كان رادنور شاحباً كالموتى، ولكنه استطاع -مع ذلك- أن يتعامل مع الموقف بشيء من السيطرة. قال: هذا مثير جداً ورائع، ولكن لماذا تخبرني بكل ذلك؟

- لأنني يا سيد لا أمثل القانون، بل أمثّل السيدة بينغيللي. وإنني أمنحك -إكراماً لها- فرصةً للهرب. وقّع على هذه الورقة، وستكون لديك مهلة أربع وعشرين ساعة، أربع وعشرين ساعة قبل أن أضعها في أيدي الشرطة.

تردد رادنور ثم قال: أنت لا تستطيع أن تثبت شيئاً.

- لا أستطيع؟ أنا هيركيول بوارو. انظر من تلك النافذة أيها السيد. في الشارع رجلان ولديهما أوامر بألاّ تغيب عن أعينهما.

مشى رادنور إلى النافذة، وأزاح الستارة، ثم عاد مخذولاً وهو يتمتم بالشتائم.

- هل رأيت أيها السيد؟ وقّع... إنها أفضل فرصة لديك.

- وما هي الضمانات؟

- ضمانات الوفاء بعهدي؟ إنها كلمة هيركيول بوارو. هل ستوقع؟ حسناً. تلطّفْ يا هيستنغز واسحبْ تلك الستارة اليسرى

نصف فتحة. تلك هي الإشارة المتفق عليها لترك السيد رادنور يمضي دون مضايقة.

أسرع رادنور في مغادرة الغرفة وهو شاحبٌ يتمتم باللعنات، فيما هزّ بوارو رأسه وقال: الجبان! لقد كنت دوماً أعرف ذلك.

صرختُ بغضب: يبدو لي يا بوارو أنك قد تصرفت بأسلوب إجرامي. كنتَ دوماً تلقي المواعظ محذراً من العاطفة، وها أنت الآن تدع مجرماً عتيداً ينجو بدافعٍ من العاطفية المحضة.

- لم يكن ذلك عاطفة، بل كان أسلوب عمل. ألا ترى يا صديقي أننا لا نملك أيّ برهان يدينه؟ هل تريدني أن أقف لأقول لاثني عشر بليداً من محلفي كورنوول بأنني أنا، هيركيول بوارو، أعرف الحقيقة؟ كانوا سيضحكون مني! كانت الفرصة الوحيدة هي تخويفه وأخذ اعتراف منه بهذه الطريقة، وقد كان هذان المتسكعان اللذان لاحظت وجودهما في الخارج مفيدَيْن تماماً. أسدل الستارة ثانية يا هيستنغز، فلم يكن من سبب لرفعها. كان ذلك جزءاً من إخراجنا للمشهد. حسناً، حسناً، ينبغي أن نلتزم بتعهدنا. هل قلت: أربع وعشرون ساعة؟ وقت طويل جداً بالنسبة للسيد بينغيللي المسكين، ولكنه ليس أطول مما يستحق؛ لأنه خدع زوجته. إنني متشدد جداً في مسألة الحياة الأسرية كما تعلم. آه حسناً، أربع وعشرون ساعة، وبعدها؟ إن لي ثقة كبيرة في سكوتلانديارد. سوف يمسكون به يا صديقي، سوف يمسكون به.

* * *

مغامرة الطفل المخطوف

قالت السيدة ويفرلي، ربما للمرة السادسة: "بوسعك أن تفهم مشاعر الأم"، ونظرتْ برجاء إلى بوارو.

وبما أن صديقي الضئيل متعاطفٌ دوماً مع الأمومة المعذبة فقد أومأ مُطمْئِناً وقال: نعم، نعم.. أفهم تماماً. ضعي ثقتكِ في بابا بوارو.

بدأ السيد ويفرلي حديثه بكلمة: الشرطة...

ولكن زوجته استبعدت تدخله بيدها وقالت: لا أريد أية علاقة بعد مع الشرطة. لقد وثقنا بهم، وانظر ما الذي حدث! ولكني سمعت الكثير عن السيد بوارو والأشياء الرائعة التي قام بها بحيث شعرت أنه ربما يكون قادراً على مساعدتنا. إن شعور الأم...

سارع بوارو إلى وقف تكرار الحديث بإشارة بليغة منه. كانت السيدة ويفرلي صادقة أصيلة كما هو واضح، ولكن تلك العاطفة تواءمت بشكل غريب مع ملامحها الذكية القاسية إلى حدٍ ما. وعندما سمعتُ لاحقاً بأنها كانت ابنة صاحب مصنع فولاذ شق طريقه في هذا العالم من صبيّ مكتب إلى منزلته الرفيعة الحالية، عندها أدركت بأنها قد ورثت كثيراً من صفات أبيها.

أما السيد ويفرلي فقد كان ضخماً أحمر البشرة بادي المرح. كان يقف هناك وقد باعد بين ساقيه نموذجاً لملاّكِ ريفي. قال: أحسب أنك تعرف كل شيء عن هذه القضية يا سيد بوارو؟

كان السؤال غير ضروري. فلعدة أيام خلت كانت الصحف مليئة بخبر الاختطاف المثير للطفل الصغير جوني ويفرلي، الابن ذي السنوات الثلاث والوريث للشريف ماركوس ويفرلي صاحب عِزْبَة ويفرلي كورت في صَرّي، والمتحدر من إحدى أعرق عائلات إنكلترا.

قال بوارو: اعرف الحقائق الأساسية طبعاً، ولكن أعدْ عليّ القصة كلها يا سيدي أرجوك، وبالتفصيل إذا سمحت.

قال السيد ويفرلي: حسناً، أظن أن بداية الأمر كله كانت قبل عشرة أيام خلت تقريباً، عندما تلقيت رسالة من مجهول، وهي مسألة بغيضة على كل حال. كان كاتبها من الوقاحة بحيث طلب أن أدفع له خمسة وعشرين ألف جنيه، خمسة وعشرين ألف جنيه يا سيد بوارو! وقد هدّد بخطف جوني لو أخفقت في الاستجابة لطلبه. وبالطبع رميت الرسالة في سلة المهملات دون اكتراث؛ فقد ظننتها نكتة سخيفة. وبعد خمسة أيام تلقيت رسالة أخرى تقول: «إذا لم تدفع فسيُخطف ابنك في التاسع والعشرين من الشهر». كان ذلك يوم السابع والعشرين. ولقد قلقَتْ آدا من الأمر، ولكنني لم أستطع إقناع نفسي بالتعامل جدياً مع المسألة. تباً، فنحن في إنكلترا. ما من أحد يستطيع أن يتجول ويخطف الأطفال ويحتجزهم طلباً للفدية!

علّق بوارو قائلاً: إنه ليس أمراً شائعاً بالتأكيد. أكمل يا سيدي.

- حسناً، لم تترك لي آدا مجالاً للراحة والسلام، وهكذا قمت

-وأنا أشعر في نفسي بالغباء- بعرض القضية أمام سكوتلانديارد. ولم يبد أنهم يأخذون القضية على محمل الجد تماماً، وقد مالوا إلى وجهة نظري بأن الأمر لا يعدو أن يكون نكتة سمجة. في الثامن والعشرين من الشهر تلقيت رسالة ثالثة تقول: «أنت لم تدفع، سيؤخذ منك طفلك في الساعة الثانية عشرة من ظهر غد التاسع والعشرين، وستكلفك استعادته خمسين ألف جنيه». ذهبت إلى سكوتلانديارد مرة أخرى، ولقد تأثروا أكثر هذه المرة، ومالوا إلى فكرة أن الرسائل كتبها مجنون، وأنه في كل الاحتمالات فإن محاولةً من نوعٍ ما ستتم في الساعة التي تم تحديدها. وقد أكدوا لي بأنهم سيتخذون كافة الاحتياطات الضرورية، وأن المفتش ماكنيل سيأتي في اليوم التالي ومعه قوة كافية إلى ويفرلي ويتولى المسؤولية.

عدت إلى البيت مرتاح البال، ومع ذلك فقد أصبحنا سلفاً نشعر أننا في حالة حصار. أعطيت أوامري بعدم السماح لأي غريب بالدخول إلى العزبة، وأن لا يغادر أحد المنزل. وقد مضت الليلة دون أي حادث مشؤوم، ولكن في صباح اليوم التالي غدت زوجتي مريضة بشكل خطير، فأرسلت -وقد ذعرت لحالتها- في طلب الطبيب ديكرز، وقد بدا أن الأعراض التي تعاني منها قد حيرته. وبينما كان يتردد في الإشارة إلى أنها قد تسممت، كنت أستطيع أن أرى أن ذلك هو ما كان يجول في خاطره. وقد أكد لي أنه لا يوجد خطر، ولكنها ستستغرق يوماً أو يومين قبل أن تستعيد عافيتها ثانية. ولدى عودتي إلى غرفتي فوجئت وذهلت لرؤية ملاحظة شُبكت إلى مخدتي بدبوس. كانت بنفس خط يد الرسائل الأخرى، وكانت تحتوي ثلاث كلمات فقط: «عند الثانية عشرة».

أعترفُ يا سيد بوارو بأنني عندها فقدت صوابي! إذ أن شخصاً ما داخل المنزل متورط في القضية. شككت أنه قد يكون واحداً من الخدم، فجمعتهم وكِلتُ لهم السباب والاتهامات، ولكن أياً منهم لم يشِ بالآخرين. وقد كانت الآنسة كوليتز (رفيقة زوجتي وسكرتيرتها) هي التي أخبرتني أنها رأت مربية جوني الخاصة تتسلل عبر ممشى العزبة في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم. واجهتُها بالأمر فانهارت، وقالت إنها تركت الطفل مع خادمة غرفته وتسللت لتقابل صديقاً لها! مجريات رائعة! وقد أنكرَتْ أنها شبكت الملاحظة بمخدتي. ربما كانت تقول الحقيقة... لا أدري، ولكنني شعرت بأنني لا أستطيع المخاطرة بأن تكون المربية الخاصة للطفل جزءاً من المؤامرة. كانت الدلائل تشير إلى أحد الخدم، كنت واثقاً من ذلك. وأخيراً فقدت أعصابي وطردت المجموعة كلها، مربية الطفل وكل الخدم الباقين. أعطيتهم ساعة لحزم صناديقهم والخروج من البيت!

كان وجه السيد ويفرلي أكثر حمرة بدرجتين وهو يتذكر حنقه العادل. وقال بوارو: ألم يكن في ذلك بعض الظلم يا سيدي؟ فمن يدري، ربما كان ذلك الإجراء منك لمصلحة العدو.

نظر السيد ويفرلي إليه وقال: لا أفهم ذلك. كانت فكرتي أن أتخلص من كل المجموعة. أرسلت برقية إلى لندن من أجل طاقم جديد يرسل لي في تلك الليلة، وعندها لن يكون في البيت إلاّ أناس أثق بهم: سكرتيرة زوجتي الآنسة كولينز، وتريدويل كبير الخدم الذي كان معي منذ كنت طفلاً.

- وهذه الآنسة موليتز، منذ متى هي معكم؟

قالت السيدة ويفرلي: منذ عام فقط. كانت مفيدة جداً بالنسبة لي كسكرتيرة ومرافقة، وهي مديرة منزل عالية الكفاءة كذلك.

- ومربية الطفل؟

- إنها تعمل معي منذ ستة أشهر. جاءتني بتوصيات وتزكيات ممتازة ممن سبق لها خدمتهم، ولكني لم أحبها أبداً في الواقع، مع أن جوني كان متعلقاً بها كثيراً.

قال بوارو: ومع ذلك، أظن أنها كانت قد غادرت قبل وقوع الكارثة. هل لك يا سيد ويفرلي أن تتلطف بإكمال حديثك.

تابع السيد ويفرلي روايته: وصل المفتش ماكنيل في نحو الساعة العاشرة والنصف، وكان الخدم قد غادروا جميعاً في ذلك الوقت. وقد أعلن قناعته التامة بكل الترتيبات الداخلية المتخذة، ووضع العديد من الرجال في مواقع في الحديقة الخارجية ليحرسوا كل مداخل البيت. وقد أكد لي بأنه إن لم يكن الأمر برمته خدعة فسوف يتم الإمساك -دون شك- بالرجل الغامض. أبقيت جوني معي، وذهبنا أنا وهو والمفتش معاً إلى الغرفة التي نسميها غرفة الاجتماعات حيث أقفل المفتش الباب. توجد في الغرفة ساعة جدارية كبيرة، وأعترف -بغير حرج- أنني قد غدوت عصبياً كالقطة فيما كانت عقاربها تقترب من الثانية عشرة، ثم سُمع صوت أنين المسننات وبدأت الساعة تدق. أمسكت جوني بقوة، إذ كان لديّ شعور بأن رجلاً قد ينزل من السماء. وفيما كانت الساعة تدق الدقة الأخيرة، حدثت فوضى هائلة في الخارج... صراخ وركض. فتح المفتش النافذة بسرعة، وهرع شرطي أمام النافذة وصاح لاهثاً: "لقد أمسكناه يا سيدي، كان يتسلل

عبر الأغصان وبحوزته عدة تخدير كاملة".

خرجنا مسرعين إلى المصطبة حيث كان شرطيان يمسكان بشخص إجرامي الهيئة يرتدي ملابس رثة، كان يتلوى ويدور في مسعى عبثي للنجاة. كان أحد الشرطة يحمل لفافة مفتوحة انتزعت من الجاني، وكانت تحتوي على بعض القطن وزجاجة كلوروفورم، وقد جعلَتْ رؤيتُها الدمَ يغلي في عروقي. وكانت معه أيضاً ملاحظة موجهة إليّ. فتحتها، وكانت تحمل الكلمات التالية: «كان عليك أن تدفع. إن افتداء ابنك سيكلفك الآن خمسين ألفاً. بالرغم من كل احتياطاتك، فقد اختطف ابنك في التاسع والعشرين، كما قلت».

أطلقتُ ضحكةً كبرى، ضحكة ارتياح، ولكن فيما كنت أضحك سمعت هدير محرك وصرخة. أدرت رأسي لأرى سيارة طويلة رمادية اللون تنطلق عبر ممر الحديقة باتجاه البوابة الجنوبية بسرعة شديدة. كان الرجل الذي يقودها هو الذي أطلق الصيحة، ولكن ذلك لم يكن مصدر صدمة الرعب التي اجتاحتني، بل كان منظر خصلات شعر جوني الشقراء... كان الطفل بجانبه في السيارة!

أطلق المفتش شتائم جارحة وصاح: "لقد كان الطفل هنا قبل دقيقة فقط". ثم استعرَضَنا بعينيه، وكنا جميعاً هناك: أنا وتريدويل والآنسة كولينز!

قال بوارو: متى رأيت الطفل آخر مرة يا سيد ويفرلي؟

- لقد عدت بعقلي إلى الوراء محاولاً أن أتذكر. عندما نادانا الشرطي ركضت إلى الخارج مع المفتش، ناسياً جوني تماماً. بعد ذلك جاءنا صوت جفلنا منه، صوت جرس الكنيسة في القرية. انتزع

المفتش ساعته متعجباً، وكانت تشير إلى تمام الثانية عشرة. ركضنا في توافق مشترك واحد إلى غرفة الاجتماعات، كانت الساعة هناك تشير إلى الثانية عشرة وعشر دقائق. لا بد أن أحداً قد عبث بالساعة عمداً، لأنني لم أرها تُسبق أو تؤخر مطلقاً، فهي ساعة تامة الدقة.

صمت السيد ويفرلي، وابتسم بوارو مع نفسه، وعدل بقدمه حصيرة صغيرة كان الأب القلق قد حرفها عن موضعها، ثم تمتم قائلاً: قضية مُشوّقة صغيرة، غامضة وتسحر الألباب. سوف أحقق فيها بكل سرور. لقد خُططتْ كتحفة رائعة.

نظرت إليه السيدة ويفرلي بتأنيب، وناحت قائلة: ولكن، ولدي!

وسرعان ما أعاد بوارو تشكيل سيماء وجهه ليبدو في صورة المتعاطف الجاد مرة أخرى، قائلاً: إنه بأمان يا سيدتي ولم يصبه أذى. فلتهدئي ولتثقي بأن هؤلاء الأوغاد سوف يولونه أعظم رعاية. أليس بالنسبة إليهم ديك الحبش، كلا، بل الإوزة التي تضع بيضاً من ذهب؟

قالت السيدة ويفرلي: يا سيد بوارو، إنني واثقة أن أمامنا شيئاً واحداً فقط يمكن فعله، أن ندفع النقود. كنت أعارض ذلك بشدة في البداية، أما الآن! إن شعور الأم...

قاطعها بوارو بسرعة قائلاً: ولكننا قطعنا رواية السيد.

واصل السيد ويفرلي: أتوقع أنك تعرف الباقي تماماً من الصحف. بالطبع، عمد المفتش ماكنيل مباشرة إلى الهاتف، وتم توزيع أوصاف السيارة والشخص في كل المناطق. وبدا لنا في البداية كما لو أن كل شيء سينتهي على ما يرام. قيل إن سيارةً بنفس

المواصفات، فيها رجل وصبي صغير، مرّت عبر العديد من القرى وهي تتجه -فيما يبدو- باتجاه لندن. وقد توقفت السيارة في أحد هذه الأماكن، ولوحظ بأن الصبي كان يبكي وكان يبدو واضحاً أنه خائف من مرافقه. وعندما أعلن المفتش ماكنيل بأنه قد تم توقيف السيارة واعتقال الرجل والصبي كدت أمرض لشدة ارتياحي. ولكنك تعرف النتيجة. لم يكن الصبي هو جوني، وكان الرجل متسابق سيارات متحمساً، مغرماً بالأطفال، وكان قد التقط طفلاً يلعب في شوارع إيدنزويل، وهي قرية تبعد نحو خمسة عشر ميلاً عنّا، وكان يأخذه ببراءة ولطف، في جولة بسيارته. وقد اختفت كل آثار السيارة الحقيقية بفضل الشرطة وأخطائهم الفاضحة، فلو لم يلاحقوا السيارة الخطأ بإصرار لربما كانوا عثروا الآن على الصبي.

قال بوارو: هدّئ من روعك يا سيدي. إن رجال الشرطة شجعان أذكياء، وخطؤهم طبيعي تماماً. كانت الخطة -إجمالاً- خطة ذكية. فيما يخص الرجل الذي أمسكوه في حديقة المنزل، فهمت أن دفاعه كان يتألف من الإنكار العنيد طوال الوقت، وأنه أعلن أن الملاحظة واللفافة قد أعطيت له ليسلمها في عزبة ويفرلي، وقد أعطاه الرجل الذي سلمه اللفافة والملاحظة عشرة شلنات ووعده بعشرة شلنات أخرى إذا تم التسليم في الساعة الثانية عشرة إلاّ عشر دقائق بالضبط، وأنه طلب منه دخول المنزل عبر الحديقة وقرع الباب الجانبي.

قال السيد ويفرلي بغضب: إنني لا أصدق كلمة مما قال... إنها مجموعة أكاذيب.

قال بوارو متفكراً: الحقيقة أنها قصة واهية، ولكنهم لم يستطيعوا

خلخلتها حتى الآن. لقد فهمت أيضاً أنه وجّه اتهاماً معيناً؟

واستجويت نظرات بوارو السيد ويفرلي الذي احمر وجهه مجدّداً وقال: كان هذا الرجل من الوقاحة بحيث تظاهر بأنه ميّز في تريدويل الرجل الذي أعطاه اللفافة، وقال إنه نفس الرجل إلاّ أنه حلق شاربيه. تريدويل الذي ولد في هذه العزبة!

ابتسم بوارو قليلاً على سخط الرجل الريفي، وقال: ومع ذلك فأنت نفسك شككت بأحد سكان المنزل كأحد المتواطئين في الاختطاف.

- نعم، ولكن ليس تريدويل.

التفت بوارو فجأة إلى السيدة ويفرلي وسألها: وأنت يا سيدتي؟

- لا يمكن أن يكون تريدويل هو الذي أعطى الرجل الرسالة واللفافة، هذا إن كان أحدٌ قد أعطاهما أساساً، الأمر الذي لا أصدقه. فقد أعطيت له في الساعة العاشرة كما يقول، وفي الساعة العاشرة كان تريدويل مع زوجي في غرفة التدخين!

- هل استطعتَ أن ترى وجه الرجل في السيارة؟ هل يشبه وجه تريدويل بأي شكل؟

- كان أبعد من أن أرى وجهه.

سأله بوارو: هل لدى تريدويل أخ حسب علمك؟

- كان لديه عدة أخوة، ولكنهم ماتوا جميعاً. وآخرهم قُتل في الحرب.

- إنني لم أفهم تماماً وضع حديقة عزبة ويفرلي. لقد كانت السيارة تتجه ناحية البوابة الجنوبية. هل يوجد أي مدخل آخر؟

- نعم، يوجد ما ندعوه بالبوابة الشرقية، ويمكن رؤيتها من الجانب الآخر للمنزل.

- يبدو لي غريباً أن أحداً لم يرَ السيارة تدخل الحديقة.

- يمرّ في الحديقة طريق تستخدمه السيارات العامة -بحكم العادة- مدخلاً لكنيسة صغيرة، وكثير من السيارات تعبره. لا بد أن الرجل أوقف السيارة في مكان مناسب، وركض إلى البيت مسرعاً بمجرد حدوث الإنذار وانصراف الانتباه إلى مكان آخر.

فكر بوارو ثم سأل: ما لم يكن الرجل سلفاً داخل البيت، فهل يوجد أي مكان كان يمكن له أن يختبئ فيه؟

قال السيد ويفرلي: حسناً، إننا بالتأكيد لم نقم بتفتيشٍ دقيقٍ للمنزل مسبقاً، إذ لم تظهر حاجة لذلك. أعتقد أنه ربما كان قد اختبأ في مكان ما، ولكن من كان سيسمح له بالدخول؟

- سوف نناقش ذلك لاحقاً. دعنا نفكر في كل أمرٍ على حدة... لنكن منهجيين. ألا يوجد في المنزل أي مخبأ خاص؟ إن عزبة ويفرلي مكان قديم، ومثل هذه الأماكن لا يخلو أن يحتوي على المخابئ والحجيرات السرية.

- يا للعجب، توجد فعلاً حجيرة سرية، وهي تفتح من إحدى اللوحات في الصالة!

- قرب غرفة الاجتماعات؟

- خارج بابها تماماً.

- ذاك هو!

- ولكنّ أحداً لا يعرف بوجودها سواي وزوجتي.

- وتريدويل؟

- حسناً، ربما كان قد سمع بها.

- والآنسة كولينز؟

- أنا لم أذكرها لها أبداً.

فكر بوارو لحظة ثم قال: حسناً يا سيدي، الشيء التالي بالنسبة لي هو أن أذهب إلى عزبة ويفرلي. هل يناسبكم إن وصلت بعد ظهر اليوم؟

قالت السيدة ويفرلي: آه، بأسرع ما يمكن رجاءً يا سيد بوارو! اقرأ هذه مرة أخرى.

ووضعت بين يديه الرسالة الأخيرة التي تلقوها من الجاني في ذلك الصباح، والتي جعلت السيدة ويفرلي تطير بسرعة البرق إلى بوارو. كانت الرسالة تعطي تعليمات ذكية وبسيطة بخصوص دفع المال، واختتمت بتهديد بأن حياة الصبي ستكون ثمناً لأية خيانة. كان واضحاً أن حب المال يتصارع مع حب الأم المتأصل عند السيدة ويفرلي، وأن الأخير بدأ يتغلب أخيراً.

أوقف بوارو السيدة ويفرلي دقيقةً بعد خروج زوجها، وقال لها: سيدتي... أريد الحقيقة من فضلك. هل تشاركين زوجك ثقته في كبير الخدم، تريدويل؟

- ليس عندي شيء ضده يا سيد بوارو. لا أستطيع أن أرى كيف يمكن أن تكون له علاقة بهذا الأمر. ولكن، حسناً، إنني لم أحبه أبداً... أبداً!

- شيء آخر يا سيدتي، هل يمكنك إعطائي عنوان مربية الطفل؟

- إنه: ١٤٩ شارع نيثيرال، هامرسميث. ولكن، هل تتخيل..

- إنني لا أتخيل أبداً. فقط.. أستخدمُ الخلايا الرمادية الصغيرة للدماغ. وأحياناً، أحياناً فقط، أكوّن فكرة صغيرة.

عاد بوارو إليّ بعد أن أغلق الباب وقال: إذن فالسيدة لم تحب كبير الخدم أبداً، أمر مثير... أليس كذلك يا هيستنغز؟

رفضت أن يجرّني. لقد خدعني بوارو مراراً من قبل بحيث أصبحت أتعامل معه الآن بحذر، ففي مكانٍ ما من حديثه تقبع دوماً خدعة ما.

يعد استكمال عملية تزيين دقيقة، انطلقنا إلى شارع نيفيرال، وكنا محظوظين؛ فقد وجدنا الآنسة جيسي ويذرز في البيت. كانت امرأة عذبة الملامح في الخامسة والثلاثين من عمرها، مقتدرة ومتفوقة. لم أستطع أن أصدق أنها يمكن أن تكون ذات علاقة بالقضية. كانت ساخطة بمرارة بسبب الطريقة التي طُردت بها،

ولكنها اعترفت أنها كانت مخطئة. كانت مخطوبة بقصد الزواج من رسام وفنان ديكور صادف أنه كان في الجوار فخرجت لمقابلته. بدا الأمر طبيعياً تماماً، ولم أستطع أن أفهم بوارو كل الفهم؛ فقد بدت لي أسئلته كلها غير ذات صلة بالموضوع حيث انصبت بشكل رئيسي على الروتين اليومي لحياتها في عزبة ويفرلي. ولقد ضجرتُ، بصراحة، وفرحتُ عندما استأذن بوارو بالانصراف.

قال بوارو وهو يلوح لسيارة أجرة: إن الخطف عملية سهلة يا صديقي!

وبعد أن أمر السائق بالتوجه إلى ووترلو حيث عزبة ويفرلي أضاف قائلاً: كان بالإمكان اختطاف ذلك الطفل بكل سهولة وفي أي يوم خلال السنوات الثلاث الماضية.

قلت ببرود: لا أرى أن ذلك يشكل تقدماً كبيراً لنا.

- على العكس، إنه يشكل تقدماً هائلاً، هائلاً! إن كان لا بد من وضع دبوس ربطةٍ يا هيستنغز، فلا أقل من أن تضعه في مركز ربطتك بالضبط. إن دبوسك الآن يميل كثيراً إلى اليسار بواقع واحدٍ على ستة عشر من البوصة على الأقل!

- كانت عزبة ويفرلي مكاناً قديماً رائعاً، وقد تم مؤخراً ترميمها بذوق وعناية.

أطلعنا السيد ويفرلي على غرفة الاجتماعات، والمصطبة، وكل النقاط الأخرى المرتبطة بالقضية. وأخيراً، وبطلب من بوارو، قام بالضغط على نابضٍ في الجدار فانزلق لوحٌ جانباً، وقادنا ممر

قصير إلى حجيرة سرية صغيرة.

قال السيد ويفرلي: هل ترى؟ لا يوجد شيء هنا.

كانت الغرفة الصغيرة جداً جرداء تماماً، ولم تكن على الأرض حتى آثار أقدام. انضممتُ إلى بوارو حيث كان منحنياً بكل اهتمام فوق علامة في الزاوية، وقلت: ما الذي تراه في هذا يا صديقي؟

- كان في الزاوية آثار أربعة قوائم متقاربة.

صرخت: كلب؟

- كلب صغير جداً يا هيستنغز.

- كلب من نوع بوم؟

- أصغر من بوم.

قلتُ له: من نوع غريفون؟

- أصغر حتى من الغريفون. من نوعٍ غير معروف لنادي رعاية الكلاب.

نظرت إليه. كان وجهه متهللاً بالمتعة والرضا، وقال متمتماً: لقد كنتُ على حق... عرفت أنني على حق. تعال يا هيستنغز.

وعندما خرجنا إلى الصالة وأُغلق اللوح خلفنا خرجتْ من أحد الأبواب في نهاية الممر امرأة شابة.

قدمها لنا السيد ويفرلي: الآنسة كولينز.

كانت الآنسة كولينز في نحو الثلاثين من عمرها، تبدو عليها الرشاقة واليقظة. كانت ذات شعر أشقر باهت بعض الشيء، وكانت تضع نظارة. وبناء على طلب بوارو انتقلنا إلى غرفة جلوس صغيرة، وقام بوارو باستجوابها بدقة فيما يخص الخدم، ولا سيما فيما يخص تريدويل. وقد اعترفت بأنها لا تحب كبير الخدم، شارحةً ذلك بقولها: "إنه يضفي على نفسه أهمية كاذبة". ثم انتقلا بعد ذلك إلى قضية الطعام الذي أكلته السيدة ويفرلي مساء يوم الثامن والعشرين، وقد أعلنت كولينز أنها اشتركت في تناول نفس الطعام في غرفتها في الطابق العلوي ولم تشعر بأية آثار سيئة.

وفيما كانت تهم بالمغادرة وكزتُ بوارو وهمست له: «الكلب».
ابتسم بوارو وقال: أه، نعم، الكلب! هل عندكم كلب تحتفظون به هنا يا آنسة؟

- عندنا كلبان للصيد في المأوى خارج البيت.

- كلا، أعني كلباً صغيراً، دمية كلب.

- لا، لا شيء من هذا القبيل.

سمح لها بوارو بالمغادرة، ثم قال لي وهو يضغط على الجرس: لقد كذبتْ تلك الآنسة كولينز، وربما كنت أنا أيضاً سأكذب لو كنت مكانها. والآن جاء دور كبير الخدم.

كان تريدويل شخصاً أنوفاً، وقد أدلى بشهادته بثقة تامة، وكانت -في جوهرها- نفس شهادة السيد ويفرلي. وقد اعترف بأنه يعرف سر الحجرة السرية. وعندما انسحب أخيراً، محتفظاً بجلال

قدره حتى النهاية، واجهتني عينا بوارو المشاكستان وقال: بماذا خرجتَ من كل هذا يا هيستنغز؟

تفاديت سؤاله بسؤال: بماذا خرجت أنت؟

- لَكَمْ تغدو حذراً يا هيستنغز. إن خلايا الدماغ الرمادية لن تعمل أبداً أبداً ما لم تحفزها. آه، ولكنني لن أشاكسك! دعنا ندرس استنتاجاتنا معاً، ما هي النقاط التي استرعت انتباهنا بشكل خاص كنقاط صعبة؟

- أمر واحد استوقفني: لماذا خرج الرجل الذي خطف الطفل من البوابة الجنوبية بدل البوابة الشرقية حيث لا يمكن لأحد أن يراه؟

- هذه نقطة مهمة جداً يا هيستنغز، نقطة ممتازة. وسأجاريها بنقطة مثيلة أخرى: لماذا تحذير عائلة ويفرلي مسبقاً؟ لماذا لم يُخطف الطفل ببساطة ويُحتفظ به طلباً للفدية؟

- لأنهم كانوا يأملون الحصول على النقود دون أن يضطروا للقيام بأي عمل.

= ولكن من المؤكد أن يُستبعد دفع النقود لمجرد التهديد.

- كما أنهم أرادوا تركيز الانتباه على الساعة الثانية عشرة، بحيث يمكن عند إلقاء القبض على ذلك المشرد أن يخرج الآخر من مخبئه ويهرب بالطفل دون أن ينتبه له أحد!

- ذلك لا يغير من حقيقة أنهم كانوا يصعّبون أمراً كان في منتهى السهولة. فلو لم يحددوا وقتاً وتاريخاً، لما كان أسهل من أن

ينتظروا فرصتهم، وينتزعوا الطفل إلى سيارة في يومٍ ما، عندما يكون في الخارج مع مربيته.

اعترفتُ بارتياب قائلاً: نعم.

- الحقيقة هي أن تمثيلاً متعمداً قد تم لهذا العرض التهريجي! والآن دعنا نأتي المسألة من جانب آخر: كل شيء يدل على أنه كان داخل البيت شريك. النقطة الأولى: التسميم الغامض للسيدة ويفرلي. النقطة الثانية: الرسالة المثبتة على الوسادة. النقطة الثالثة: تقديم الساعة عشر دقائق... كلها أعمال من الداخل. وربما لم تنتبه لحقيقة إضافية: لم يكن يوجد على أرضية الحجرة السرية أي غبار... لقد كُنِست بمكنسة! إذن فإن لدينا الآن أربعة أشخاص في المنزل. بوسعنا أن نستثني المربية، فلا يمكن أن تكون قد كنست الحجرة، رغم أنها كانت تستطيع أن تعتني بالنقاط الثلاث الأخرى. أربعة أشخاص: السيد والسيدة ويفرلي، وتريدويل كبير الخدم، والآنسة كولينز. سوف نتناول الآنسة كولينز أولاً. ليس لدينا الكثير ضدها إلاّ أننا نعرف القليل جداً عنها، ونعرف أنها شابة ذكية كما هو واضح، وأنها لم تأت إلى هذا المكان إلاّ منذ عام واحد.

ذكّرته قائلاً: لقد قلتَ إنها كذبت بشأن الكلب.

- آه، نعم... الكلب.

وافترّ ثغر بوارو عن ابتسامة غريبة ثم مضى قائلاً: دعنا ننتقل الآن إلى تريدويل. لدينا عدة حقائق مريبة ضدّه، إحداها أن المشرد صرح بأن تريدويل هو الذي أعطاه اللفافة في القرية.

- ولكن تريدويل يستطيع إثبات غيابه عن ذلك المكان في تلك الساعة

- ومع ذلك، كان بوسعه أن يَسُمّ السيدة ويفرلي، وأن يشبك الملاحظة بالوسادة، وأن يقدم الساعة، وأن يكنس الحجرة. ومن الجهة الأخرى فإنه ولد وتربى في خدمة عائلة ويفرلي، ويبدو من غير المحتمل في النهاية أن يتواطأ في خطف طفل المنزل. إنه أمر لا ينسجم مع الصورة العامة!

- حسناً، ماذا إذن؟

- ينبغي أن نتقدم بشكل منطقي، مهما بدا ذلك سخيفاً! سنفكر باختصار في السيدة ويفرلي. إنها امرأة غنية، والمال مالها. وكانت أموالها هي التي جددت هذه العزبة التي كانت قد افتقرت، لن يكون من سبب يدفعها لخطف طفلها ودفع أموالها لنفسها. أما الزوج... لا، فهو في وضع مختلف. إن لديه زوجة ثرية، وذلك لا يشبه أن يكون هو غنياً بنفسه... والحقيقة أن لديّ فكرةً صغيرة بأن السيدة ليست مغرمة كثيراً بالاستغناء عن مالها إلاّ بمبررات وجيهة جداً. أما السيد ويفرلي فبوسعك أن ترى فوراً أنه مستمتع جيد.

دمدمتُ بسرعة قائلاً: مستحيل!

- أبداً. من الذي أبعد الخدم؟ السيد ويفرلي. وهو كان بوسعه أن يكتب الرسائل، ويخدر زوجته، ويقدم عقارب الساعة، ويبتكر دليلَ غيابٍ رائعاً لخادمه المخلص تريدويل. إن تريدويل لم يحبّ أبداً السيدة ويفرلي، وهو مخلص لسيده ومستعد لطاعة أوامره طاعة عمياء. ثلاثة اشتركوا في الأمر: السيد ويفرلي وتريدويل وصديقٌ من

الأصدقاء. ذلك هو الخطأ الذي ارتكبه الشرطة، إذ لم يُجروا المزيد من الاستقصاء عن الرجل الذي كان يقود السيارة الرمادية وفيها الطفل الخطأ... كان ذلك هو الرجل الثالث! لقد التقط طفلاً من قرية قريبة، صبياً ذا خصلات شعر شقراء. قاد سيارته داخلاً العزبة من البوابة الشرقية، ومر خارجاً من البوابة الجنوبية في اللحظة المناسبة تماماً، وهو يلوح بيده ويصيح. لم يستطيعوا رؤية وجهه أو رقم السيارة، ولذلك فمن الواضح أنهم لم يستطيعوا رؤية وجه الطفل أيضاً. بعدها قام بترك آثار كاذبة تفيد أنه متوجه إلى لندن. في هذه الأثناء كان تريدويل قد أدى دوره في ترتيب اللفافة والملاحظة بحيث يتم تسليمها بواسطة الرجل رث الهيئة. إن بوسع سيده أن يقدم له دليل غياب إذا ما حصل الاحتمال المستبعد وميّزه الرجل، بالرغم من الشاربين المستعارين اللذين وضعهما. أما بالنسبة للسيد ويفرلي فبمجرد أن حدثت الضوضاء في الخارج واندفع المفتش خارجاً، أسرع بإخفاء الطفل في الحجرة السرية، وتبع المفتش للخارج. وفي وقت لاحق، عندما غادر المفتش وغابت الآنسة كولينز لأمر أو لآخر عن الطريق، أصبح من السهل عليه تماماً أن يأخذ الطفل بسيارته الخاصة إلى مكانٍ آمنٍ.

- ولكن ماذا عن الكلب، وكذب الآنسة كولينز بشأنه؟

- كانت تلك نكتتي الصغيرة. لقد سألتها إن كان في المنزل أي دمىً لكلاب، وأجابت بالنفي، ولكن ما من شك بوجود بعضٍ منها... في غرفة الطفل، هل فهمت؟ لقد وضع السيد ويفرلي بعض الدمى في الحجرة الصغيرة لكي يبقى جوني هادئاً.

دخل السيد ويفرلي الغرفة، وقال: سيد بوارو، هل كشفت

شيئاً؟ هل لديك طرف خيط، أي طرف يدلنا على المكان الذي أُخذ الصبي إليه؟

سلمه بوارو ورقة وقال: ها هو العنوان.

- ولكن هذه ورقة بيضاء.

- لأنني أنتظر منك أن تكتب العنوان لي.

- ماذا...؟

انقلب وجهه أرجوانياً، فيما قال بوارو: إنني أعرف كل شيء يا سيدي. أعطيك أربعاً وعشرين ساعة لتعيد الصبي، وسوف تتجلّى عبقريتك في قدرتك على تبرير عودته، وإلاّ فسيتم إبلاغ السيدة ويفرلي بالتسلسل الدقيق للأحداث.

غرق السيد ويفرلي في كرسيٍّ ودفن وجهه بين يديه قائلاً: إنه مع مربيتي العجوز على بعد عشرة أميال. وهو سعيد، وموضع عناية جيدة.

- لا شك لديّ في ذلك. ولو لم أكن على يقين من أنك أبٌ جيد في دخيلة نفسك لما كنتُ مستعداً لإعطائك فرصة أخرى.

تمتم السيد ويفرلي: الفضيحة...

- بالضبط. إن اسمك اسم قديم ومحترم، فلا تعرضه للمخاطر مرة أخرى. طاب مساؤك يا سيد ويفرلي. آه، بالمناسبة، كلمةُ نصيحةٍ واحدة: اكنس الزوايا دائماً!

* * *

الدليل المزدوج

قال السيد ماركوس هاردمان ربما للمرة الرابعة عشرة: ولكن يبقى أهم شيء أن لا ينتشر الأمر.

وردت عبارة «عدم الانتشار» خلال حديثه بشكل منتظم كفكرة مهيمنة على عقله. كان السيد هاردمان رجلاً ضئيل الجسم، ذا يدين قلمت أظافرهما بذوق وإتقان، وصوت كئيب عالي النبرة. كانت للرجل بعض الشهرة في مجال عمله الذي كان يتعلّق بالحياة الراقية، وكان غنياً، ولكنه لم يكن بالغ الثراء، وقد صرف أمواله بهَوَسٍ في السعي خلف المتع الاجتماعية. كانت هوايته جمع الحلي القديمة والأشياء الأثرية، وكانت لديه روح منْ يحملون هذه الهواية. وكنت تجد لديه قطعة نسيج مخرَّمة، أو مروحة يد قديمة، أو حلي أثرية، ولكنك لن تجد لدى ماركوس هاردمان شيئاً حديثاً أو خالياً من البراعة والصنعة.

وصلنا أنا وبوارو استجابةً لنداءات عاجلة لنجد الرجل الضئيل يتلوى من ألم الحيرة وعدم القدرة على اتخاذ قرار، فقد كان استدعاء الشرطة أمراً بغيضاً بالنسبة له في مثل هذا الظرف. ولكنْ بالمقابل،

فإن عدم القيام بذلك كان يعني الإذعان لخسارته بعضَ نفائس مجموعته. فخطر له الاستعانة ببوارو كحلٍ وسط.

هتف هاردمان: ياقوتاتي يا سيد بوارو! والعقد الزمردي الذي يعتقد أنه يعود للأميرة كاثرين دي ميديتشي. آه، العقد الزمردي!

بوارو: قُصّ عليّ -إذا سمحت- ظروف اختفائها.

هاردمان: إنني أحاول ذلك. بعد ظهر أمس كانت لدي حفلة شاي صغيرة، جلسة غير رسمية تحوي نحو ستة أشخاص. لقد أقمت حفلة أو اثنتين من هذه الحفلات خلال هذا الموسم، وقد لا يكون عليّ أن أقول ذلك، إلاّ أن هذه الحفلات كانت ناجحة تماماً. حسناً، في وقت مبكر من عصر أمس كنت أُطلع ضيوفي على مجموعتي من جواهر العصور الوسطى. إنني أحتفظ بها في الخزانة الجدارية الصغيرة هناك، وهي مُرتَّبة كخزانة من الداخل ومبطنه بالمخمل الملون لأغراض عرض الأحجار الكريمة. ثم قمنا بعد ذلك بمعاينة المراوح في الخزانة الزجاجية عند الجدار، ومن ثم ذهبنا إلى القاعة لسماع الموسيقى. ولم أدرك =إلاّ بعد أن ذهب الجميع= بأن الخزنة قد نُهبت! لا بد أنني أخفقت في إغلاقها بشكل جيد، وقد استغل شخصٌ ما الفرصة لكي يجردها من محتوياتها. الياقوت يا سيد بوارو وعقد الزمرد... إنها مجموعة عمري! إنني مستعد للتضحية بأي شيء لاستعادتها، ولكن ينبغي أن لا ينتشر الخبر! إنك تفهم ذلك تماماً، أليس كذلك يا سيد بوارو؟ فأولئك هم ضيوفي وأصدقائي الشخصيون.. ويمكن لأمر كهذا أن يشكل فضيحة مروِّعة!

سأل بوارو: من كان آخر الأشخاص مغادرةً للغرفة عندما ذهبتم

إلى قاعة الموسيقى؟

- السيد جونستن. ربما كنت تعرفه؟ المليونير القادم من جنوب أفريقيا. لقد استأجر لتوّه منزل أبون بيري في منطقة بارك لين. تخلّف بعدنا بضع لحظات كما أذكر. ولكن من المؤكد، آه... لا يمكن أن يكون هو!

- هل عاد أيٌّ من ضيوفك إلى هذه الغرفة خلال فترة العصر لأي مبررٍ كان؟

- كنت مستعداً لهذا السؤال يا سيد بوارو. لقد عاد ثلاثة منهم: الكونتيسة فيرا روساكوف، والسيد بيرنارد باركر، والليدي رنكورن.

- أسمعنا معلومات عنهم.

- الكونتيسة روساكوف سيدة روسية فاتنة جداً. إنها إحدى عناصر النظام القديم، وقد جاءت مؤخراً إلى هذا البلد. وكانت قد ودّعتني، ولذلك دهشت بعض الشيء إذ وجدتها في هذه الغرفة تحدق بنشوة ظاهرة إلى خزانة مراوحي. هل تدري يا سيد بوارو؟ كلما فكرت أكثر في هذا الأمر بدا لي مريباً. ألا توافقني؟

- مريب تماماً، ولكن دعنا نسمع عن الآخرين.

- حسناً... باركر جاء هنا -ببساطة- لمجرد جلب صندوق النماذج المصغرة الذي كنت حريصاً على عرضه على السيدة رنكورن.

- والليدي رنكورن نفسها؟

- كما تعلم فإن الليدي رنكورن سيدة في أواسط عمرها ذات

شخصية قوية جداً، تكرس معظم وقتها لأعمال اللجان، وقد عادت إلى الغرفة -ببساطة- لتجلب حقيبة يدٍ تركتها في مكان ما هنا.

- حسناً، لدينا -إذن- أربعة مشبوهين: الكونتيسة الروسية، وتلك السيدة العظيمة الإنكليزية، والمليونير الجنوب إفريقي، والسيد بيرنارد باركر. بالمناسبة، من هو السيد باركر هذا؟

بدا أن السؤال يحرج السيد هاردمان كثيراً. قال: إنه... إنه شاب. إنه في الواقع شابٌ أعرفه.

بوارو: لقد استنتجت سلفاً هذا القدر من المعرفة. ما الذي يفعله السيد باركر هذا؟

- إنه شابٌ سهراتٍ وحياة اجتماعية، ليس متورطاً تماماً في الأمر، إن كان لي أن أعبّر على هذا النحو.

- هل لي أن أسأل كيف أصبح صديقك؟

- حسناً، في... في مناسبة أو اثنتين أنجز بعض المهمات الصغيرة لي.

بوارو: أكمل يا سيدي.

نظر إليه هاردمان نظرة ازدراء. كان واضحاً أن الاستمرار في الحديث هو آخر ما يريد فعله، ولكن بما أن بوارو حافظ على صمت عنيد، فقد أذعن: أنت تعرف يا سيد بوارو... من المعروف أنني أهتم بالجواهر الأثرية. ويوجد أحياناً بعض المتاع الموروث لعائلة ما تريد التخلص منه، وهذا -بالمناسبة- لا يمكن أن يباع في

السوق العادية أو إلى تاجر مختص. ولكنْ عملية بيع خاصةً لي أنا تعتبر مسألة مختلفة تماماً. وباركر يرتّب تفصيلات عمليات كهذه، فهو على اتصال بالطرفين، وهكذا يتم تجنب أي إحراج بسيط. إنه ينبهني إلى أي شيء من هذا القبيل. فمثلاً، أحضرت الكونتيسة روساكوف بعض جواهر العائلة معها من روسيا، وهي حريصة على بيعها، ويُفترض أن يكون بيرنارد باركر قد رتّب الصفقة.

قال بوارو وهو يفكر: فهمت، وهل تثق به تماماً؟

- ليست لدي أسباب لعدم الثقة به.

- سيد هاردمان، في أيٍّ من أولئك الأشخاص الأربعة تشكّ أنت شخصياً؟

- آه يا سيد بوارو، يا لهذا السؤال! إنهم أصدقائي كما قلت لك. لا أشك في أحدٍ منهم، أو لا أشك فيهم جميعاً، كائناً ما كان التعبير الذي تفضله من هذين التعبيرين.

- إنني لا أقبل ذلك. أنت تشك في واحدٍ من أولئك الأربعة، وهو ليس الكونتيسة روساكوف، وليس السيد باركر. فهل تشك في الليدي رنكورن أم بالسيد جونستن؟

- لقد حشرتني في زاوية يا سيد بوارو، حشرتني بالفعل. إنني حريص أكثر من أي شيء آخر على أن لا تقع فضيحة. إن الليدي رنكورن تنتمي إلى واحدة من أعرق عائلات إنكلترا، ولكنْ الصحيح، والصحيح مع شديد الأسف، أن خالتها، الليدي كارولين، عانت من بلوى محزنة جداً. وكان أصدقاؤها يفهمون طبعاً هذه البلوى، وكانت

خادمتها تعيد ملاعق الشاي، أو كائناً ما كانت الأغراض الأخرى، بأسرع ما يمكن إلى أصحابها. هل عرفت ورطتي!

- إذن فإن لليدي رنكورن خالة كانت مصابة بمرض السرقة؟ هذا مثير تماماً. هل تسمح لي أن أتفحص الخزنة؟

وافق هاردمان، فقام بوارو بفتح باب الخزنة وتفحص داخلها. كانت الرفوف الفارغة المبطنة بالمخمل فاغرة فاها أمامنا.

تمتم بوارو وهو يفتح باب الخزنة ويغلقه: الآن أيضاً لا يغلق هذا الباب بشكل جيد. عجباً! لماذا؟ آه، ماذا لدينا هنا؟ قفاز، عالق في مفصل الباب... قفاز رجل.

ورفعه أمام السيد هاردمان، الذي قال: هذا ليس من قفازاتي.

بوارو: آها! يوجد شيء آخر!

انحنى بوارو برشاقة والتقط شيئاً صغيراً عن أرضية الخزنة. كانت حافظة مسطحة مصنوعة من نسيج الموهير تحتوي على لفائف التبغ.

صاح هاردمان: حافظتي!

بوارو: حافظتك؟ إنها ليست حافظتك بالتأكيد يا سيدي. فهذه الأحرف الأولى عليها ليست أحرف اسمك.

وأشار إلى علامة مجدولة من حرفين كتبا بالبلاتين، فقال هاردمان: أنت على حق، إنها تشبه حافظتي كثيراً، ولكن الأحرف تختلف. حرفا «B.P.»... يا إلهي، بيرنارد باركر!

بوارو: يبدو الأمر كذلك، شابٌ مهملٌ بعض الشيء، وخاصة إن كان القفاز له أيضاً؛ لأن ذلك سيكون دليلاً مزدوجاً، أليس كذلك؟

تمتم هاردمان: برنارد باركر! يا لارتياحي! حسناً يا سيد بوارو، سأترك لك مهمة استعادة الجواهر. ضع القضية في أيدي الشرطة إن كنت ترى ذلك مناسباً، أي إن كنت واثقاً تماماً بأنه هو المذنب.

* * *

قال بوارو فيما كنا نغادر المنزل: هل رأيت يا صديقي؟ إن للسيد هاردمان هذا قانوناً خاصاً لذوي الألقاب، وقانوناً آخر للبسطاء. وبما أنني لم أتشرف بنيل لقبٍ بعد، فأنا في جانب البسطاء. إنني أتعاطف مع هذا الشاب. لقد كان الأمر كله غريباً بعض الشيء، أليس كذلك؟ كان هاردمان يشك بالليدي رنكورن، وكنت أنا أشك بالكونتيسة وجونستن، وكان رجُلَنا طوال الوقت هو السيد باركر.

قلت: لماذا شككت بالاثنين الآخرين؟

بوارو: طبعاً! إن لمن أسهل الأمور أن تكون المرأة لاجئة روسية أو يكون الرجل مليونيراً جنوب أفريقي. بوسع أية امرأة أن تسمي نفسها كونتيسة روسية، وبوسع أيٍ كان أن يشتري منزلاً في منطقة بارك لين ويسمي نفسه مليونيراً من جنوب أفريقيا. من الذي يدحض أقوالهما؟ ولكنني ألاحظ أننا نمر الآن في شارع بيري. إن صديقنا الشاب المهمل يسكن هنا... دعنا ندق الحديد وهو حامٍ كما يقال.

كان السيد بيرنارد باركر في بيته. وجدناه متمدداً على بعض

الوسائد، مرتدياً روباً منزلياً مدهشاً يتداخل فيه اللونان الأرجواني والبرتقالي. نادراً ما شعرت تجاه أي إنسان بذلك القدر من الكراهية الذي شعرته تجاه هذا الشاب تحديداً، بوجهه الأبيض المتخنث وكلامه الألثغ المتكلف.

قال بوارو بسرعة: صباح الخير يا سيدي. لقد جئت من عند السيد هاردمان. أمس، أثناء الحفلة، سرق شخصٌ ما كل جواهره. اسمح لي أن أسألك يا سيدي: هل هذا قفازك؟

يبدو أن الوظائف العقلية لدى السيد باركر لم تكن تعمل بسرعة كبيرة، فقد حدّق إلى القفاز كما لو كان يجمع شتات تفكيره، ثم سأل أخيراً: أين وجدته؟

بوارو: هل هو قفازك يا سيد؟

بدا أن السيد باركر اتخذ قراره، فقد قال: لا، إنه ليس قفازي.

بوارو: وحافظة لفائف التبغ هذه، أهي لك؟

- كلا بالتأكيد. إنني أحمل دوماً حافظة فضية.

= حسن جداً. إنني ذاهب لأضع القضية في أيدي الشرطة.

صاح باركر بشيء من القلق: آه، ما كنتُ أنا لأفعل ذلك لو كنت مكانك؛ فرجال الشرطة وحوش لا عاطفة لديهم. انتظر لحظة... سأذهب وأرى هاردمان العجوز. اسمع هنا... آه، انتظر لحظة.

ولكن بوارو خرج بكل تصميم، وفي الخارج ضحك وقال: لقد أعطيناه شيئاً يفكر فيه، أليس كذلك؟ وسنراقب ما يحدث غداً.

ولكن قُدِّر لنا أن يأتينا ما يذكرنا بقضية هاردمان بعد ظهر اليوم نفسه. فبلا أي سابق إنذار، صُفِق الباب مفتوحاً، وغَزَتْ خلوتنا زوبعة على شكل إنسان تحمل معها دواماتٍ من فرو السَّمّور (وكان الجو على قدر من البرد لا تجده إلاّ في يوم حزيراني إنكليزي) وقبعة مائلة مزينة بريش العقبان القتيلة.

كانت الكونتيسة فيرا روساكوف شخصية مشاغبة بعض الشيء. قالت: أأنت السيد بوارو؟ ما هذا الذي فعلته؟ اتهمت ذلك الفتى المسكين! إنه لأمر مشين، بل هو فضيحة. إنني أعرفه جيداً، فهو مجرد فرخ... أو حَمَلٍ... وما كان ليسرق أبداً! لقد فعل كل شيء من أجلي، فهل أقف مكتوفة اليدين وأراه يُشَرّح ويُضحّى به؟

أخرج بوارو حافظة لفائف التبغ وقال: أخبريني يا سيدتي، هل هذه حافظة دخانه؟

صمتت الكونتيسة لحظة وهي تتفحص الحافظة ثم قالت: نعم، هي حافظته.. أعرفها جيداً. ماذا عنها؟ هل وجدتها في الغرفة؟ كنا جميعاً هناك. لقد وقعت منه إذن كما أظن. آه، أنتم رجال الشرطة... إنكم أسوأ من «الحرس الأحمر»...

- وهل هذا قفازه؟

- كيف لي أن أعرف؟ القفازات يشبه بعضها بعضاً. لا تحاول مقاطعتي... ينبغي أن يُطلَق سراحه، وأن تُبرّأ ساحته، وستقوم أنت بذلك. سأبيع جواهري وأعطيك مالاً كثيراً.

- سيدتي...

- لقد اتفقنا إذن؟ كلا، كلا، لا تناقشني. ذلك الفتى المسكين! لقد أتى إليّ والدموع في عينيه، فقلت له: "سأنقذك، سأذهب إلى ذلك الرجل... إلى ذلك الغول، إلى ذلك الوحش! اترك الأمر لفيرا". والآن انتهى الأمر، سأذهب.

وبنفس القدر من الاحتفاء القليل الذي جاءت به، خرجت مسرعة من الغرفة، تاركةً خلفها رائحة أخّاذة غريبة.

قلت متعجباً: يا لهذه المرأة! ويا لهذا الفرو!

بوارو: نعم، لقد كان الفرو حقيقياً أصيلاً. أيمكن لكونتيسة زائفة أن تمتلك فرواً حقيقياً؟ إن نكتتي الصغيرة يا هيستنغز... ولكن كلا، إنها روسية حقاً، كما يخيل إليّ. حسناً إذن، فقد ذهب السيد بيرنارد يشكو لها.

- إن حافظة لفائف التبغ له، وأتساءل إن كان القفاز له أيضاً..

سحب بوارو من جيبه -وهو يبتسم- قفازاً ثانياً ووضعه قرب الأول، ولم يكن من شك في أنّ الاثنين يشكلان زوجاً.

قلت مستغرباً: من أين حصلت على القفاز الثاني يا بوارو؟

- كان مرمياً مع عصى على الطاولة في صالة بيت باركر في شارع بيري. إنه شاب مهمل جداً بالفعل. حسناً، حسناً يا صديقي، علينا أن نكون مجتهدين. ومن أجل شكليات الموضوع فقط سأقوم بزيارةٍ قصيرة لمنطقة بارك لين.

ومن نافلة القول أنني رافقت صديقي. لم يكن جونستن في

البيت، ولكننا قابلنا سكرتيرته الخاصة، وقد استنتجنا من المقابلة أن جونستن لم يأتِ من جنوب أفريقيا إلى إنكلترا إلاّ مؤخراً، وأنه لم يسبق له أن زار إنكلترا من قبل.

جازف بوارو وسأل: إنه مهتم بالأحجار الكريمة، أليس كذلك؟

ضحكت السكرتيرة وقالت: إن التنقيب عن الذهب أقرب ما يكون من هذا الموضوع.

خرج بوارو من هذه المقابلة مطرقاً يفكر. وفي وقت متأخر من مساء ذلك اليوم كان من دواعي دهشتي التامة أن أجده منكباً بجدٍ يدرس في كتاب قواعد النحو الروسي. صرخت: ما هذا يا بوارو بالله عليك! هل تتعلم الروسية حتى تحادث الكونتيسة بلغتها؟

- إنها بالتأكيد لن تصغي لإنكليزيتي يا صديقي.

- ولكن الأكيد يا بوارو أن الروس المنحدرين من أسر عريقة يتكلمون الفرنسية جميعاً.

- أنت منجم معلومات يا هيستنغز! سأتوقف عن حيرتي هذه أمام تعقيدات الأحرف الروسية.

ثم رمى الكتاب بعيداً بإشارة مسرحية. لم أكن مقتنعاً تماماً، فقد كان في عينيه بارقة أعرفها منذ القدم. كانت علامة أكيدة على أن هيركيول بوارو مسرور بنفسه.

قلت جاداً: لعلك تشك في كونها روسية حقاً، وتريد اختبارها؟

- آه، كلا، كلا... إنها روسية حقاً.

- حسناً، فما الأمر إذن؟

- إن أردت حقاً أن تميز نفسك في هذه القضية يا هيستنغز، فإنني أنصحك بهذا الكتاب، «الخطوات الأولى في اللغة الروسية»، مساعداً لا غنى عنه.

ثم ضحك ولم يُدلِ بالمزيد. أخذت الكتاب واستغرقت فيه بفضول، ولكني لم أفهم من ملاحظات بوارو أيّ شيء!

لم يحمل لنا صباح اليوم التالي أي نبأ من أي نوع، ولكن لم يبدُ أن ذلك يقلق صديقي الضئيل. وقد أعلن على مائدة الإفطار عن نيته في زيارة السيد هاردمان في وقت مبكر من ذلك اليوم.

بدا هاردمان أهدأ قليلاً مما كان في اليوم السابق، وسأل بلهفة: حسناً يا سيد بوارو، هل لديك أية أخبار؟

سلمه بوارو ورقة صغيرة وقال: هذا هو الشخص الذي أخذ الجواهر يا سيدي. فهل أضع القضية بين أيدي الشرطة، أم تفضل أن أعيد لك الجواهر دون إدخال الشرطة في الموضوع؟

كان السيد هاردمان يحدق إلى الورقة، حتى وجد صوته أخيراً: مدهش جداً. أفضّلُ -بالتأكيد- عدم إثارة فضيحة في هذه القضية. إنني أمنحك تخويلاً يا سيد بوارو، وأنا واثق بأنك ستكون كتوماً.

كان إجراؤنا التالي التلويح لسيارة أجرة أمر بوارو سائقها بالتوجه إلى فندق كارلتون، وهناك سأل عن الكونتيسة روساكوف.

خلال بضع لحظات قادنا مرشد إلى جناح السيدة في الطابق العلوي. جاءت لمقابلتنا بيدين ممدودتين وهي تصرخ: سيد بوارو! هل نجحت؟ هل برّأت ساحة ذلك الطفل المسكين؟

- يا سيدتي الكونتيسة، إن صديقك السيد باركر آمن تماماً من أن يُعتقَل.

= آه، ولكنك أنت الرجل الضئيل! رائع! وبهذه السرعة أيضاً!

- ومن جانب آخر، فقد وعدت السيد هاردمان بأن تعود إليه الجواهر اليوم.

- إذن؟

- ولذلك يا سيدتي فإنني سأكون في غاية الامتنان لو وضعتِ الجواهر في يدي دون تأخير. إنني آسف على استعجالي لك، ولكنني تركت سيارة أجرة بانتظاري... في حال اضطراري للذهاب إلى سكوتلانديارد، ونحن -معشر البلجيكيين- نمارس الاقتصاد.

أشعلت الكونتيسة لفافة، وبقيت هادئة ساكنة بضع ثوانٍ تطلق حلقات الدخان وتتفرس بثباتٍ في بوارو، ثم انفجرت ضاحكة ونهضت. مشت عبر الغرفة إلى طاولة المكتب وفتحت دُرجاً وأخرجت كيساً حريرياً أسود. دسته بخفة في يد بوارو، وحين تكلمت كانت نبرتها بهيجة غير متأثرة على الإطلاق: نحن الروس -بالمقابل- نمارس الإسراف، وحتى يقوم المرء بذلك فإنه بحاجة إلى المال مع الأسف. لستَ بحاجة للنظر داخل الكيس؛ فالجواهر كلها موجودة فيه.

نهض بوارو قائلاً: إنني أهنئك يا سيدتي على ذكائك السريع وحزمك وسرعة تصرفك.

الكونتيسة: آه! وماذا عساني أفعل غير ذلك وقد أبقيتَ سيارة الأجرة تنتظر؟

- أنت لطيفة جداً يا سيدتي. هل ستطول إقامتك في لندن؟

- أخشى أن لا تطول... بسببك.

- أرجو أن تقبلي اعتذاري.

- ربما التقينا ثانية في مكان آخر.

- أتمنى ذلك.

- وأنا... لا أتمناه.

ضحكتْ ثم أضافت: إن في ذلك إطراءً كبيراً مني لك، فقليلون جداً هم الرجال الذين أخافهم في هذا العالم. وداعاً يا سيد بوارو.

- وداعاً يا سيدتي الكونتيسة. آه، اعذريني، لقد نسيت! اسمحي لي أن أعيد لك حافظة لفائفك.

وبانحناءة منه سلمها الحافظة السوداء الصغيرة التي وجدناها في الخزنة. وقد قبلتها منه دون أي تغيير في تعابير وجهها، بل اكتفت بأن رفعت أحد حاجبيها وتمتمت: آه، نعم!

* * *

صاح بوارو ونحن ننزل الدرج: يا لهذه المرأة! يا إلهي...

ما هذه المرأة؟ دون أي كلمة جدال، أو احتجاج، أو مخادعة! نظرة سريعة واحدة كانت كافية لها لتقيس أبعاد الموقف بشكل صحيح. إنني أقول لك يا هيستنغز: إن امرأة تستطيع تقبّل الهزيمة على هذا النحو، بابتسامة لامبالية، ستكون ناجحة جداً! إنها خطيرة، إن لها أعصاباً من الفولاذ، إنها...

وعثر عثرة خطيرة.

قلت: إن استطعت أن تتدبر أمر التخفيف من نشوتك وطربك، وأن تنظر أمامك وأنت تمشي، فإن أعصابك لن تقل عن أعصابها قوة... متى شككت فيها لأول مرة؟

- يا صديقي... لقد كان القفاز، ومعه حافظة اللفائف... أو لنقل: الدليل المزدوج... هو ما أثار قلقي. كان يمكن -بسهولة- أن يسقط بيرنارد باركر أحد الاثنين، ولكن يصعب إسقاط الاثنين معاً. كلا، كان من شأن ذلك أن يكون إهمالاً زائداً عن الحد! وبنفس الاعتبارات، فإن كان شخص آخر قد وضعهما لكي يُجرّم باركر فإن واحداً منهما كان كافياً: إما الحافظة أو القفاز، وليس كليهما معاً. ولذلك فقد وصلت إلى نتيجة مفادها بأن واحداً من هذين الشيئين لم يكن لباركر. تخيلت في البداية أن حافظة اللفائف كانت له، وأن القفاز كان لغيره، ولكن عندما اكتشفت فردة القفاز الأخرى علمت أن الأمر عكس ما تخيلت. لمن كانت إذن الحافظة؟ من الواضح أنها لم تكن للسيدة رنكورن فلم تكن الأحرف الأولى المطبوعة عليها تنطبق على اسمها. هل كانت للسيد جونستن؟ كان ذلك ممكناً في حالة واحدة فقط، إن كان قد جاء إلى هنا باسم مستعار. قابلت

سكرتيرته وتحدثت معها، وبدا واضحاً على الفور بأن كل شيء كان واضحاً وشرعياً غير مستور. لم يكن أي تكتم بخصوص ماضي السيد جونستن. فهل هي للكونتيسة إذن؟ كان المفترض أنها أحضرت معها جواهر من روسيا، وما كان عليها سوى أن تنتزع الأحجار والفصوص عن القوالب التي ثبتت عليها ليصبح من الصعب تماماً تمييز تلك الجواهر. وأي شيء أسهل من أخذ أحد قفازات باركر من الصالة في ذلك اليوم ورميه في الخزانة؟ ولكن من المؤكد تماماً أنها لم تقصد إسقاط حافظتها الخاصة.

اعترضت قائلاً: ولكن إن كانت الحافظة لها فلماذا كتب عليها «.B.P»؟ إن الأحرف الأولى من اسم الكونتيسة هي «.V.R».

ابتسم بوارو بلطف وقال: بالضبط يا صديقي، ولكن، في الأحرف الروسية، الحرف «B» يُكتب «V» والحرف «P» يُكتب «R»!

= حسناً، لا يمكن أن تتوقع مني أن أخمّن ذلك؛ فأنا لا أعرف اللغة الروسية.

– ولا أنا أعرفها كذلك يا هيستنغز. ولذلك اشتريت ذلك الكتاب الصغير، وصرفت انتباهك إليه.

ثم تنهد وقال: امرأة متفردة. إن لدي شعوراً يا صديقي، شعوراً ملحاً، بأنني سوف ألتقيها مرة أخرى. ولكن، عجباً... أين؟

* * *

لغز حادث الانتحار
في بلدة ماركت بيسنغ

قال المفتش جاب وهو يستنشق الهواء بعمقٍ ويزفره من فمه بكل ارتياح وتقدير: في النهاية، ما منْ شيء أجمل منْ الريف، أليس كذلك؟

أبدينا -أنا وبوارو- تأييدنا لعاطفته تلك بكل تشجيع. لقد كانت فكرة جاب، المفتش في سكوتلانديارد، أن نذهب لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في بلدة ماركت بيسنغ الريفية الصغيرة. كان جاب -خارج أوقات واجباته الرسمية- من المولعين بالنباتات، وكان متكلماً خبيراً بالزهور الصغيرة ذات الأسماء اللاتينية الطويلة جداً، والتي تلفظ بشكل غريب نوعاً ما، وله في كل ذلك حماسة تفوق تلك التي يبديها تجاه القضايا التي يتولاها في عمله.

شرح جاب سر ارتياحه: لا أحد يعرفنا، ولا نعرف أحداً... تلك هي الفكرة.

ولكن تلك الفرضية لم تكن صحيحة؛ فالشرطي المحلي في القرية كان قد جاء حديثاً من قرية أخرى تبعد خمسة عشر ميلاً،

وكانت قضية تسميم بالزرنيخ قد وقعت هناك واستدعت تدخل سكوتلانديارد، وهكذا فقد كان هذا الشرطي على معرفة مسبقة بجاب. على أن هذه المعرفة برجل سكوتلانديارد العظيم لم تؤدّ إلاّ إلى تعزيز إحساس جاب بدوره وأهميته.

جلسنا نتناول طعام الإفطار صباح يوم الأحد في ردهة الفندق الريفي والشمس مشرقة، والشجيرات المتسلقة تنشر أوراقها على النافذة. كنا جميعاً على أحسن حال، وكانت شرائح اللحم ممتازة مع البيض، ولم تكن القهوة بمثل تلك الجودة، ولكنها مقبولة، وحارّة جداً.

قال جاب: هذه هي الحياة الحقيقية. عندما أتقاعد، سأتخذ لنفسي بيتاً صغيراً في الريف بعيداً عن الجريمة، كهذا المكان!

علق بوارو قائلاً: الجريمة موجودة في كل مكان.

ثم تناول قطعة خبز مربعة وقطب جبينه وهو ينظر إلى عصفور دوريٍّ وازن نفسه بوقاحة على حافة النافذة. ترنمت أنا بمقطوعة شعرية غنائية:

ذلك الأرنب ذو وجه جميل،
غير أن العار يجلل حياته الخاصة.
ولن أكون قادراً حقاً على أن أخبر الأحباب،
بكل فعلٍ شائن تفعله الأرانب

قال جاب وهو يعود إلى الخلف بجسمه: يا إلهي! أعتقد أن بوسعي أن أجد مكاناً لبيضة أخرى، وربما لشريحة أو شريحتين من اللحم. ما رأيك يا كابتن هيستنغز؟

أجبته بانشراح: إنني معك. ماذا عنك يا بوارو؟

هزّ بوارو رأسه بالنفي وقال: ينبغي على المرء أن لا يملأ معدته إلى الحد الذي يقف الدماغ معه عن العمل.

ضحك جاب وقال: سأخاطر بملء معدتي بإضافة قليلة؛ فأنا من أصحاب المقاسات الكبرى فيما يخص المعدة. وبالمناسبة، فأنت نفسك أصبحت سميناً يا سيد بوارو. يا آنسة... هنا من فضلك، بيض وشرائح مرة أخرى.

ولكن في تلك اللحظة، سدّت مدخل الباب هيئة رجل مهيبة. كان ذلك هو الشرطي بولارد الذي تقدم قائلاً: آمل أن تعذروني في إزعاجي للمفتش أيها السادة، لكن يسعدني أن أطلب مشورته.

قال جاب بسرعة: أنا في إجازة، ولن أتورط في عمل. ما هي القضية؟

رجل في منزل لي هاوس أطلق النار على نفسه... في رأسه!

أجاب جاب بشكل روتيني مألوف: حسناً، إنهم يفعلون ذلك دوماً، وأحسبه الدَّين أو النساء. إنني آسف، لا أستطيع مساعدتك يا بولارد.

- المشكلة أن فرضية إطلاق النار على نفسه تبدو مستحيلة... لم يكن ذلك ممكناً، هذا ما يؤكده الطبيب غايلز على الأقل.

قال جاب: لم يكن ممكناً؟ ما الذي تعنيه؟

- هذا ما يقوله الدكتور غايلز. يقول إن ذلك مستحيل بكل

معنى الكلمة. إنه حائر جداً، باعتبار أن الباب كان مقفلاً من الداخل، والنوافذ مقفلة، ومع ذلك فإنه مصرٌّ على رأيه بأن الرجل لا يمكن أن يكون قد انتحر.

كان ذلك كافياً. أُلغيت طلبية البيض والشرائح الإضافية، وبعد عدة دقائق كنا جميعاً نمشي بأقصى سرعتنا باتجاه لي هاوس. وكان جاب يستفسر من الشرطي عن خلفيات الموضوع.

كان اسم الشخص المتوفى والتر بروثيرو، وكان رجلاً في أوسط عمره، ويميل إلى أن يكون معتزلاً. كان قد أتى إلى بلدة ماركت بيسنغ قبل ثماني سنوات، واستأجر المنزل المسمى لي هاوس، وهو منزل قديم غير منظم ومتداعٍ يسير بسرعة نحو الخراب. كان الرجل يعيش في إحدى زوايا المنزل، وكانت ترعى حاجاته مدبرة منزل كان قد أحضرها معه. كان اسمها الآنسة كليغ، وكانت امرأة متفوقة جداً، وتحظى بسمعة ممتازة في القرية. وقد استضاف السيد بروثيرو -مؤخراً فقط- زواراً أقاموا معه؛ زوجين يدعيان السيد والسيدة باركر من لندن. وفي هذا الصباح، وعندما لم تتلق الآنسة كليغ جواباً عندما ذهبت لتدعو سيدها، وعندما وجدت أن الباب مقفل، انتابها القلق واتصلت بالشرطة وبالطبيب. وقد وصل الشرطي بولارد والدكتور غايلز في نفس اللحظة إلى المنزل. وقد نجح جهدهما المشترك في كسر باب غرفة النوم المصنوع من خشب السنديان.

كان السيد بروثيرو متمدداً على الأرض، وقد اخترقت رصاصة رأسه، وكانت يده اليمنى تمسك بالمسدس. بدت قضية انتحار واضحة. ولكن، بعد فحص الجثة، أصبح الدكتور غايلز بادي الحيرة

والشك، وأخيراً انتحى مع الشرطي جانباً وشرح له حيرته وشكوكه، مما دعا بولارد إلى التفكير فوراً في المفتش جاب، ولذلك أسرع إلى الفندق تاركاً للطبيب البقاء قرب الجثة.

وما أن انتهى الشرطي من رواية قصته حتى وصلنا لي هاوس، فوجدناه بيتاً ضخماً مهجوراً محاطاً بحديقة مهملة تنتشر فيها الأعشاب الضارة. كان الباب الأمامي مفتوحاً، فعبرناه فوراً إلى الصالة، ومنها إلى غرفة صغيرة كان يُسمع منها صوت أشخاص. كان في الغرفة أربعة أشخاص: أولهم رجل يرتدي ثياباً مبهرجة بعض الشيء، ذو وجه كريه مخادع أحسست تجاهه بكراهية فورية، وامرأة تنتمي إلى نفس النوع في كثير من مظاهرها، رغم وسامتها التي يغلب عليها الأسلوب الفظ، ثم امرأة أخرى ترتدي ثياباً سوداء أنيقة وقفت متنحية عن البقية، وأغلب الظن عندي أنها مدبرة المنزل، وأخيراً رجل طويل يرتدي بدلة رياضية، ذو وجه ينم عن الذكاء والقدرة، ويبدو واضحاً أنه سيد الموقف.

قال الشرطي: دكتور غايلز... أعرّفك بالمفتش جاب من سكوتلانديارد، وصديقيه.

ـ رحب بنا الطبيب وقدّمنا إلى السيد والسيدة باركر. وبعدها رافقناهم إلى الطابق العلوي. أما بولارد فقد بقي في الأسفل تنفيذاً لإشارة من جاب، وذلك على سبيل مراقبة ساكني المنزل. قادنا الطبيب إلى الطابق العلوي، ثم مروراً بممر. وفي نهاية الممر كان يوجد باب مفتوح في حوافه شظايا خشب معلقة، وكان الباب نفسه قد سقط إلى الأرض داخل الغرفة.

دخلنا. كانت الجثة ما زالت ممددة على الأرض. كان السيد بروثيرو رجلاً في أواسط العمر، ملتحياً، وقد شاب شعر صدغيه. مضى جاب وجثا قرب الجثة، ثم دمدم قائلاً: لماذا لم تتركوها كما وجدتموها؟

رفع الطبيب كتفيه متعذّراً وقال: ظنناها حالة انتحار واضحة.

- هممم! دخلت الرصاصة الرأس من خلف الأذن اليسرى.

قال الطبيب: بالضبط. ومن الواضح أنه يستحيل عليه أن يطلق النار على نفسه، وإلاّ كان عليه أن يلف يده حول رأسه... يستحيل القيام بذلك.

سأله جاب: ومع ذلك وجدتم المسدس وقد أطبقت عليه يده؟ أين هو بالمناسبة.

أشار الطبيب إلى الطاولة، وقال: ولكنه لم يكن ممسكاً المسدس بيده، بل كان داخل راحته، ولم تكن الأصابع مطبقة عليه.

قال جاب وهو يتفحص المسدس: أي أنه وُضِع في يده لاحقاً... هذا واضح تماماً. خرطوشة واحدة أُطلقت. سنفحص المسدس بحثاً عن بصمات، ولكنني أشك في أننا سنجد شيئاً باستثناء بصماتك يا دكتور غايلز. متى توفي؟

- في وقتٍ ما ليلة أمس. لا أستطيع تحديد الوقت بالساعة كما يفعل الأطباء العباقرة في القصص البوليسية، ولكنه -بشكل عام- مات منذ ما يقرب من اثنتي عشرة ساعة.

حتى تلك اللحظة لم يكن بوارو قد أتى بأية حركة من أي نوع. كان قد بقي إلى جانبي، مراقباً المفتش جاب وهو يؤدي عمله، ومصغياً إلى أسئلته. ولكنه كان -من وقت لآخر- يشم الهواء بطريقة مرهفة جداً كما لو أنه كان حائراً. أنا أيضاً شممت، ولكني لم أستطع تمييز شيء يثير الاهتمام. بدا الهواء نقياً تماماً وخالياً من أية رائحة، ومع ذلك فقد استمر بوارو يشمّ بارتياب من وقت لآخر، وكأن أنفه الحاد قد أدرك شيئاً لم أدركه.

والآن، وبعد أن ابتعد جاب عن الجثة جثا بوارو قربها. لم يُلقِ بالاً إلى الجرح، وخيل إليّ -في البداية- أنه كان يتفحص أصابع اليد التي أمسكت بالمسدس، ولكن رأيت بعد برهة أن ما أثار اهتمامه كان منديلاً موضوعاً داخل كُمّ الرجل. كان السيد بروثيرو مرتدياً بدلة رصاصية غامقة. وأخيراً نهض بوارو على قدميه، ولكن عينيه ظلتا معلقتين بالمنديل، كما لو كان حائراً مذهولاً.

ناداه جاب ليذهب ويساعده في رفع الباب عن الأرض. وقد اغتنمت فرصتي فجثوت أنا أيضاً، وأخذت المنديل من كمّ بدلة الرجل وتفحصته بكل دقة. كان منديلاً بسيطاً تماماً من النسيج الأبيض، ولم تكن عليه أية علامة أو بقعة من أي نوع. أعدته إلى مكانه وأنا أهزّ رأسي حيرة وأعترف لنفسي بأنني حائر مضطرب.

كان الرجلان قد رفعا الباب، وأدركت أنهما يبحثان عن المفتاح، ولكن البحث كان بلا أي طائل. قال جاب: أصبحت الأمور واضحة. النوافذ مغلقة ومقفلة. لقد غادر القاتل من الباب، ثم أقفله وأخذ المفتاح معه. لعلّه ظنّ أن فكرة انتحار بروثيرو بإطلاق النار

على رأسه -بعدما أقفل على نفسه الباب- ستكون مقبولة، وأن أحداً لن ينتبه إلى غياب المفتاح. هل توافقني يا سيد بوارو؟

- إنني أوافقك، نعم. ولكنه كان من الأسهل والأفضل أن يُدسّ المفتاح ثانية داخل الغرفة من تحت الباب، وعندها يبدو الأمر وكان المفتاح قد سقط من القفل.

جاب: آه، حسناً، ولكنك لا تستطيع أن تتوقع امتلاك الجميع لأفكارك الرائعة. ولو أنك دخلت عالم الجريمة لأصبحت رعباً مقيماً للناس. هل من ملاحظات تبديها يا سيد بوارو؟

بدا لي أن بوارو كان حائراً تائهاً. قلّب ناظريه في الغرفة ثم علّق بشكل رقيق يكاد يكون اعتذاراً: كان يدخن كثيراً، هذا السيد.

كان ذلك صحيحاً تماماً. كانت حاملة الوقود مليئة بأعقاب لفائف التبغ، شأنها في ذلك شأن منفضة دخان كانت على طاولة صغيرة قرب الكنبة الضخمة.

علّق جاب قائلاً: لا بد أنه استهلك عشرين لفافة ليلة أمس.

انحنى وتفحص بدقة محتويات حاملة الوقود، ثم حوّل انتباهه إلى منفضة الدخان، وبعدها قال: إنها جميعاً من نفس النوع، وقد دخنها شخص واحد. ما من شيء يذكر في هذا الجانب يا بوارو.

تمتم صديقي قائلاً: لم أُلمّح إلى وجود شيء.

فجأة صاح جاب: ها، ما هذا؟

ثم انقض على شيء لامع متلألئ على الأرض قرب جثة

الرجل، وقال: زرٌّ مقطوع من سِوار قميص. عجباً! لمن هذا الزر؟ دكتور غايلز، سأكون ممتناً لك إن نزلت وأرسلت لنا مدبرة المنزل.

قال الطبيب: ماذا عن السيد باركر وزوجته؟ إنه متلهف جداً على مغادرة المنزل، ويقول إن لديه عملاً ملحاً في لندن.

أجابه جاب: حسناً، يبدو أن ذلك العمل سيضطر إلى انتظاره، فبالطريقة التي تتقدم بها الأمور سيكون هنا عمل ملحٌّ عليه أن يتفرغ له! أرسل لنا مدبرة المنزل، ولا تدع أياً من الزوجين باركر يتملص منك أو من بولارد. هل دخل أحد من ساكني المنزل هنا صباح اليوم؟

فكّر الطبيب قليلاً ثم قال: كلا، لقد وقفوا في الممر خارج الغرفة عندما دخلنا أنا وبولارد.

- أأنت متأكد من ذلك؟

قال الطبيب: "متأكد تماماً". ثم غادر لأداء مهمته، فقال جاب ممتدحاً: إنه رجل طيب. حسناً، إنني لأعجب من يا ترى أطلق النار على هذا الرجل. يبدو وكأنه واحد من الثلاثة المقيمين في المنزل. لا أكاد أشك في مدبرة المنزل؛ فقد كان أمامها ثمانية أعوام لقتله لو أرادت ذلك. وأتساءل: من هم هؤلاء عائلة باركر؟ إن هذين الزوجين ليسا من النوع الذي يأسرك منظره.

ظهرت الآنسة كليغ عندئذ. كانت امرأة نحيلة كئيبة ذات شعر أشيب مرتب مفروق من الوسط، وذات شخصية بالغة الرصانة والهدوء. ومع ذلك كان منظرها العام ينم عن كفاءة تستدعي الاحترام. وقد شرحت -جواباً عن أسئلة جاب- بأنها رافقت الرجل

القتيل منذ أربعة عشر عاماً، وأنه كان سيداً كريماً رؤوفاً. قالت إنها لم تر السيد والسيدة باركر إلاّ منذ ثلاثة أيام، عندما وصلا على غير انتظار ليقيما في المنزل، وكانت تعتقد بأنهما قد فرضا نفسيهما فرضاً كزائرين، فلم يكن سيدها -بالتأكيد- يبدو مسروراً برؤيتهما. وقالت إن زر سوار القميص الذي عرضه جاب عليها لا يعود للسيد بروثيرو، وهي واثقة من ذلك.

ولدى سؤالها عن المسدس قالت إنها كانت تظن أن لدى سيدها سلاحاً من هذا النوع، وأنه أبقاه في حرز مقفل، وأنها رأته مرة قبل عدة سنوات، ولكنها لا تستطيع الجزم إن كان هذا هو نفسه ذاك. وقالت إنها لم تسمع صوت إطلاق رصاص ليلة أمس، ولكن ذلك ليس غريباً باعتبار المنزل ضخماً متداعياً، كما أن غرفتها والغرف التي تم إعدادها لعائلة باركر كانت في الجانب الآخر من المبنى. لم تكن تعرف في أي ساعة أوى السيد بروثيرو إلى فراشه... كان ما يزال ساهراً عندما صعدت إلى غرفتها الساعة التاسعة والنصف. لم يكن من عادته أن يذهب فوراً إلى فراشه عندما يذهب إلى غرفته، بل كان يبقى -عادة- ساهراً نصف الليل، يقرأ ويدخن... كان مدخناً كبيراً.

طرح بوارو سؤالاً: هل ينام سيدك -بشكل عام- ونافذته مفتوحة أم مغلقة؟

فكرت الآنسة كليغ قليلاً، وقالت: عادة ما تكون مفتوحة، وفي كل الأحوال تكون مفتوحة من الأعلى.

- ومع ذلك فهي الآن مغلقة، هل تستطيعين تفسير ذلك؟

- كلا، إلاّ إذا كان قد أحسّ بتيار هوائي فأغلقها.

يسألها جاب بضع أسئلة أخرى ثم صرفها. وبعدها قابل الزوجين باركر كلاً على انفراد. كانت السيدة باركر تميل إلى التصرف الهستيري وذرف الدموع، بينما كان السيد باركر صاخباً مشاكساً، وقد أنكر أن يكون زر القميص له، ولكن بما أن زوجته كانت قد تعرفت إلى الزر سابقاً، فإن إنكاره لم يكن ليحسن من وضعه. وفيما أنكر أيضاً دخوله أبداً إلى غرفة بروثيرو فقد اعتبر جاب بأن لديه دليلاً كافياً لطلب إذن باعتقاله.

ترك جاب الشرطي بولارد مسؤولاً عن المنزل وأسرع عائداً إلى القرية، وأجرى مكالمة هاتفية مع المركز.

مشينا أنا وبوارو عائدين إلى الفندق. قلت: إنك هادئ على غير عادتك. ألم تثرك القضية؟

- بالعكس، لقد أثارتني كثيراً... ولكنها حيرتني أيضاً.

- إن الدافع وراء الجريمة غامض. ولكنني واثق أن باركر إنسان سيء. تبدو القضية ضده واضحة تماماً باستثناء فقدان الدافع، الأمر الذي يمكن أن يظهر فيما بعد.

- ألم يسترعِ انتباهك أي شيء ذو أهمية خاصة رغم تجاهله من قبل جاب؟

نظرت إليه بفضول وقلت: ما الذي يحويه جرابك يا بوارو؟

- ما الذي كان في كم الرجل القتيل؟

- آه، ذلك المنديل!

- بالضبط. ذلك المنديل.

قلت متفكّراً: البحارة يحملون مناديلهم في أكمامهم.

- هذه نقطة رائعة يا هيستنغز، مع أنها ليست التي في بالي.

- هل من شيء آخر؟

- نعم، إنني أعود مراراً وتكراراً إلى موضوع رائحة الدخان.

صحت به متسائلاً: أنا لم أشم أي رائحة!

- وأنا أيضاً لم أشم يا صديقي العزيز.

نظرت بجدية. من الصعب جداً على المرء أن يعرف متى يسخر بوارو منه، ولكنه بدا جاداً عميق الجدية، وكان يقطب جبينه فيما هو مستغرق في التفكير.

* * *

جرى استجواب المحكمة بعد يومين. وفي هذه الأثناء ظهر دليل جديد، فقد اعترف أحد المتشردين بأنه تسلق الجدار وصولاً إلى حديقة لي هاوس حيث كان ينام غالباً في سقيفة كانت تترك بغير قفل. وقد أعلن أنه سمع في الساعة الثانية عشرة رجلين يتشاجران بصوت عالٍ في غرفةٍ في الطابق الأول. كان أحد الرجلين يطلب مبلغاً من المال، بينما كان الآخر يرفض ذلك بغضب. وحين اختفى وراء أحد الأغصان رأى الرجلين وهما يغدوان ويروحان أمام النافذة المضاءة.

كان المتشرد يعرف أحد ذينك الرجلين باعتباره السيد بروثيرو مالك البيت، وقد قام بالتعرف إلى الرجل الآخر وأكد أنه السيد باركر.

أصبح واضحاً الآن أن الزوجين باركر إنما جاءا إلى لي هاوس بهدف ابتزاز بروثيرو. وعندما أكتُشف -في وقت لاحق- بأن الاسم الحقيقي للرجل الميت هو ويندوفر، وأنه كان ملازماً أول في البحرية، وأنه كان على صلة بحادث تفجير سفينة الرحلات ميريثوت في عام ١٩١٠، عند ذلك بدت القضية وكأنها تتضح بسرعة. ولقد ساد الافتراض بأن باركر -المطلع على الدور الذي لعبه ويندوفر- قد اقتفى أثره حتى وجده، وأخذ يطالب بأموال مقابل سكوته، الأمر الذي رفض الآخر الإذعان له. وخلال المشاجرة سحب ويندوفر مسدسه، فاختطفه منه باركر وأطلق عليه النار، ساعياً فيما بعد لإضفاء مظهر الانتحار على القضية.

تم تحويل باركر إلى المحاكمة، وقد احتفظ بدفاعه. حضرنا نحن مجريات محكمة الشرطة، ولدى مغادرتنا هزّ بوارو رأسه، وتمتم مع نفسه: ينبغي أن يكون الأمر كذلك. نعم، لا بد أنه كذلك... لن أضيع مزيداً من الوقت.

ثم دخل إلى مكتب البريد، وكتب ملاحظة أرسلها عن طريق ساعٍ خاص. لم أتمكن من رؤية اسم المرسل إليه. بعدها عدنا إلى الفندق الذي أقمنا فيه خلال عطلة نهاية الأسبوع التي لا تُنسى تلك. كان بوارو قلقاً، يقطع الغرفة جيئة وذهاباً باتجاه النافذة. قال: إنني أنتظر زائراً. أمر غير ممكن، غير ممكن بالتأكيد أن أكون مخطئاً... كلا، ها هي.

وبعد دقيقة واحدة دخلت إلى الغرفة -وسط دهشتي التامة- الآنسة كليغ. كانت أقل هدوءاً من المعتاد، وتسحب أنفاسها بشدة كما لو أنها كانت تركض. ورأيت الخوف في عينيها وهي تنظر إلى بوارو، الذي قال لها بلطف: اجلسي يا آنستي. كان تخميني صحيحاً، أليس كذلك؟

كان جوابها على ذلك أن انفجرت دموعها.

سألها بوارو بلطف: لماذا فعلتِ ذلك؟ لماذا؟

- لقد أحببته كثيراً، لقد كنت مربيته وهو لما يزل فتى صغيراً. آه، كن رحيماً!

- سأبذل ما بوسعي. ولكنك تفهمين أنني لا أستطيع السماح بشنق رجل بريء... حتى لو كان نذلاً كريهاً.

وقفت وقالت بصوت منخفض: "قد لا أسمح أنا أيضاً بذلك في نهاية المطاف. افعل كل ما ينبغي عليك فعله". ثم أسرعت خارجة من الغرفة.

سألته وأنا مذعور تماماً: هل أطلقت هي عليه النار؟

ابتسم بوارو وهز رأسه بالنفي قائلاً: هو من أطلق النار على نفسه. هل تتذكر بأنه كان يضع منديله في كُمه الأيمن؟ لقد تبيّن لي من ذلك أنه كان أعسر. ونتيجة خوفه من انكشاف أمره -بعد مناقشة عاصفة مع السيد باركر- أطلق على نفسه النار. وفي الصباح جاءت الآنسة كليغ لتدعوه كعادتها فوجدته ملقى ميتاً. وكما أخبرتنا هي قبل قليل، كانت قد عرفته منذ كان صبياً صغيراً، وكانت تمتلئ

بالغضب والغيظ من الزوجين اللذين دفعاه إلى هذا الموت المشين. لقد اعتبرتهما قاتلين، ثم رأت -فجأة- فرصة لتجعلهما يعانيان مقابل الفعلة التي كانا سببها. كانت هي -وحدها- التي تعرف أنه أعسر، فبدلت المسدس من اليد اليسرى إلى اليمنى، وأغلقت النوافذ وأقفلتها، ورمت بزر القميص الذي كانت قد التقطته من إحدى غرف الطابق الأرضي، ثم خرجت فأقفلت الباب وأخذت المفتاح.

قلت في حماسة واندفاع: بوارو... إنك رائع. كل هذا استنتجته من دليل صغير واحد هو دليل المنديل.

- ورائحة الدخان... فلو كانت النافذة مغلقة، وكل هذه اللفائف قد دُخنت، لكان ينبغي للغرفة أن تكون مليئة برائحة الدخان والتبغ. ولكنها كانت -بدلاً من ذلك- نقية الهواء تماماً، ولذلك استنتجت -على الفور- أن النافذة كانت مفتوحة طوال الليل دون شك، ولم تُغلق إلاّ في الصباح، ولقد منحني ذلك مساراً مثيراً جداً للتفكير. لم أستطع تخيل ظروف يمكن لأي قاتل في ظلها أن يرغب في إقفال النافذة، إذ سيكون من مصلحته أن يتركها مفتوحة، ليدعي بأن القاتل قد هرب منها، هذا ما لم يتم تقبل نظرية الانتحار. وبالطبع فإن شهادة المتشرد أكدت شكوكي عندما سمعتُها، فلم يكن ليسمع أبداً تلك المحادثة ما لم تكن النافذة مفتوحة.

= رائع! والآن ما رأيك ببعض الشاي؟

قال بوارو متنهداً: تقولها كأي إنكليزي حقيقي. أظن أنّ من غير المحتمل أن أستطيع الحصول هنا على كأس من شراب الفواكه المُحلّى؟

* * *

مغامرة ملك السباتي

قلت متأملاً وأنا ألقي بصحيفة ديلي نيوزمونغر جانباً: الحقيقة أقوى من الخيال!

ربما لم تكن ملاحظتي أصيلة من بنات أفكاري، إذ يبدو أنها أثارت حفيظة صديقي. أمال رأسه البيضوي جانباً وهو ينفض عن بنطاله المكويّ بعناية ذرة غبار وهمية، ثم علق قائلاً: يا لعمق ملاحظتك! يا لصديقي هيستنغز من مفكر!

ودون أن أبدي أي انزعاج تجاه هذا الهزء الذي لم يكن له سبب، نقرت على الصحيفة التي ألقيتها جانباً وقلت: هل قرأت صحيفة الصباح؟

قال بوارو: قرأتها. وبعد قراءتها طويتها مجدداً بعناية وتناسق، ولم أرْمِها على الأرض كما فعلت أنت، بذلك الغياب المؤسف للنظام والمنهجية لديك.

(هذا هو أسوأ ما في بوارو؛ فالنظام والمنهجية أعظم قيَمِه. بل إنه يذهب في ذلك إلى أن يعزو كل نجاحه إليهما).

قلت: فقد رأيتَ -إذن- التقرير عن مقتل هنري ريدبيرن،

المنتج الموسيقي؟ ذلك الموضوع هو ما دفعني إلى قول ملاحظتي تلك. والحقيقة ليست فقط أغرب من الخيال، بل إنها أكثر إثارة أيضاً. فكر في تلك العائلة المتماسكة من عائلات الطبقة الوسطى، عائلة أوغلاندر: أب وأم وابن وابنة... نموذج لآلاف العائلات في هذا البلد. رجال العائلة يذهبون إلى المدينة كل يوم، بينما تعتني النساء بالمنزل. حياتهم هادئة تماماً ورتيبة إلى أبعد الحدود. في الليلة الماضية كانوا جالسين في غرفة جلوسهم الأنيقة في ديزيميد في منطقة ستريزام يلعبون الورق. وفجأة، دون سابق إنذار، يُفتح الباب الزجاجي المطل على الحديقة وتندفع منه إلى الغرفة امرأة تلطخ روب الساتان الرمادي الذي ترتديه ببقعة قرمزية. تغمغم المرأة بعبارة واحدة: "جريمة قتل"! ثم تقع أرضاً مغشياً عليها. من الممكن أن يكونوا قد تعرفوا إليها من صورها، فهي فاليري سانكلير، الراقصة المشهورة التي أثارت مؤخراً عاصفة في لندن!

- أهذه بلاغتك، أم بلاغة الصحيفة؟

- لقد كانت الصحيفة مستعجلة لتذهب للطباعة، فاكتفت بذكر الحقائق المجردة. ولكن الاحتمالات الدراماتيكية المثيرة التي انطوت عليها القصة أثارت انتباهي على الفور.

هز بوارو رأسه متفكراً وقال: حيثما توجد الطبيعة البشرية توجد الدراما. ولكن، إنها لا تكون دوماً في المكان الذي تظنها فيه... تذكّر ذلك. ومع ذلك فأنا أيضاً مهتم بهذه القضية، إذ يحتمل أن تكون لي بها علاقة.

- حقاً؟

- نعم، لقد هاتفني رجل صباح اليوم، وحدد موعداً معي باسم الكونت فيودور.

- ولكن، ما علاقة ذلك بالأمر؟

- لعلك لا تقرأ صحف الإثارة الإنكليزية الصغيرة، صحف القصص الغريبة: «اسمع الفأر بأن...» أو «تودّ العصفورة الصغيرة لو تعرف...». انظر هنا: تابعتُ أصابعه القصيرة الثخينة وهي تتنقل على السطور: «... إن كان الكونت فيودور والراقصة المشهورة هما حقاً على علاقة معاً... وإن كانت السيدة تحب خاتمها الألماسي الجديد!».

بوارو: والآن، حتى تكمل روايتك المثيرة جداً للأحداث، فإن الآنسة سانكلير قد أغمي عليها على سجادة غرفة الجلوس في ديزيميد إن كنت تذكر، إلى هنا وصلنا، أكمل.

هززت كتفي استهجاناً وأكملت: ونتيجة للعبارة الأولى التي تمتمت بها الآنسة عند دخولها فقد خرج رجلا عائلة أوغلاندر، أحدهما ليحضر الطبيب للعناية بالمرأة التي كانت تعاني بشكل رهيب -كما هو واضح- من أثر صدمة، والآخر إلى مركز الشرطة، حيث أخبرّهم بقصته، واصطحب بعض الشرطة إلى مون ديزير، وهي فيلا السيد ريدبيرن الفخمة التي لا تبعد كثيراً عن ديزيميد. وهناك وجدوا ذلك الرجل العظيم (الذي كان -بالمناسبة- يتمتع بسمعة بغيضة) ملقى في المكتبة وقد فُتح قفا رأسه كقشرة بيضة!

بوارو: لقد أعقتك عن الاسترسال على سجيتك. اغفر لي

أرجوك... آه، ها هو الكونت!

تم تقديم ضيفنا البارز تحت لقب الكونت فيودور. كان شاباً غريب الهيئة طويلاً، متلهفاً، ذا ذقن مستدق، وعينين سوداوين متقدتين توحيان بالتطرف.

سأل الضيف: السيد بوارو؟

انحنى صاحبي محيياً، فبادره الكونت قائلاً: سيدي، إنني في ورطة رهيبة، أكبر مما أستطيع التعبير عنه...

لوح بيده وقال: إنني أفهم قلقك، فالآنسة سانكلير صديقة عزيزة جداً عليك، أليس كذلك؟

أجاب الكونت ببساطة: آمل أن أتخذها زوجة لي!

اعتدل بوارو في كرسيه، وفتح عينيه إصغاءً فيما أكمل الكونت: لن أكون بذلك أول من أقدم على زواجٍ غير متكافئ في عائلتي، فأخي ألكسندر أيضاً تحدى العائلة. إننا نعيش الآن في أيامٍ أكثر انفتاحاً، خالية من ذلك الانغلاق الطبقي وما ينطوي عليه من تحيّز وتمييز. بالإضافة إلى أن الآنسة سانكلير -في الحقيقة- مكافئة لي تماماً في الدرجة الاجتماعية. وأظنك سمعت إشاراتٍ حول تاريخها؟

بوارو: سمعت عدة قصص رومانسية حول أصلها، وهذا أمر شائع لدى الراقصات الشهيرات. لقد سمعت أنها ابنة خادمة إيرلندية، كما سمعت القصة التي تجعل من أمها دوقة روسية عظيمة.

- القصة الأولى سخيفة بالطبع، أما الثانية فصحيحة. فقد

تركتني فاليري -رغم التزامها بالسرية- أخمّن أرجحية هذه القصة. بالإضافة إلى أنها تثبت ذلك دون وعي منها بألف طريقة. إنني أؤمن بالوراثة يا سيد بوارو.

قال بوارو متفكراً: أنا أيضاً أؤمن بالوراثة، فقد رأيت بعض الأشياء الغريبة ذات الصلة بمسألة الوراثة... أنا أيضاً كما قلت. ولكن لنشرع في العمل: ما الذي تريده مني؟ ما الذي تخافه؟ يمكنني أن أتكلم بحرية، أليس كذلك؟ هل يوجد ما يربط الآنسة سانكلير بالجريمة؟ كانت تعرف ريدبيرن بالطبع، أليس كذلك؟

- بلى، لقد ادعى بأنه يحبها.

- وهي؟

- لم يكن لديها ما تقوله له.

نظر بوارو إليه بحدّة وقال: هل كان لديها أي سبب لتخافه؟

تردد الشاب ثم قال: هل تعرف زارا العرّافة؟

- كلا.

- إنها مدهشة... عليك أن تستشيرها ذات يوم. ذهبت أنا وفاليري لرؤيتها في الأسبوع الماضي، وقد قرأت لنا الطالع في ورق اللعب. تحدثتْ مع فاليري عن متاعب، وغيوم تتلبد، ثم فتحت الورقة الأخيرة، ورقة الغلاف كما يسمونها.

وكانت الورقة ملك السباتي. قالت لفاليري: "حذار، رجل يسيطر عليك بقوته، وأنت تخشينه... إنك في خطر داهم بسببه.

هل تعرفين من الذي أعنيه؟". كانت فاليري شاحبة كالموتى. هزت رأسها وقالت: "نعم، نعم، أعرفه". وبعد ذلك غادرنا. كانت كلمات زارا الأخيرة لفاليري: "احذري ملك السباتي. الخطر يتهددك!". وقد حققت مع فاليري في ذلك، ولكنها أبت أن تخبرني بأي شيء. أكدتْ لي أن كل شيء على ما يرام. ولكنني الآن -بعد الذي حدث في الليلة الماضية- واثق أكثر من أي وقت مضى بأن فاليري رأت في ملك السباتي ريدبيرن، وأنه كان الرجل الذي كانت تخافه.

توقف الكونت فجأة، ثم قال: أنت تفهم الآن انفعالي عندما فتحت الصحيفة هذا الصباح. افترض أن فاليري قامت في نوبة جنون... آه، ذلك مستحيل!

نهض بوارو عن مقعده وربت بلطف على كتف الشاب قائلاً: لا تجزع... أرجوك، اترك الأمر لي.

- هل ستذهب إلى ستريزام؟ فهمت أنها ما زالت هناك، في ديزيميد، وقد أنهكتها الصدمة.

- سأذهب حالاً.

- لقد رتبت الأمور. سيُسمح لك بالاطلاع على أي شيء.

بوارو: إذن سنغادر، هل ترافقني يا هيستنغز؟ وداعاً يا سيدي.

* * *

كانت فيلا مون ديزير رائعة بشكل استثنائي، حديثة جداً ومريحة. وكان للعربات طريق قصير يفضي إليها من الشارع، وامتدت

حدائق غنّاء خلف المنزل باتساع بضعة هكتارات.

لدى ذكرنا اسم الكونت فيودور أخذَنا كبير الخدم الذي فتح لنا البابَ فوراً إلى مسرح المأساة. كانت المكتبة غرفة كبيرة فخمة، تمتد من آخر المبنى إلى أوله، مع نافذة في كل جهة من الجهتين، واحدة تطل على طريق العربات، والأخرى على الحديقة. وكانت الجثة قد تمددت على مصطبة أو فجوة هذه النافذة الأخيرة، وكانت قد نُقلت قبل وقت قصير بعد أن استكمل الشرطة تفتيشهم.

تمتمت لبوارو: هذا مزعج. من يدري كم من الأدلة ربما يكون الشرطة قد أتلفوها؟

ابتسم صديقي الضئيل وقال: إيه، إيه! كم مرة يجب أن أخبرك بأن الأدلة تأتي من الداخل؟ ففي الخلايا الرمادية الصغيرة للدماغ يكمن حل كل لغز.

ثم التفت إلى كبير الخدم وسأله: أعتقد أنه باستثناء نقل الجثة، فإن الغرفة لم تُمسّ؟

كبير الخدم: كلا يا سيدي. إنها تماماً كما كانت عندما وصل الشرطة في الليلة الماضية.

بوارو: بالنسبة لهذه الستائر... أرى أنها مسدلة حتى حافة مصطبة النافذة، وهي نفسها كذلك في النافذة الأخرى. هل كانت مسدلة ليلة أمس؟

- نعم يا سيدي، أسدلها أنا كل ليلة.

- إذن فلا بد أن ريدبيرن قد فتحها بنفسه.

- أعتقد ذلك يا سيدي.

- هل كنت تعلم أن سيدك ينتظر زائراً ليلة أمس؟

- هو لم يقل ذلك يا سيدي، ولكنه أصدر أوامره بعدم إزعاجه بعد العشاء. كما ترى يا سيدي: يوجد باب يفضي إلى خارج المكتبة إلى المصطبة الخارجية في جانب المنزل. كان بوسعه أن يستقبل أي امرئ بهذه الطريقة.

- وهل كان ذلك من عادته؟

سعل كبير الخدم بحرص وقال: أعتقد ذلك يا سيدي.

مشى بوارو إلى الباب المذكور الذي لم يكن مقفلاً وعبره إلى المصطبة الخارجية التي كانت تشرف على الطريق من جانبها الأيمن، وكان في نهايتها من الجانب الأيسر جدار من الآجرّ الأحمر.

قال كبير الخدم: إنها حديقة الفواكه يا سيدي. يوجد باب يفضي إليها من الطرف الآخر البعيد، ولكنه كان يقفل دوماً عند الساعة السادسة.

هز بوارو رأسه ودخل ثانية إلى المكتبة وكبير الخدم يتبعه. قال: ألم تسمع شيئاً من أحداث الليلة الماضية؟

- حسناً يا سيدي، سمعنا أصواتاً في المكتبة قبل الساعة التاسعة بقليل. ولكن ذلك لم يكن بالأمر المستهجن، لا سيما أنه صوت امرأة. ولكن بمجرد أن ذهبنا جميعاً إلى صالة الخدم في

الجانب الآخر تماماً فإننا لم نعد نسمع شيئاً على الإطلاق. وبعدها، في نحو الحادية عشرة، جاء الشرطة.

- كم صوتاً سمعتم؟

- لا يمكنني الجزم يا سيدي... لم ألحظ إلاّ صوت السيدة.

- آه!

- عفواً يا سيدي، الدكتور رايان ما يزال في المنزل، إن كنت ترغب في رؤيته.

قفزنا فرحاً بهذا المقترح، وبعد دقائق قليلة جاءنا الدكتور، وهو رجل مرح في أواسط عمره، وأعطى بوارو كل ما طلبه من معلومات. كان ريدبيرن ممدداً قرب النافذة، ورأسه قرب القاعدة الرخامية للنافذة. كان في جسمه جرحان، أحدهما بين عينيه، والآخر -وهو الجرح القاتل- في مؤخرة رأسه.

سأل بوارو: كان ممدداً على ظهره؟

قال الدكتور وهو يشير إلى بقعة صغيرة داكنة على الأرض: نعم، وتلك هي آثار جرحه.

- ألا يمكن أن تكون الضربة على مؤخرة الرأس قد نتجت عن ارتطامه بالأرض؟

- مستحيل. إذ كائناً ما كان السلاح المستخدم، فإنه قد اخترق عميقاً في الجمجمة.

نظر بوارو أمامه بتمعن. على الجدار الداخلي لكل نافذة حُفِرَ مقعد رخامي تم تصميم ذراعيه على شكل رأس أسد. التمعت فكرة في عين بوارو فقال: لنفترض أنه سقط على قفاه على رأس الأسد الناتئ هذا، ثم انزلق من هناك إلى الأرض. ألم يكن من شأن ذلك أن يسبّب جرحاً كالذي وصفته؟

الطبيب: بلى، هذا ممكن، ولكن الزاوية التي تمددت بها الجثة تجعل من هذه النظرية مستحيلة. وبالإضافة إلى ذلك، فلا بد في تلك الحالة من وجود آثار دماء على رخام المقعد.

- ما لم تكن قد مُسِحت؟

رفع الطبيب كتفيه حيرة وقال: هذا احتمال لا يكاد يكون وارداً؛ إذ لن يكون من مصلحة أحد أن يضفي على حادث عرضي مظهر جريمة قتل.

وافقه بوارو: هذا صحيح تماماً. هل تعتقد أن أياً من الضربتين يمكن أن تكون موجهة من قبل امرأة؟

- آه، هذا أمر مستبعد تماماً برأيي. أنت تفكر في الآنسة سانكلير كما أعتقد؟

- أنا لا أفكر بأحد على وجه التخصيص حتى أكون متأكداً.

عاد بانتباهه إلى الباب الزجاجي المفتوح، واستمر الطبيب في حديثه: عبر هذا الباب هربت الآنسة سانكلير. بوسعك أن ترى بصيصاً لضوء منزل ديزيميد من بين الأشجار من هنا. يوجد طبعاً العديد من المنازل الأكثر قرباً من ناحية المنزل الأمامية على الشارع، ولكن

ما حدث هو أن ديزيميد هو المنزل الوحيد المرئي من هذا الجانب رغم بعده النسبي.

بوارو: شكراً لك على لطفك يا دكتور. تعال يا هيستنغز، سنتبع آثار خطى الآنسة.

* * *

سلك بوارو الطريق عبر الحديقة، ومرّ ببوابةٍ حديدية، ثم عبر مساحة قصيرة من الأرض الخضراء وصولاً إلى بوابة حديقة منزل ديزيميد، وهو بيت صغير متواضع شيد على أرض تقرب من نصف هكتار. كانت بعض الدرجات تفضي إلى باب زجاجي خلفي، اتجه بوارو نحوها قائلاً: تلك هي الطريق التي قطعتها الآنسة سانكلير. من الأفضل لنا -نحن الذين لا نملك اضطرارها الملحّ لطلب المساعدة- أن نذهب إلى الباب الأمامي.

استقبلتنا خادمة وقادتنا إلى غرفة الجلوس، ثم ذهبت لتبحث عن السيدة أوغلاندر. بدا واضحاً أنه لم يتم العبث بالغرفة منذ ليلة أمس، فالرماد ما زال كما هو في شبكة الموقد، وطاولة لعب الورق لما تزل في وسط الغرفة، وقد كُشفت أوراق أحد اللاعبين وألقيت على المائدة. كان المكان مليئاً بالتحف وقطع الزينة الرخيصة، فيما كانت العديد من صور العائلة ذات البشاعة الفائقة تزين الجدران.

نظر بوارو إلى الصور بشكل أكثر رحمة وتعاطفاً مني، وعدّل من وضع صورة أو اثنتين منها كانت مائلة قليلاً، ثم قال: العائلة... إنها رباط قوي، أليس كذلك؟ إن العاطفة تحل محل الجمال.

وافقته على كلامه وعيناي معلقتان على صورة لمجموعة عائلية مؤلفة من رجل ملتحٍ وامرأة ذات شعر مرفوع بشكل مبالغ فيه وصبي متين البنية قويها وبنتين صغيرتين مزينتين بكثير من الأشرطة التي لا حاجة لها. وقد اعتبرت تلك الصورة صورةً لعائلة أوغلاندر في الأيام الخوالي، ودرستها باهتمام.

فُتح الباب ودخلت امرأة شابة. كان شعرها الأسود مصففاً بعناية وترتيب، وكانت ترتدي ملابس رياضية رمادية وتنورة صوفية. نظرتْ إلينا باستفهام، فتقدم بوارو وقال: الآنسة أوغلاندر؟ إنني آسف على إزعاجكم، خاصة بعد كل ما مررتم به. لا بد أن المسألة كانت مزعجة جداً.

وافقته الشابة بحذر قائلة: كانت مزعجة بعض الشيء.

بدأت أنا بالاعتقاد بأن عناصر الدراما قد تبددت هباء عند الآنسة أوغلاندر، وأن افتقارها إلى الخيال يبرز متفوقاً على أية مأساة. وقد تأكد لي هذا الاعتقاد عندما أكملت حديثها قائلة: عليّ أن أعتذر عن حالة هذه الغرفة... إن الخدم ينفعلون عادة بشكل أحمق تماماً.

بوارو: كنتم جالسين هنا في الليلة الماضية، أليس كذلك؟

- بلى، كنا نلعب البريدج بعد العشاء، عندما...

بوارو: عفواً... كم من الوقت مضى عليكم وأنتم تلعبون؟

فكرت الآنسة أوغلاندر ثم قالت: حسناً... لا أستطيع الجزم حقاً. أظن أنها كانت في نحو الساعة العاشرة. كنا قد أنهينا عدة دورات من اللعبة، هذا ما أذكره.

بوارو: وأنت نفسك... أين كنت تجلسين؟

- مقابل الباب الزجاجي. كنت ألعب شريكةً مع أمي بلا ورقة جوكر رابحة، وفجأة، ودون أي إنذار، فُتح الباب بشدة واندفعت الآنسة سانكلير إلى الغرفة.

- هل تعرفت إليها؟

- تكونت لديّ فكرة غائمة بأن وجهها مألوف.

- إنها ما تزال هنا، أليس كذلك؟

- بلى، ولكنها ترفض رؤية أي إنسان. إنها ما تزال مصدومة.

- أظنها ستراني. هل لك أن تخبريها أنني هنا بناء على طلب مستعجل من الكونت بول فيودور؟

تخيلت بأن ذكر الكونت قد هزّ بعض الشيء من الهدوء المكين للآنسة أوغلاندر. ولكنها غادرت الغرفة للقيام بمهمتها دون أية ملاحظة إضافية، وسرعان ما عادت بسرعة لتقول إن الآنسة سانكلير سترانا في غرفتها.

تبعناها إلى الطابق العلوي، ثم إلى غرفة نوم فسيحة. وعلى كنبة طويلة قرب النافذة كانت تتمدد امرأة أدارت لنا رأسها عند دخولنا. ولقد أثار انتباهي فوراً التناقض بين المرأتين، وزاد إحساسي بتناقضهما رغم أنهما لم تكونا متباينتين في السمات الفعلية أو في اللون. ولكن... آه، يا للفرق! لم تكن أيّ نظرة أو حركة من فاليري سانكلير إلاّ وتعبر عن الدراما. بدت وكأنها تنفث جواً من الرومانسية.

كانت تلبس رداء قرمزياً ناعماً، رداءً متزلباً بكل المعايير العقلانية، ولكن سحر شخصيتها منحه نكهة غريبة، بحيث بدا رداء شرقياً ذا لون متلألئ. ركزت عينيها السوداوين الواسعتين على بوارو، وقالت: هل أتيت من عند بول؟

كان صوتها الواهن يناسب مظهرها، وقال بوارو: نعم يا آنسة، أنا هنا لخدمته... وخدمتك.

- ما الذي تريد معرفته؟

- كل شيء حدث الليلة الماضية، كل شيء!

ابتسمت بشيء من الملل وقالت: هل تظن أن عليّ أن أكذب؟ إنني لست غبية، فأنا أرى بوضوح تام أنه لا يمكن إخفاء شيء. كان يحتفظ بأحد أسراري، أقصد ذلك الرجل القتيل، وكان يهددني به. وقد سعيت -إكراماً لبول- للوصول إلى اتفاق معه. لم يكن بوسعي المخاطرة بفقدان بول... أما الآن، وقد مات، فأنا في أمان. ولكن رغم ذلك كله، فأنا لم أقتله.

هزّ بوارو رأسه مبتسماً وقال: ليس من الضروري أن تقولي لي ذلك يا آنسة. أعيدي عليّ الآن ما حدث في الليلة الماضية.

- لقد عرضت عليه مالاً، وبدا مستعداً للتعامل معي. وقد حدد موعداً في التاسعة من ليلة أمس. كان يُفترض أن أذهب إلى بيته، وكنت أعرف المكان، فقد ذهبت إليه من قبل. كان يفترض أن أدور إلى الباب الجانبي وأدخل منه إلى المكتبة بحيث لا يراني الخدم...

- اعذريني يا آنستي، ولكن ألم تكوني خائفة كونك وحيدةً هناك في الليل؟

أكان خيالاً مني، أم أن صمتاً قصيراً ساد بالفعل قبل أن تجيب؟

- ربما كنت خائفة. ولكن لم أجد أحداً يمكنني أن أطلب منه الذهاب معي، وكنت يائسة. أدخلني ريدبيرن إلى المكتبة. آه، يا لذلك الرجل! إنني سعيدة بموته! لقد لعب معي كما يلعب القط مع الفأر... وبّخني وسخر مني. توسلت إليه وناشدته جاثية على ركبتي، عرضت عليه كل جواهري... كل ذلك عبثاً! بعد ذلك حدد شروطه هو، فرفضت. قلت له رأيي فيه، وصرخت به، ولكنه ظل يبتسم بهدوء. وبعدها، بعد أن سكتّ أخيراً، سُمِعَ صوت... من خلف الستارة في الباب الزجاجي... وقد سمعه هو أيضاً. مضى إلى الستائر وفتحها على مصراعيها. كان هناك رجل مختبئ، رجل مرعب الشكل، كالمتشرد! لَكَمَ السيد ريدبيرن ثم ضربه فخرّ صريعاً. أمسكني الرجل بيده الملطخة بالدماء، ولكنني انتزعت نفسي منه وقفزت عبر الباب الزجاجي وركضت هرباً بحياتي. ثم رأيت الأضواء في هذا البيت فاتجهت إليها. كانت الستائر مفتوحة، ورأيت بعض الناس يلعبون الورق. وقد وقعت في الغرفة. تمكنت فقط من التلفظ بعبارة "جريمة قتل!"، ثم أصبح كل شيء أسود في عيني...

- شكراً يا آنسة. لا بد أنها كانت صدمة فظيعة لجهازك العصبي. بالنسبة لذلك المتشرد، هل تستطيعين وصفه؟ هل تتذكرين ماذا كان يلبس؟

- كلا، لقد كان الأمر كله سريعاً جداً. ولكنني أستطيع تمييز

الرجل أينما كان... فوجهه محفور في عقلي.

- سؤال آخر فقط يا آنسة: الستائر على الباب الزجاجي الآخر، الباب المطل على الطريق، هل كانت مسدلة؟

لأول مرة تسلل تعبير عن الحيرة إلى وجه الراقصة، وبدا أنها تحاول التذكر. قال بوارو مشجعاً: ها يا آنسة؟

- أظن، وأكاد أكون واثقة، نعم واثقة تماماً! لم تكن مسدلة.

- هذا غريب طالما أن الستائر الأخرى كانت مسدلة. على كلٍّ لا فرق، فهي نقطة ليست ذات أهمية. هل ستبقين هنا طويلاً يا آنسة؟

- يعتقد الطبيب أنني سأكون قادرة على العودة إلى المدينة غداً.

ثم نظرتْ في الغرفة، فوجدت الآنسة أوغلاندر قد غادرت، فقالت: هؤلاء الناس هنا لطفاء جداً، ولكنهم ليسوا من عالمي. لقد صدمتُهم! وبالنسبة لي... فأنا لست مغرمة بالبرجوازية!

كان في كلماتها لمحة ضئيلة من المرارة. هز بوارو رأسه وقال: أفهم ذلك. أرجو أن لا أكون قد أرهقتك دون داعٍ بأسئلتي.

- أبداً يا سيدي. إنني فقط حريصة جداً على أن يعرف بول كل شيء بأسرع ما يمكن.

- إذن فسأتمنى لك يوماً سعيداً يا آنستي.

وبينما كان بوارو يغادر الغرفة، توقف، وركز انتباهه على خُفَّين

جلديين. قال: هذا لك يا آنسة؟

- نعم يا سيدي. لقد نظفوهما وأحضروهما لي قبل قليل.

قال بوارو ونحن ننزل الدرج: آه! يبدو أن الانفعال لم يمنع الخدم من تنظيف الخفّين، مع أنهم نسوا تنظيف شبكة الموقد. حسناً يا صديقي. ظهرت لي البداية نقطة أو نقطتان على درجة من الأهمية، ولكنني أخشى، بل أخشى كثيراً، أن يكون علينا أن نعتبر القضية منتهية. يبدو الأمر كله مستقيماً لا عوج فيه.

قلت: والقاتل؟

أجابني صديقي بكلمات مفخّمة طنّانة: إن هيركيول بوارو لا يصطاد المتشردين!

قابلتنا الآنسة أوغلاندر في الصالة وقالت: هل لكما أن تنتظرا في غرفة الجلوس للحظات؟ إن أمي ترغب في الحديث إليكما.

كانت الغرفة ما تزال على حالها، وقام بوارو بجمع أوراق اللعب بكسلٍ وهو يخلطها بيديه الصغيرتين المصقولتين بذوق رفيع. قال: هل تعرف ما هو رأيي يا صديقي؟

قلت بلهفة: كلا.

- أعتقد أن الآنسة أوغلاندر أخطأت في لعب دورها دون جوكر... كان عليها أن تلعب بثلاث ورقات بستوني.

قلت: بوارو! أنت لا تُحتمل.

صاح بوارو: يا إلهي.. ألا أستطيع أن أتكلم بشيء سوى الدماء والرعود!

وفجأة تجمد مكانه وقال: هيستنغز، هيستنغز. انظر! ملك السباتي مفقود من الورق!

صرخت: زارا!

بوارو: إيه؟

لم يبدُ أنه فهم إشارتي. رتب الأوراق بشكل آلي ووضعها في علبتها. كان وجهه جدياً كثيراً، وأخيراً قال: هيستنغز، إنني -أنا هيركيول بوارو- قد أوشكت أن أرتكب خطأً كبيراً، خطأً كبيراً جداً!

حدقت متأثراً، غير فاهم ما يعنيه. وعاد ليقول: ينبغي أن نبدأ ثانية يا هيستنغز. نعم، ينبغي أن نبدأ ثانية. ولكننا لن نخطئ هذه المرة.

قطع حديثه دخول سيدةٍ وسيمة القسمات في وسط العمر، تحمل في يدها بعض الكتب. انحنى بوارو لها محيياً فقالت: كأنني فهمت يا سيدي أنك أحد أصدقاء الـ... الآنسة سانكلير؟

بوارو: بل جئت من طرف أحد أصدقائها يا سيدتي.

- آه فهمت. ظننت ربما...

قاطعها بوارو فجأة بحركة من يده تجاه الباب الزجاجي وقال: ألم تكن ستائركم مسدلة ليلة أمس؟

- نعم، لم تكن مسدَلة بل مرفوعة؛ ولعل هذا هو سبب رؤية الآنسة سانكلير الضوء بوضوح.

- كان ضوء القمر ساطعاً ليلة أمس، وأتساءل كيف أنك لم تري الآنسة سانكلير من مقعدك المواجه للباب الزجاجي هنا؟

- أظن أننا كنا منهمكين بلعبتنا. لم يحدث شيء كهذا من قبل.

- بوسعي تصديق ذلك تماماً يا سيدتي. وسوف أريح ذهنك، فالآنسة سانكلير ستغادر غداً.

انفرجت أسارير السيدة وقالت: آه!

بوارو: وسأتمنى لك يوماً هانئاً يا سيدتي.

ونحن خارجان كانت خادمة تنظف الدرج أمام الباب الأمامي. خاطبها بوارو قائلاً: أأنت التي نظفت حذاء السيدة الشابة الراقدة فوق؟

هزّت الخادمة رأسها بالنفي وقالت: لا يا سيدي، لا أظنه نُظِّف.

سألتُ بوارو ونحن نمشي عبر الشارع: فمن الذي نظفه إذن؟

بوارو: لا أحد، فلم يكن بحاجة إلى تنظيف.

قلت: سأتفق معك على أن المشي على الطريق، أو على الممرّ، في ليلة هادئة لن يؤدي إلى تلويث الحذاء بالوحل. ولكن من المؤكد أن الركض عبر أعشاب الحديقة الطويلة ونباتاتها من شأنه أن يوحله ويوسخه.

أجاب بوارو بابتسامة غريبة: نعم، أوافقك الرأي، ففي تلك الحالة كان سيتسخ بالفعل.

- ولكن...

- اصبرْ نصفَ ساعةٍ يا صديقي. إننا عائدان إلى مون ديزير.

* * *

بدا أن كبير الخدم قد فوجئ بظهورنا مرة أخرى، ولكنه لم يعترض على عودتنا إلى المكتبة. وعندما توجه إلى الباب الزجاجي الذي يطل على طريق العربات صحت به: ها، ليس ذلك هو الباب المطلوب يا بوارو.

- لا أظن ذلك يا صديقي. انظر هنا.

وأشار إلى رأس الأسد الرخامي. كان عليه لطخة باهتة تغير لونها. ثم نقل أصبعه وأشار إلى لطخة مشابهة على الأرض الملمّعة.

قال بوارو: لقد ضرب أحدهم ريدبيرن لكمة بقبضته بين عينيه، فوقع إلى الخلف على هذه القطعة الرخامية الناتئة، ثم انزلق إلى الأرض. بعد ذلك تم سحبه على الأرض إلى النافذة الأخرى، ومُدِّد هناك بدل مكانه الأول، ولكن ليس تماماً بنفس الزاوية.. كما دلت شهادة الطبيب.

- ولكن لماذا؟ يبدو ذلك غير ضروري على الإطلاق.

- بالعكس، كان ذلك ضرورياً جداً. وهو المفتاح الذي يفضي إلى هوية القاتل، مع أنه -بالمناسبة- لم يقصد قتل ريدبيرن، ولذلك فإن الحالة لا تكاد تسمح بتسميته قاتلاً. لا بد أنه رجل قوي جداً.

- لأنه سحب الجثة عبر الغرفة؟

- ليس من أجل ذلك فقط. لقد كانت قضية مثيرة، ولقد أوشكتُ -مع ذلك- أن أجعل من نفسي مغفلاً.

- هل تعني أن القضية انتهت، وأنك تعرف كل شيء؟

- نعم.

تذكرت فجأة شيئاً، فصرخت: كلا. بقي شيء واحد لا تعرفه!

بوارو: وهو؟

- أنت لا تعرف أين هو ملك السباتي المفقود؟

- هكذا؟ آه، هذا مضحك! مضحك جداً يا صديقي!

- لماذا؟

- لأنه في جيبي!

وأخرجه من جيبه متباهياً، فقلت وقد شعرت بالخزي بعض الشيء: آه! أين وجدته؟ هنا؟

- لم يكن في اختفائه ما يثير. إنه -ببساطة- لم يتم إخراجه مع باقي الأوراق. كان في علبة ورق اللعب.

- همم! ومع ذلك فقد أوحى لك بفكرة، أليس كذلك؟

- بلى يا صديقي؛ إنني اقدم احترامي لجلالته.

وللمدام زارا!

- آه، نعم... وللسيدة أيضاً.

- حسناً، ما الذي سنفعله الآن؟

- سنعود إلى المدينة. ولكن قبل ذلك عليّ أن أتبادل بضع كلمات مع امرأة معينة في ديزيميد.

* * *

فتحت لنا البابَ الخادمةُ الصغيرة نفسها وقالت: إنهم يتناولون الغداء الآن يا سيدي، إلاّ إن كنت تريد الآنسة سانكلير، وهي ترتاح.

بوارو: يكفي أن أرى السيدة أوغلاندر. هل لك أن تخبريها؟

قادتنا الخادمة إلى غرفة الجلوس لننتظر. ولمحتُ العائلة مجتمعةً في غرفة الطعام فيما كنا نمر، وقد تعززت الآن بحضور رجلين متيني البنية قويين، أحدهما بشارب والآخر بشارب ولحية أيضاً.

خلال بضع دقائق جاءت السيدة أوغلاندر إلى الغرفة، وهي تنظر باستفهام إلى بوارو الذي انحنى لها وقال: سيدتي، إننا في بلدنا نكنّ حناناً كبيراً واحتراماً عظيماً للأم، أم العائلة... إنها كل شيء!

بدت السيدة أوغلاندر مدهوشة بعض الشيء من هذا الافتتاح، فيما تابع بوارو: ولهذا السبب جئت إلى هذا البيت... لكي أهدئ من قلق أم. إن قاتل السيد ريدبيرن لن يُكشف، فلا تخافي. أنا، هيركيول بوارو، أقول لك ذلك! إنني على حقٍ، أليس كذلك؟ أم أنها زوجةٌ تلك التي يجب أن أطمئنها؟

ساد الصمت للحظات. بدت السيدة أوغلاندر متفحصة لبوارو بعينيها، وأخيراً قالت بهدوء: لا أعرف كيف عرفت، ولكن نعم، أنت على حق.

هزّ بوارو رأسه برزانة وقال: هذا كل شيء يا سيدتي. ولكن لا تكوني مضطربة، فليس لشرطتكم الإنكليزية عينا هيركيول بوارو.

ثم قرع بطرف أصبعه صورة العائلة على الجدار وقال: هل كانت لديك ابنة أخرى ذات يوم، وهي ميتة الآن يا سيدتي؟

مرة أخرى ساد بعض الصمت، فيما كانت تتأمله بعينيها، ثم أجابت: نعم، إنها ميتة.

قال بوارو برشاقة: آه! حسناً، ينبغي أن نعود إلى المدينة. هل تمانحين أن أعيد ملك السباتي إلى ورق اللعب؟ لقد كانت تلك زلّتكم الوحيدة. أنت تفهمينني، فلعب البريدج لمدة ساعة أو أكثر بواحدة وخمسين ورقة فقط غير ممكن، ما من أحد يعرف شيئاً عن هذه اللعبة يمكن أن يصدق ذلك لدقيقة واحدة! طاب يومك!

* * *

وبينما كنا نذهب إلى المحطة قال بوارو: والآن يا صديقي، ها أنت ترى كل شيء!

قلت: إنني لا أرى شيئاً! من الذي قتل ريدبيرن؟

- جون أوغلاندر الابن. لم أكن واثقاً تماماً إن كان القاتل هو الأب أو الابن، ولكنني ركزت على الابن باعتباره الأقوى والأكثر شباباً. كان لا بد أن يكون أحدهما هو الفاعل، بسبب الباب الزجاجي.

- لماذا؟

- كان للمكتبة أربعة مخارج: بابان عاديان وبابان زجاجيان.

ولكن الواضح أن مخرجاً واحداً فقط كان يخدم الغرض، فثلاثة تفضي إلى مقدمة المنزل بشكل مباشر أو غير مباشر. كان ينبغي للمأساة أن تحدث عند الباب الزجاجي الخلفي، لكي تبدو الأمور لاحقاً كما لو أن فاليري سانكلير أتت إلى ديزيميد بالمصادفة. لقد أغمي عليها بالفعل طبعاً، وقد حملها جون أوغلاندر طوال المسافة على كتفيه. ولذلك قلت إنه لا بد أن يكون رجلاً قوياً.

- إذن فهل ذهبا إلى هناك سوياً؟

- نعم. إنك تتذكر تردد فاليري عندما سألتها عن خوفها من الذهاب بمفردها؟ لقد ذهب معها جون أوغلاندر، الأمر الذي لم يؤدِّ إلى تحسين خلق ومزاج ريدبيرن كما يخيل إليّ. ولقد تشاجرا، وربما كانت إهانة ما وجهها ريدبيرن إلى فاليري هي التي جعلت أوغلاندر يلكمه. وأنت تعرف الباقي.

- ولكن لماذا لعبة البريدج؟

- لأن لعبة البريدج تستلزم أربعة لاعبين. إن شيئاً بسيطاً كهذا يحمل كثيراً من الإقناع. من الذي بوسعه أن يفترض بأنه لم يكن في الغرفة سوى ثلاثة أشخاص طوال تلك الليلة؟

كنت ما أزال حائراً، فقلت: أمر واحد لا أفهمه، ما هي علاقة عائلة أوغلاندر بالراقصة فاليري سانكلير؟

- آه، ذلك ما تعجبت من عدم انتباهك له. ومع ذلك فقد أطلتَ النظر إلى تلك الصورة على الجدار أكثر مما نظرت أنا. ربما كانت الابنة الأخرى للسيدة أوغلاندر ميتة بالنسبة لأسرتها، ولكن

العالم يعرفها باسم فاليري سانكلير!

صحت مستغرباً: ماذا؟

- ألم تلحظ الشبه بمجرد رؤيتك للأختين معاً؟

- لم ألحظ أي شبه، بل فكرت فقط بالفرق الهائل بينهما.

- ذلك لأن عقلك منفتح جداً للتأثيرات الرومانسية الخارجية يا عزيزي. إن ملامحهما تكاد تكون واحدة، وكذلك لون بشرتهما. الأمر المثير هو أن فاليري تخجل من عائلتها، وعائلتها تخجل منها. ومع ذلك، ففي لحظة خطر، لجأت إلى أخيها طلباً للمساعدة، وعندما حدث ما لم يكن بالحسبان تضامنوا جميعاً بأسلوب رائع. إن قوة العائلة أمر مدهش. إن كل أفراد تلك العائلة يجيدون التمثيل... ومن هنا أخذت فاليري موهبتها المسرحية. إنني -كما قال الكونت- أؤمن بالوراثة. لقد خدعوني أنا، هيركيول بوارو! ولولا مصادفة سعيدة، وسؤال اختباري للسيدة أوغلاندر جعلتها فيه تناقض رواية ابنتها عن مواضع جلوسهما، لولا ذلك لاستطاعت عائلة أوغلاندر إلحاق الهزيمة بهيركيول بوارو!

- وماذا ستقول للكونت؟

- سأقول له إن فاليري لم تكن لترتكب هذه الجريمة، وإنني أشك في إمكانية العثور على ذلك المتشرد أبداً. كما أريد أن أبلغ تهانيّ إلى زارا. لقد كان ذلك مصادفة غريبة! عليّ أن أسمي هذه القضية الصغيرة «مغامرة ملك السباتي»... ما رأيك يا صديقي؟

* * *

إرث عائلة ليميسوربيه

لقد حققتُ -برفقةِ بوارو- في العديد من القضايا الغريبة، ولكن لا أظن أن أياً من تلك القضايا يمكن مقارنته بتلك السلسة من الأحداث التي أسرت اهتمامنا لفترة امتدت لعدة سنوات، وبلغت ذروتها في المشكلة الكبرى التي عرضت على بوارو ليحلّها. لقد استرعى تاريخ أسرة ليميسوربيه اهتمامنا لأول مرة في إحدى الأمسيات خلال الحرب. كنت أنا وبوارو قد عدنا حديثاً للعمل سويةً، مجدّدَيْن أيام تعارفنا القديم في بلجيكا. وكان بوارو يتابع قضية صغيرة لوزارة الحرب، وبعدما أنجزها بشكل نال الرضا التام، ذهبنا لتناول العشاء في فندق كارلتون مع ضابط كبير حرص خلال وجبة الطعام على إطراء بوارو كثيراً. وقد اضطر الضابط للخروج سريعاً للحاق بموعد له مع شخص ما، وأنهينا نحن شرب قهوتنا على رَسلنا قبل أن نحذو حذوه.

وبينما كنا نغادر المطعم، حيّاني صوت ذو نبرة مألوفة، فالتفتّ لأرى أمامي الكابتن فينسنت ليميسوربيه، وهو شاب عرفته في فرنسا. كان برفقة رجل أسنّ منه يوحي التشابه أنهما من نفس العائلة، وقد ثبت أنه كذلك بالفعل، إذ قدمه صديقي لنا على أنه السيد هوغو

ليميسورييه، عم صديقي الشاب.

لم أكن أعرف الكابتن ليميسورييه على نحو وثيق حقاً، ولكنه كان شاباً لطيفاً، حالماً بعض الشيء، وتذكرت أنني سمعت بانتمائه إلى عائلة أرستقراطية قديمة ذات أملاك في مقاطعة نورثمبرلاند تعود ملكيتها لها إلى ما قبل عهد «الإصلاح» في القرن السادس عشر. لم أكن أنا أو بوارو على عجلة من أمرنا؛ ولذلك استجبنا لدعوة الشاب وجلسنا إلى طاولة مع أصدقائنا الجدد، وتبادلنا أحاديث ممتعة حول قضايا مختلفة. كان السيد ليميسورييه الأكبر سناً رجلاً في نحو الأربعين من عمره، يضفي عليه انحناء كتفيه صفة العالِم المتبحر، وكان في ذلك الوقت مشغولاً ببعض البحوث الكيميائية لحساب الحكومة كما يبدو.

قطع حديثنا شاب طويل أسمر البشرة، تقدم إلى الطاولة وقال وهو يبدو في حالة هياج عقلي: الحمد لله أني وجدتكما!

الكابتن ليميسورييه: ما الأمر يا روجر؟

روجر: والدك يا فنسنت. سقط سقطة خطيرة عن حصان فتيّ.

وتلاشت بقية الحديث بعد أن سحب صاحبه جانباً.

وخلال دقائق معدودات سارع صديقانا بالانصراف مستأذنَين منا. كان والد فنسنت ليميسورييه قد تعرض لحادث خطير وهو يحاول تجربة ركوب حصان فتيّ، وكان متوقّعاً أن لا يعيش حتى الصباح. وقد استحال وجه فنسنت شاحباً كوجوه الموتى بسبب الحادث وبدا وكأنه صُعق بالنبأ. شعرت بشيء من الدهشة؛ إذ كنت

قد فهمت -من الكلمات القليلة التي بدرت منه عندما كنا في فرنسا- أنه لم يكن يتمتع بصلات ودية مع والده، ولذلك فإن إظهاره لمشاعر البنوّة الآن أدهشني بعض الشيء.

بقي الشاب الأسمر الذي قُدِّم لنا على أنه السيد روجر ليميسورييه، أحد أولاد العمومة، بعد ذهاب الاثنين، وخرجنا ثلاثتنا معاً من المطعم.

قال روجر: إنها لغريبة بعض الشيء هذه القضية... ربما كان من شأنها أن تثير اهتمام السيد بوارو. لقد سمعت عنك يا سيد بوارو من هيغنسن (كان هيغينسن هو الضابط الكبير الذي تعشى معنا)، وهو يقول إنك ضليع في علم النفس.

أجابه بوارو بحذر: لقد درست علم النفس، نعم.

روجر: هل لاحظت وجه ابن عمي؟ لقد أذهلته المفاجأة تماماً، أليس كذلك؟ أتدري لماذا؟ إنها لعنة لحقت بأسرة عريقة قديمة! هل يهمك أن تسمعها؟

- سيكون لطفاً كبيراً منك أن ترويها لي.

نظر روجر ليميسورييه إلى ساعته وقال: لديّ وقت طويل، سأقابلهما في منطقة كينغز كروس. حسناً يا سيد بوارو، إن أسرة ليميسورييه أسرة قديمة. وفي وقتٍ ما في العصور الوسطى، شك أحد أفراد الأسرة في زوجته، إذ وجدها في وضع يثير الشبهة. وقد أقسمت أنها بريئة، ولكن البارون هوغو القديم -وهو اسم الرجل- لم يكن ليصغي لكلامها. كان لديه منها ابن ذكر، وأقسم بأن الطفل لم

يكن من صلبه وأنه لا ينبغي له أن يرثه. نسيت ما الذي فعله بالضبط، ولكنه كان عملاً من تلك الأعمال الخيالية التي كانت سائدة في العصور الوسطى مثل بناء جدار على الأم والولد وهما حيّان. على كلٍ، قتلهما معاً، وقد ماتت وهي تعلن براءتها وتشكو وتدعو على أسرة ليميسورييه باللعنة الأبدية. وكانت لعنتها أن لا يستطيع ولدٌ بكرٌ لعائلة ليميسورييه أبداً أن يرث تركة العائلة. ودارت الأيام بعد ذلك، وتبين -بما لا يقبل الشك- براءة المرأة، وأعتقد أن هوغو قد لبس بعد ذلك قميصاً من شعر، وأنهى أيامه جاثياً على ركبتيه في صومعة كاهن. ولكن الغريب في الأمر هو أنه منذ ذلك الوقت حتى وقتنا هذا لم يفلح أيّ ابنِ بكرٍ أبداً في وراثة أطيان الأسرة؛ إذ تذهب تلك الأطيان والضياع إلى الإخوة وأولاد العمومة والأبناء الأصغر سناً، ولكنها أبداً لم تذهب لأي ابنِ بكر. لقد كان فنسنت الابن الثاني لأبيه، بين خمسة أبناء مات كبيرهم أثناء طفولته. وبالطبع فإن فنسنت كان مقتنعاً طوال هذه الحرب بأنه إن كان محتماً موت أحدٍ فلن يكون إلاّ هو نفسه. ولكن الغريب أن أخويه اللذين يصغرانه قُتلا في الحرب، وبقي هو نفسه لم يصب بأذى!

قال بوارو متفكراً: تاريخٌ مثير للعائلة. ولكن والده يموت الآن، وهو سيرثه لأنه الابن البكر، أليس كذلك؟

روجر: بالضبط. إن اللعنة قد أصابها البلى، ولم تعد قادرة على الوقوف في وجه تيار الحياة الحديثة.

هز بوارو رأسه وكأنه يستنكر لهجة السخرية في حديث روجر الذي نظر في ساعته مجدداً وأعلن ضرورة مغادرته.

جاءت بقية القصة في اليوم التالي، عندما سمعنا بالموت المأساوي للكابتن فنسنت ليميسورييه. كان مسافراً إلى الشمال على متن القطار، ولا بد أنه فتح خلال الليل باب مقصورته وقفز على خط سكة الحديد. وقُدِّر بأن صدمة الحادث الذي تعرض له والده (التي جاءت عقب صدمة أهوال الحرب التي شهدها) سببت اضطراباً عقلياً مؤقتاً لديه. وقد تمت الإشارة إلى الخرافة الغريبة السائدة حول عائلة ليميسورييه، حيث حرم الابن البكر من الميراث وانتقلت التركة إلى الوريث الجديد وهو عم فنسنت، رونالد ليميسورييه، الذي سبق أن مات ابنه الوحيد في معركة سوم.

أعتقد أن لقاءنا العرضي مع الشاب فنسنت في آخر ليلة من حياته قد شحذ اهتمامنا بكل ما يَمُتّ بصلةٍ إلى عائلة ليميسورييه، إذ لاحظنا -ببعض الاهتمام- بعد عامين من وفاة فنسنت وفاة رونالد ليميسورييه الذي كان عاجزاً رسمياً عندما آلت إليه أملاك العائلة. وقد ورثه من بعده أخوه جون وهو رجل صحيح معافى وله صبي يدرس في معهد إيتون.

ما من شك بأن قدراً مشؤوماً كان يلقي بظلاله على الأسرة، ففي أول عطلة للصبي، أطلق النار على نفسه بطريق الخطأ مما أودى بحياته. وقد أدت وفاة والده -التي حدثت بشكل مفاجئ تماماً بعد أن لسعه زنبور- إلى انتقال ممتلكات العائلة إلى أصغر الإخوة الخمسة، هوغو، الذي تذكّرنا لقاءنا معه في تلك الليلة المشؤومة في فندق كارلتون. وباستثناء التعليق على سلسلة النكبات الغريبة التي حلت بعائلة ليميسورييه فإننا لم نظهر اهتماماً شخصياً بالقضية، ولكن الوقت قد أزف الآن حيث قدر لنا أن نلعب دوراً أكثر حيوية.

في صبيحة أحد الأيام زارتنا السيدة ليميسورييه. كانت امرأة طويلة القامة نشيطة في نحو الثلاثين من عمرها، وقد أظهرت بسلوكها قدراً عظيماً من التصميم والفطرة السليمة الصائبة. كان في حديثها -عندما تكلمت- أثر خفيف للّكنة الأمريكية. قالت: السيد بوارو؟ تسرني رؤيتك. لقد قابلك زوجي، هوغو ليميسورييه، ذات يوم قبل عدة سنوات، ولكنك لا تكاد تذكره كما أظن.

بوارو: أذكر تماماً يا سيدتي. كان لقاؤنا في فندق كارلتون.

- هذا رائع جداً منك. إنني يا سيد بوارو قلقة جداً!

- ممّ أنت قلقة يا سيدتي؟

- ابني البكر، لدي ابنان كما تعلم. رونالد في الثامنة من عمره، وجيرالد في السادسة.

- أكملي يا سيدتي. لماذا تقلقين على رونالد؟

- سيد بوارو، خلال الأشهر الستة الماضية نجا رونالد من الموت بأعجوبة ثلاث مرات: واحدة من الغرق، عندما كنا جميعاً في كورنوول هذا الصيف، ومرة عندما سقط من نافذة غرفته، وفي الثالثة نجا من التسمم الغذائي.

ربما أفصح وجه بوارو تماماً عمّا يفكر فيه، إذ سارعت السيدة ليميسورييه -بعد توقف لم يكد يستغرق لحظة واحدة- لتستدرك: أعرف طبعاً أنك ربما ظننتني امرأة سخيفة حمقاء، أجعل من الحبة قُبّة!

- كلا يا سيدتي. يمكن التماس العذر لأي أمٍّ في انزعاجها من مثل هذه الحوادث، ولكنني لا أكاد أرى المجال الذي يمكنني المساعدة من خلاله. فأنا لا املك شيئاً أمام العناية الإلهية التي تتحكم بالأمواج، أما بالنسبة لنافذة غرفة الطفل، فأنا أقترح تركيب قضبان حديدية، وبالنسبة للطعام فما الذي يعادل عناية الأم؟

السيدة: ولكن لماذا تحدث هذه الأشياء مع رونالد وليس مع جيرالد؟

- المصادفة يا سيدتي، المصادفة!

- أتظن ذلك؟

- ما الذي تظنينه أنت يا سيدتي، أنت وزوجك؟

عبرت ظلالُ شكٍّ وجهَ السيدة ليميسورييه وقالت: ما من فائدة في اللجوء إلى هوغو؛ لأنه لن يصغي. ربما تكون قد سمعت بأن لعنةً -كما يفترض- تلاحق العائلة، بحيث لا يرث ابن بكر، وهوغو يؤمن بها. إنه غارق حتى أذنيه في تاريخ العائلة، ويؤمن بالخرافات إلى أبعد الحدود. وعندما أذهب إليه بمخاوفي يكتفي بالقول: إنها اللعنة، ونحن لا نستطيع النجاة منها.

ولكنني أمريكية يا سيد بوارو، ونحن -هناك- لا نؤمن كثيراً باللعنات. إننا نحب مثل هذه الخرافات باعتبارها مؤشرات على عراقة وأصالة العائلة، فهي تعطي نوعاً من التميز كما تعلم. عندما قابلت هوغو لأول مرة كنت مجرد ممثلة في أدوار صغيرة في الهزليات الموسيقية، واعتقدت وقتها أن لعنة عائلته كانت أمراً جميلاً؛ فأمرٌ

من هذا القبيل يصلحُ للحكايات حول الموقد في ليالي الشتاء، ولكن عندما يصل الأمر إلى أطفال المرء ذاته... إنني أموت حباً بأطفالي يا سيد بوارو، وأنا مستعدة لعمل أي شيء من أجلهم.

بوارو: وهكذا، فقد انحدرت للتصديق بأسطورة العائلة يا سيدتي؟

- هل تستطيع الأسطورة نشر ساق شجرة لبلاب؟

- ما هذا الذي تقولينه يا سيدتي؟

وعلا وجهه تعبير دهشة هائلة.

- قلت: هل تستطيع أسطورةٌ، أو شبحٌ ان كنت تفضل تسميته هكذا، أن تنشر وتقطع ساق شجرة لبلاب؟ لن أناقش اقتراب الطفل من الغرق في كورنوول، إذ يمكن لأي طفل أن يسبح بعيداً في الماء ويتعرض للمصاعب، مع أن رونالد يجيد السباحة منذ بلغ الرابعة من عمره. ولكن شجرة اللبلاب أمر آخر. لقد كان كلا الطفلين طائشاً، وقد أدركا أن بوسعهما أن يتسلقا شجرة اللبلاب صعوداً ونزولاً، وكانا يتسلقانها دوماً. وفي أحد الأيام -بينما كان جيرالد غائباً عن البيت- تسلقها رونالد كالمعتاد، فسقطت الشجرة ووقع، ولحسن الحظ لم يصب بأذى كبير. ولكني خرجت وتفحصت الشجرة، وكانت قد نُشرت بمنشار يا سيد بوارو... أي أن ساقها قُطعت عمداً.

بوارو: إن ما تقولينه هنا خطير جداً يا سيدتي. هل قلت إن ابنك الأصغر كان غائباً في تلك اللحظة؟

- نعم.

- وفي وقت التسمم الغذائي، هل كان غائباً أيضاً؟

- لا؛ كان كلاهما هناك.

تمتم بوارو: غريب! والآن يا سيدتي، من هم ساكنوا بيتكم؟

- الآنسة سوندرز مربية الأطفال، وجون غاردينر سكرتير زوجي... ثم توقفت السيدة ليميسورييه كما لو أنها محرجة قليلاً.

بوارو: ومن غيرهما يا سيدتي؟

- والرائد روجر ليميسورييه الذي قابلته أنت في تلك الليلة كما أعتقد، وهو كثيراً ما يبقى عندنا.

- آه، نعم، هو أحد أبناء العمومة، أليس كذلك؟

السيدة: ابن عم بعيد النسب. إنه لا ينتمي لنفس الفرع من عائلتنا، ومع ذلك أظن أنه الآن أقرب أقرباء زوجي. إنه شخص لطيف، ونحن جميعاً نحبه كثيراً، والطفلان متعلقان كثيراً به.

- ألم يكن هو الذي علمهما تسلق شجرة اللبلاب؟

- ربما كان هو... إنه يحرّضهما على الشغب والأذى دائماً.

- سيدتي، إنني أعتذر عما قلته لك آنفاً. إن الخطر حقيقي، وأعتقد أنني أستطيع المساعدة. وأقترح أن توجهي لنا دعوةً نحن الاثنين للإقامة عندكم لبعض الوقت. هل يعارض زوجك ذلك؟

- آه، لا. ولكنه سيعتقد بأن لا فائدة من كل ذلك. إنني لأغضب من طريقته في الاكتفاء بالجلوس وتوقع موت الصبي.

- هدئي من روعك يا سيدتي، ولنضع ترتيباتنا بشكل منهجي.

* * *

قمنا بترتيباتنا كما ينبغي، وفي اليوم التالي انطلقنا إلى الشمال. كان بوارو غارقاً في أحلام يقظته، ثم أفاق من هذه الأحلام ليقول فجأة: "أمِنْ قطار كهذا القطار وقع فينسنت ليميسوريه؟"، ووضع نبرة طفيفة خاصة في كلمة «وقع».

قلت: وهل تشك بأنه كان وراء الحادث لعبة قذرة؟

- هل استرعى انتباهك يا هيستنغز أن بعضاً من حالات الوفاة في عائلة ليميسوريه كانت، لنقل، قابلةً أن تكون «مُرتّبة»؟ خذ مثلاً وفاة فنسنت ثم ذلك الصبي الطالب في معهد إيتون. إن حوادث البنادق غامضة دائماً. وإذا افترضنا أن ذلك الطفل وقع من النافذة وأدى الارتطام إلى وفاته، فكم يكون ذلك طبيعياً وبعيداً عن الشبهات؟ ولكن لماذا طفل واحد يا هيستنغز؟ من الذي يستفيد من موت الصبي الأكبر؟ أهو أخوه الأصغر ذو الأعوام السبعة؟ احتمال سخيف!

- إنهم ينوون التخلص من الطفل الآخر لاحقاً.

قلت ذلك رغم أنني لا أملك أية فكرة حول من عسى يكون «هُم» هؤلاء!

هزّ بوارو رأسه صُنعَ من لم يقتنع ثم قال متأملاً: التسمم الغذائي... إن من شأن مادة أتروبين أن تحدث أعراضاً مشابهة تماماً لذلك. نعم، توجد حاجة لوجودنا هناك.

رحبت بنا السيدة ليميسورييه بحرارة، ثم أخذتنا إلى غرفة مكتب زوجها وتركتنا معه. لقد تغير كثيراً منذ رأيته آخر مرة... تقوست كتفاه أكثر من أي وقت مضى، وعلت وجهه مسحة شحوب رمادية. وقد أصغى لبوارو وهو يشرح سبب وجودنا في المنزل، ثم قال أخيراً: كلامك يماثل تماماً الفطرة العملية السليمة. ابقَ على كل حال يا سيد بوارو. إنني أشكرك على حضورك، ولكن المكتوب مكتوب، وإن طريق الخاطئين لصعبة. نحن في عائلة ليميسورييه نعرف، ليس بوسع أحد منا أن ينجو من القدر.

أشار بوارو إلى شجرة اللبلاب التي نُشرت، ولكن بدا أن هوغو لم يتأثر بذلك كثيراً، وقال: لا أشك أنه بستاني مهمل. نعم، نعم، قد توجد أداة أو وسيلة، ولكن الغاية من خلفها واضحة، وسوف أقول لك ما يلي يا سيد بوارو: «لا يمكن تأخير الأمر طويلاً».

نظر إليه بوارو بإمعان وقال: لماذا تقول ذلك؟

هوغو: لأنني أنا نفسي مُقدَّر عليّ أن أموت. لقد زرت طبيباً في العام الماضي. إنني أعاني من مرض لا شفاء منه، لا يمكن تأخير النهاية كثيراً، ولكن قبل أن أموت سيخطف الموت رونالد. جيرالد هو الذي سيرث!

بوارو: وإن حدث أي شيء لابنك الآخر أيضاً؟

هوغو: لن يحدث له شيء... إنه ليس مهدداً.

أصر بوارو: ولكن إن حدث له شيء؟

هوغو: قريبي روجر هو الوريث التالي.

قطع حديثنا دخول رجل طويل القامة حسن الهيئة ذي شعر جعد أسمر محمرّ، ومعه حزمة أوراق.

هوغو: دعك من هذه الأوراق الآن يا غاردينر. ثم أضاف مُعرِّفاً: أقدم لكما سكرتيري، السيد غاردينر.

انحنى السكرتير، وتمتم بضع كلمات لطيفة ثم خرج. وبالرغم من نظرات الرجل المريحة إلاّ أنه كان فيه شيء منفر. قلت ذلك لبوارو عندما كنا نتمشى في الحدائق القديمة الجميلة معاً، وكان من دواعي دهشتي بعض الشيء أنه وافقني الرأي. قال: نعم، نعم يا هيستنغز، إنك على حق. أنا لم أرتح له، هيئته أجمل من اللازم! آه، ها هما الطفلان.

كانت السيدة ليميسورييه تتقدم نحونا ومعها طفلاها. كانا طفلين جميلين، الصغير منهما أسمر كوالدته، والكبير ذو شعر أسمر يميل إلى الحمرة، وقد صافحانا بشكل ممتاز، وسرعان ما تعلقا تماماً ببوارو. بعدها تم تعريفنا إلى الآنسة سوندرز التي اكتملت بها المجموعة، وهي امرأة ليس فيها علامات مميزة لوصفها بها.

تمتعنا بضعة أيام بإقامة لطيفة مريحة كنا فيها دائمي اليقظة والاحتراس، ولكن دون نتيجة. كان الطفلان يعيشان حياة هانئة طبيعية، ولم يبدُ أي خطأ. بعد مرور أربعة أيام على وصولنا جاء الرائد روجر ليميسورييه ليقيم هو أيضاً لفترة. كان قد تغير قليلاً، ولكنه بقي خليّ البال مرحاً كعهده، محافظاً على عادته القديمة في التعامل مع الأمور بمرح. كان واضحاً أنه أثيرٌ جداً لدى الصبيين اللذين رحبا بوصوله بصيحات الفرح، وسحباه مباشرة ليلعبا معه

لعبة «المحاربين الهنود» في الحديقة. وقد لاحظت أن بوارو تبعهم من بعيد دون أن يلاحظوه.

* * *

في اليوم التالي دُعينا جميعاً ومعنا الطفلان لشرب الشاي لدى الليدي كليغيت التي كان بيتها مجاوراً لبيت عائلة ليميسورييه. وقد اقترحت السيدة ذهابنا نحن أيضاً، ولكنها بدت مرتاحة بعض الشيء عندما رفض بوارو وأعلن أنه يفضل البقاء في البيت.

وفور خروج الجميع باشر بوارو عمله بشكل ذكرني بكلاب الصيد الذكية المدربة. أعتقد أنه لم يترك زاوية في المنزل إلاّ فتشها، ومع ذلك فقد قام بذلك بهدوء وبشكل منظم بحيث لا تثير حركاته أي انتباه. وبدا واضحاً أنه -في النهاية- ظل غير مقتنع. تناولنا الشاي على الشرفة أمام البيت مع الآنسة سوندرز التي لم تشملها الدعوة. قالت بصوتها الضعيف: سيستمتع الطفلان بالدعوة... آمل أن يتصرفوا بأدب، وألاّ يفسدوا مساكب الورد، أو يذهبا قرب النحل...

تجمد كوب الشاي على شفتي بوارو. بدا كرجل رأى شبحاً، ثم سأل بصوت كالرعد: النحل؟

الآنسة سوندرز: نعم يا سيد بوارو، نحل... ثلاث خلايا نحل. إن الليدي كليغيت فخورة جداً بنحلها...

صرخ بوارو ثانية: نحل؟

ثم قفز عن الطاولة، وشرع يمشي جيئة وذهاباً على الشرفة الأمامية ويداه على رأسه. ولم أستطع تخيل السبب الذي يدفعه إلى

الهياج بهذا الشكل لمجرد ذكر النحل.

في تلك اللحظة سمعنا صوت عودة السيارة، ووقف بوارو على عتبة الباب فيما كانت المجموعة تترجل من السيارة. صاح جيرالد بانفعال: لقد أصيب رونالد بلسعة.

السيدة ليميسوريه: ليست شيئاً يذكر، حتى إنها لم تتورم، وقد وضعنا عليها نشادراً.

بوارو: دعني أرى ذلك يا فتاي العزيز. أين هي؟

أجاب رونالد بشيء من الأهمية: هنا، في جانب عنقي، ولكنها لا تؤلم. قال لي أبي: "ابقَ ساكناً، توجد على رقبتك نحلة". وقفت ساكناً، فأبعدها عني، ولكنها لسعتني قبل ذلك، مع أنها لا تؤلمني في الواقع، كوخزة دبوس فقط، ولم أبكِ، لأنني أصبحت كبيراً وسأذهب إلى المدرسة في العام القادم.

تفحص بوارو عنق الفتى، ثم ابتعد ثانية. أمسكني من ذراعي وتمتم قائلاً: الليلة يا صديقي، الليلة لدينا أحداث صغيرة ستجري! لا تقل شيئاً... لأي كان.

رفض أن يفصح أكثر، وأمضيت الأمسية والفضول يأكلني. انسحب بوارو من المجموعة مبكراً، وسرعان ما حذوت حذوه. وعندما أصبحنا في الطابق العلوي أمسكني من ذراعي وأصدر تعليماته: لا تبدّل ملابسك. انتظر بعض الوقت، ثم أطفئ أنوار غرفتك وتعال إليّ هنا.

فعلت ذلك، ووجدته بانتظاري عندما ذهبت إليه. أمرني

بالصمت بإشارة منه، ثم تسللنا بهدوء إلى جناح غرف الأطفال. كان رولاند يشغل غرفة صغيرة خاصة به. دخلناها وأخذنا مواضعنا في أكثر الزّوايا ظلاماً. كان صوت تنفس الطفل ثقيلاً منتظماً.

همست لبوارو: لا شك أنه يغطّ في نوم عميق ثقيل؟

هزّ بوارو رأسه موافقاً وتمتم: إنه مخدَّر.

سألت: لماذا؟

- حتى لا يصرخ عند...

وعندما توقف فجأة سألته: عند ماذا؟

قال: عند وخزة إبرة تحت جلده يا صديقي! صه، لنتوقف عن الكلام، مع أني لا أتوقع حدوث شيء إلاّ بعد مرور بعض الوقت.

* * *

ولكن بوارو كان مخطئاً في هذا التوقع. فلم تكد تمضي عشر دقائق حتى فُتح الباب بهدوء، ودخل شخصٌ الغرفة. سمعت صوت نفس سريع عاجل. مشت الخطوات إلى السرير، ثم سمع بعدها صوت صلصلة مفاجئ. سقط ضوء كشافٍ يدوي صغير على الطفل النائم، وكان الممسك به ما يزال غير مرئي في العتمة. وضع الشخص الكشاف جانباً، وبيده اليمنى أخرج إبرة حقن، وتلمس عنق الصبي بيده اليسرى...

قفزنا -أنا وبوارو- في نفس اللحظة. تدحرج الكشاف على الأرض، وأخذنا نتصارع مع هذا الدخيل وسط الظلام. كان ذا قوة

هائلة، ولكننا تغلبنا عليه في النهاية. وصاح بوارو: أشعل الضوء يا هيستنغز، يجب أن أرى وجهه، رغم ظني أنني أعرف من هو.

وفكرت وأنا أتلمس طريقي بحثاً عن المصباح أنني أعرفه أنا أيضاً. كنت قد ارتبت للحظةٍ بالسكرتير، يدفعني إلى ذلك كرهي الباطن للرجل، ولكنني بتّ متأكداً الآن من أن الرجل الذي سعى للكسب من موت طفلين من أبناء عمومته هو الوحش الذي نلاحقه.

ارتطمت قدمي بالكشاف، فرفعته وسلطت ضوءه على الوجه الذي بدا ظاهراً تماماً... هوغو ليميسورييه، والد الصبيين!

وكاد الكشاف يقع من يدي وأنا أتمتم بصوت أجش: مستحيل...! مستحيل...!

أغمي على هوغو، فحملناه أنا وبوارو إلى غرفته ووضعناه في سريره. انحنى بوارو وانتزع برفق شيئاً من اليد اليمنى للرجل، ثم عرضه علي. كان ذلك إبرة حقن، فارتعدت وقلت: ماذا فيها؟ سم؟

- حامض الفورميك، كما يخيل إليّ.

- حامض الفورميك؟

- نعم، وقد تُستخلص هذه المادة من تقطير النمل؛ لقد كان كيميائياً كما تذكر. كان من شأن الوفاة أن تُعزا إلى لسعة النحلة.

- يا إلهي! يقتل ابنه هو! وأنت كنت تتوقع ذلك؟

هزّ بوارو رأسه بالإيجاب الكئيب وقال: نعم، إنه مجنون بالطبع. يخيل إليّ أن تاريخ الأسرة قد أصبح عنده مساً من جنون. إن توقه الحاد لوراثة أملاك العائلة دفعه إلى ارتكاب تلك السلسلة الطويلة

من الجرائم. ربما خطرت الفكرة له لأول مرة عندما كان يسافر إلى الشمال في تلك الليلة مع فنسنت. لم يستطع تحمل فكرة انكشاف زيف النبوءة أو اللعنة. كان ابن رونالد قد مات أساساً، وكان رونالد نفسه رجلاً يُحتضر... إنها أسرة تشكو من العلل. وقد رتب حادث البندقية، ثم احتال لموت شقيقه جون بنفس هذه الطريقة، وهذا ما لم أشك فيه حتى الآن، أي بحقن حامض الفورميك في الوريد الوداجي في الرقبة. وقد تحقق طموحه عندها، وأصبح سيداً على هكتارات العائلة. ولكن انتصاره كان قصير العمر، إذ اكتشف أنه يعاني من مرض عضال. وكان لديه ذلك الهاجس المجنون... أن الابن البكر في عائلة ليميسورييه لا يمكنه أن يرث. وأشك بأن حادث السباحة كان بسببه، فهو الذي شجع الطفل على المضي عميقاً في عرض البحيرة. وحين فشل ذلك قام بنشر شجرة اللبلاب، وبعد ذلك سمّ طعام الطفل.

تمتمت مرتعداً: يا للوحشية! ويا لهذا التخطيط الذكي!

بوارو: نعم يا صديقي، لا شيء يدهش أكثر من العقل الاستثنائي للمجانين! اللهم إلا ما يكون من الهوس الاستثنائي للعاقلين! أتصور أنه لم يتجاوز تماماً حدود العقل إلاّ مؤخراً، فقد كان في جنونه منهجٌ في البداية.

- وأنا الذي كنت أشك في روجر... ذلك الشاب الرائع.

- كان ذلك افتراضاً طبيعياً يا صديقي؛ فنحن نعرف بأنه سافر هو الآخر إلى الشمال مع فنسنت في تلك الليلة، ونعرف أيضاً بأنه كان الوريث التالي بعد هوغو وأطفاله. ولكن افتراضنا لم تدعمه الوقائع، فشجرة اللبلاب نُشرت حين لم يكن في البيت سوى رونالد

الصغير، في حين أن من مصلحة روجر أن يختفي كلا الطفلين. وبنفس الاتجاه، فإن طعام رونالد فقط هو الذي سُمّم. واليوم عندما عادوا إلى البيت ووجدت أنه لم يكن ما يؤيد حقيقة أن رونالد قد لسعته نحلة إلاّ رواية والده عن ذلك، تذكرت حالة الوفاة الأخرى التي قيل إنها نتجت عن لسعة زنبور، وعرفت السر!

* * *

توفي هوغو ليميسورييه بعد بضعة أشهر في مصح خاص كان قد نقل إليه. وقد عادت أرملته لتتزوج ثانية بعد عام من السيد جون غاردينر السكرتير ذي الشعر الأسمر المحمرّ. وورث رونالد أطيان والده الواسعة واستمر في ازدهاره.

قلت لبوارو: حسناً، حسناً، وهمٌ آخر يتبدد. لقد فنّدت بنجاح كبير أسطورة لعنة أسرة ليميسورييه.

أجاب بوارو وهو غارق في التفكير: إنني لأعجب وأتساءل.. أعجب كثيراً في الواقع.

- ما الذي تعنيه؟

- يا صديقي، سأجيبك بكلمة مهمة واحدة: أحمر!

تساءلت وأنا أخفض صوتي إلى مستوى همسة هلع: دم؟

بوارو: خيالك ميلودرامي دوماً يا هيستنغز! إنني أشير إلى شيء أكثر واقعية بكثير، إلى لون شعر رونالد ليميسورييه الصغير.

* * *

المنجم المفقود

وضعت دفتر شيكاتي وتنهدت قائلاً: أمر غريب، لا يبدو أن العجز في حسابي المصرفي يتناقص أبداً.

قال بوارو: أَوَلا يقلقك ذلك؟ لو كان في حسابي عجز لما غمض لي جفن طَوال الليل.

أجبته قائلاً: أحسب أن حساباتك آمنة مريحة!

قال بوارو بشيء من الرضا عن الذات: أربعمئة وأربعة وأربعون جنيهاً وأربعة بنسات. رقم رائع، أليس كذلك؟

- لا بد أن في ذلك حسن تصرف من مدير مصرفك. واضح أنه يعرف حبك لتناسق التفصيلات وتوازنها. ما رأيك باستثمار قسم من أموالك، ولنقل ثلاثمئة جنيه، في حقول بوركيوباين النفطية؟ إن النشرة الدعائية لهذا المشروع، والتي نشرتها صحف اليوم، تقول إنهم سيوزعون أرباحاً تصل إلى مئة بالمئة في العام القادم.

قال بوارو وهو يهز رأسه رافضاً: أنا لا أدخل مثل هذه المشاريع؛ إذ لا أحب تلك المجازفات المثيرة. ما يروق لي هو

الاستثمارات الآمنة العاقلة: الإيرادات العقارية، السندات الحكومية المضمونة... وغير ذلك مما يسمى بتحويلات الأسهم.

- ألم تُقدِم أبداً على استثمار ينطوي على مجازفة؟

أجاب بوارو بحدة: نعم يا صديقي، لم أُقدم على ذلك. والأسهم الوحيدة التي أملكها من ذلك النوع غير مضمون الأرباح لا تعدو أن تكون أربعة عشر ألف سهم في «مناجم بورما المتحدة».

سكت بوارو كمن ينتظر تشجيعاً فاستعجلتُه قائلاً: نعم؟

- ولم أدفع أموالاً نقدية مقابلها... كلا، بل كانت مكافأة لي على تمرين أجريته لخلايا دماغي الرمادية. أتحب أن تسمع القصة؟

- بالطبع أحب.

- تقع تلك المناجم في المناطق الداخلية من بورما على بعد نحو مئتي ميل من رانغون. وقد اكتشفها الصينيون في القرن الخامس عشر واستغلوها حتى تم التخلي عنها أخيراً في عام ١٨٦٨. وقد استخرج الصينيون فلزات فضة الرصاص الغنية من الجزء العلوي من المنجم وأذابوها لاستخلاص الفضة وحدها، تاركين كميات هائلة من الخبث والشوائب الغنية بالرصاص. وسرعان ما تم اكتشاف ذلك بالطبع عندما تم القيام بأعمال تنقيب في بورما. ولكن بما أن المناجم قد أصبحت مليئة بالماء والطين فإن كل المحاولات للعثور على مصدر الفلزات باءت بالفشل. وقد أرسلت الشركات العديد من الفرق، وحفرت هذه الفرق مناطق واسعة، ولكن ذلك الكنز القيم بقي عصيّاً عليهم. ولكن ممثلاً لإحدى الشركات وقع على أثرٍ لعائلة

صينية كان يُفترض أنها ما تزال تحتفظ بسجل عن حالة المناجم. وكان رب العائلة الحالي رجلاً يدعى وو لينغ.

هتفت قائلاً: يا له من فصل رائع من فصول المغامرات الرومانسية التجارية!

- ألا تراه كذلك؟ إن بوسع المرء -يا صديقي- أن يحصل على مغامرات رومانسية دون الحاجة إلى شقراوات بارعات الحسن...

قلت بسرعة: أكمل القصة.

- حسناً يا صديقي. تم اللجوء إلى وو لينغ هذا، وقد كان تاجراً محترماً يحظى بتقدير واسع في المحافظة التي يعيش فيها. وقد اعترف فوراً بأنه يملك الوثائق المطلوبة، وكان مستعداً تماماً للتفاوض على بيعها، ولكنه رفض التعامل مع أحدٍ أقل من مديري الشركة شخصياً. وأخيراً تم الاتفاق على أن يقوم برحلة إلى إنكلترا ليقابل مديري إحدى الشركات المهمة.

وقد قام وو لينغ برحلته إلى إنكلترا على متن باخرة تسمى «أسونتا»، ورست الباخرة في ساوثهامبتن في صباح يوم من أيام تشرين الثاني تميز بشدة البرودة وكثافة الضباب. وقد سافر أحد المديرين -واسمه السيد بيرسن- إلى ساوثهامبتن لاستقبال الباخرة، ولكن القطار المتجه إلى ساوثهامبتن تأخر كثيراً بسبب الضباب، ولم يصل السيد بيرسن إلاّ بعد أن ترك وو لينغ الباخرة واستقل قطاراً خاصاً متجهاً إلى لندن. وقد عاد السيد بيرسن إلى المدينة منزعجاً بعض الشيء إذ لم يكن يعلم أين ينوي الصيني أن يقيم في لندن، ولكن مكاتب الشركة تلقت اتصالاً من الرجل في وقت لاحق من

ذلك اليوم قال فيه إنه يقيم في فندق راسل سكوير، وإنه يشعر بوعكة من السفر، ولكنه أعلن أنه قادر تماماً على حضور اجتماع مجلس الإدارة في اليوم التالي.

وقد تم الاجتماع في الساعة الحادية عشرة. وعندما بلغت الساعة الحادية عشرة والنصف دون أن يأتي وو لينغ اتصل السكرتير بفندق راسل سكوير. وجواباً على تساؤلاته قيل له إن الرجل الصيني قد خرج مع صديق له في نحو العاشرة والنصف. بدا واضحاً أنه خرج وفي نيته القدوم إلى الاجتماع، ولكن انقضى الصباح دون أن يظهر. كان ممكناً -بالطبع- أن يكون قد ضل طريقه باعتباره لا يعرف لندن، ولكن الليل أتى وكاد ينقضي دون أن يعود الرجل إلى الفندق. وهكذا لجأ بيرسن -وقد استبد به القلق الآن- إلى وضع القضية في أيدي الشرطة. وفي اليوم التالي لم يبدُ أي أثر للرجل المفقود، ولكن ما أن حل مساء اليوم الذي تلا ذلك حتى تم العثور على جثة في نهر التيمز ثبت أنها جثة الصيني المسكين. ولم توجد مع الجثة ولا بين أمتعة الرجل في الفندق أية آثار للأوراق المتعلقة بالمنجم.

عند هذه النقطة يا صديقي تم استدعائي لهذه القضية بعد أن زارني السيد بيرسن. ورغم أن السيد بيرسن كان مصدوماً جداً لوفاة وو لينغ، إلاّ أن اهتمامه كان منصباً على استعادة الأوراق التي كانت السبب في زيارة الصيني لإنكلترا. أما اهتمام الشرطة الأساسي فقد كان منصباً بالطبع على الإمساك بالقاتل، ولم تكن الأوراق لتشكل أكثر من اهتمام ثانوي لهم. وقد أراد مني السيد بيرسن ان أتعاون مع الشرطة في نفس الوقت الذي أمثل فيه مصالح الشركة.

وافقت مبدياً كل استعداد لذلك. وكان واضحاً أن أمامي مجالين مفتوحين للبحث: أحدهما أن أبحث بين موظفي الشركة ممن كانوا يعرفون بقدوم الصيني، والثاني أن أبحث بين المسافرين على متن الباخرة الذين ربما كانوا مطلعين على مهمته. وقد بدأت بهذا الخيار الأخير باعتباره مجالَ بحثٍ أقلّ اتساعاً وتشعباً، وهناك صادفت المفتش ميلر الذي كان مسؤولاً عن القضية، وهو رجل يختلف تماماً عن صديقنا جاب؛ فهو مغرور سيء الخلق لا يمكن تحمله أبداً. وقد حققنا مع ضباط الباخرة فلم نجد لديهم الكثير مما يمكن أن يقال؛ فقد كان السيد وو لينغ متكتماً حول زيارته، ولم يكن وثيق الصلة إلاّ مع اثنين من المسافرين الآخرين أحدهما رجل أوروبي عركته السنون يبدو أن له سمعة سيئة ويدعى داير، والآخر موظف مصرف شاب اسمه تشارلز ليستر كان عائداً من هونغ كونغ. وقد كنا محظوظَيْن بالعثور على صور لكلا الرجلين. وبدا واضحاً وقتها أنه إذا ما قدر لأحد الرجلين أن يكون متورطاً في هذا الأمر فإنه سيكون داير؛ فقد كان يُعرف عنه تورطه في عصابة من الأشقياء الصينيين، وكان -عموماً- موضع شبهة أكثر من غيره.

كانت خطوتنا التالية زيارة فندق راسل سكوير، حيث عرضنا على موظفيه صورة وو لينغ فتعرفوا إليه فوراً. ثم عرضنا عليهم صورة داير ولكنّ عامل الصالة أكد جازماً أن هذا الرجل ليس نفسه الذي جاء إلى الفندق في ذلك اليوم المشؤوم، الأمر الذي شكل خيبة أمل لنا. وبعد أن كدنا نخرج استدركت الأمر وأخرجت صورة ليستر، ولدهشتي تعرف إليها العامل فوراً وقال مؤكداً: نعم يا سيدي، ذلك هو الرجل الذي أتى في العاشرة والنصف وطلب السيد وو لينغ، وبعدها خرج معه.

وهكذا وجدنا القضية تتقدم. كانت خطوتنا التالية مقابلة السيد تشارلز ليستر. وقد قابَلَنا الرجل بمنتهى الصراحة، وحزن حزناً شديداً لسماعه بنبأ وفاة الصيني المفاجئة، ووضع نفسه كلياً تحت تصرفنا. كانت قصته كالتالي: قال إنه زار السيد وو لينغ في الفندق في الساعة العاشرة والنصف، وذلك بناء على ترتيب مسبق معه. ولكن السيد وو لينغ لم يكن هناك، بل جاء خادمه ليقول إن سيده قد اضطر للخروج، وعرض الخادم اصطحاب الشاب إلى مكان وجود سيده حالياً. وقد وافق ليستر وهو لا يشك بشيء، فقام الخادم الصيني بطلب سيارة أجرة انطلقت بهما لبعض الوقت باتجاه الميناء. وفجأة ارتاب ليستر بالأمر فأوقف السيارة وخرج منها دون الالتفات إلى احتجاجات الخادم. وقد أكد لنا أن ذلك هو كل ما يعرفه.

أظهرنا له الاقتناع، وشكرناه، وخرجنا. ولكن سرعان ما تبين لنا أن قصته لم تكن دقيقة تماماً؛ إذ لم يكن لدى السيد وو لينغ أي خادم، لا في السفينة ولا في الفندق. وفوق ذلك فقد تقدم سائق سيارة الأجرة التي أقلت الرجلين إلى الشرطة للإدلاء بشهادته. وتبين أن ليستر كان أبعد ما يكون عن النزول من السيارة في الطريق، فقد مضى -هو والصيني الآخر- إلى سكنٍ كريه في منطقة لايمهاوس في قلب الحي الصيني تماماً. وكان ذلك المكان معروفاً إلى حدٍ بعيد باعتباره من أسوأ أوكار تعاطي الأفيون. وقد دخل الرجلان هناك، وبعد نحو ساعة خرج الرجل الإنكليزي -الذي تعرف إليه السائق من الصورة- بمفرده من الوكر. وكان الرجل يبدو شديد الشحوب، وقد طلب من السائق إيصاله إلى أقرب محطة لقطار الأنفاق.

تم إجراء تحريات حول أوضاع تشارلز ليستر، وتبين أنه، رغم

شخصيته الممتازة، غارق بالديون، وأن له ولعاً سرياً بالقمار. أما داير فلم يتركه الشرطة يغيب عن أنظارهم بالطبع؛ فقد بدا احتمال ضئيل في أن يكون قد تقمص دور الرجل الثاني، ولكن ثبت أن هذه الفكرة تفتقر إلى أي أساس؛ إذ كان لديه عذر غياب لا يمكن دحضه عن مسرح الأحداث طوال ذلك اليوم. وقد أنكر مالك وكر المخدرات طبعاً كل شيء بشيء من التضامن الشرقي، قائلاً إنه لم ير تشارلز ليستر أبداً، ولم يأت رجلان لبيته في ذلك الصباح. وأكد أن الشرطة مخطئون، وأن محله لا يقدم أية مخدرات.

ولكن إنكار صاحب الوكر لم ينفع تشارلز ليستر كثيراً؛ فقد اعتُقل بتهمة قتل وو لينغ. وقد تم تفتيش حاجياته، ولكن لم يُعثر على أية أوراق تتعلق بالمنجم. كما تم أيضاً حجز صاحب البيت، ولكن غارة مفاجئة قام بها الشرطة على بيته لم تسفر عن أية نتيجة. ولم يتم العثور على أي أثر للأفيون يمكن أن يشبع حماسة الشرطة.

في هذه الأثناء كان صديقي السيد بيرسن في حالة انفعال شديدة. أخذ يذرع غرفتي جيئة وذهاباً وهو يدمدم معبراً عن حزنه العميق. ظل يلح قائلاً: ولكن لا بد أن لديك فكرةً ما يا سيد بوارو... لا بد أن لديك بعض الأفكار!

أجبته بحذر: لدي أفكار بالتأكيد، وهذه هي المشكلة... إن لدى المرء الكثير من الأفكار، ولذلك فهي تقوده في اتجاهات مختلفة.

- مثلاً؟

- مثلاً... سائق سيارة الأجرة. لا دليل لنا إلاّ أقواله على أنه أخذ الرجلين إلى ذلك البيت. هذه إحدى الأفكار. ثم: هل كان

ذلك البيت هو حقاً الذي ذهبا إليه؟ ماذا لو افترضنا أنهما تركا سيارة جرة تنتظر هناك ودخلا عبر ذلك البيت من بوابته الأمامية ليغادراه من بوابة أخرى إلى مكان آخر؟

بدا أن هذه الفكرة أثارت السيد بيرسن، فقد هتف قائلاً: ولكن، ألا تفعل شيئاً باستثناء الجلوس والتفكير؟ ألا نستطيع فعل شيء؟

كان السيد بيرسن ذا مزاج نافد الصبر. قلت له بأنفة: سيدي، ليس هيركيول بوارو من يذهب ليتراكض في تلك الشوارع المليئة بالشرور كالكلاب الضالة. اهدأ، فعملائي يقومون بواجباتهم.

في اليوم التالي كانت لدي أخبار. فالرجلان سبق ومرا من ذلك البيت بالفعل، ولكن هدفهما الحقيقي كان الذهاب إلى مطعم قريب من النهر. وقد شوهدا يعبران من هناك، وخرج ليستر لاحقاً بمفرده.

ولك أن تتخيل -يا هيستنغز- الفكرة التي سيطرت على بيرسن عندها! إذ لم يعد يقنعه شيء إلاّ ذهابنا نحن شخصياً لذلك المطعم وإجراء تحرياتنا هناك. ناقشته وتوسلت إليه، ولكنه ظل مصرّاً. قال إنه سيتنكر، بل بلغ به الأمر أن... أن يطلب مني أنا... إنني أكاد أخجل من ذكر ذلك. طلب مني أن أحلق شاربي! نعم، بهذه البساطة! أوضحت له أن هذه فكرة سخيفة، فالمرء لا يضيع شيئاً جميلاً عبثاً. وفوق ذلك، أليس من شأن رجل بلجيكي ذي شارب أن تعجبه رؤية الحياة وتدخين الأفيون شأنه في ذلك شأن حليقي الشوارب؟

وأخيراً أذعن فيما يخص هذه النقطة، ولكنه بقي مصراً على مشروعه. ثم جاءني في ذلك المساء بهيئة.. يا إلهي ما أغربها! كان يرتدي سترة بالغة الغرابة، وذقنه متسخ طويل الشعر، وقد وضع

وشاحاً مقرفاً ذا رائحة كريهة. تخيل أنه كان مستمتعاً بحاله! حقاً إن الإنكليز مجانين! ثم قام ببعض التغييرات على مظهري أنا، وسمحتُ له بذلك، إذ هل يستطيع المرء مجادلة مجنون؟ وفي النهاية خرجنا... أكان بوسعي تركه يخرج بمفرده، طفلاً ارتدى زيه وخرج ليمثل دوره؟

قلت ليوارو: لم يكن بوسعك تركه بالطبع.

- حسناً... وصلنا هناك. تحدث السيد بيرسن بلكنة إنكليزية غريبة، وقدم نفسه باعتباره بحاراً، وتحدث بلغة البحارين ومفرداتهم التي لم أفهم منها شيئاً. كان المكان عبارة عن غرفة صغيرة واطئة السقف فيها الكثير من الصينيين. أكلنا وجبات غريبة الطعم. آه، يا لمعدتي. ثم جاءنا مالك المطعم -وهو صيني ذو ابتسامات شريرة- وقال بلكنته الصينية: "لعلكم لم تحبوا الطعام هنا أيها السادة، وقد جئتم لأمر تحبونه أكثر من الطعام. أتريدون تدخين الغليون؟". وركلني السيد بيرسن زكلة قوية من تحت الطاولة (وكان يرتدي حذاء البحارة أيضاً!) ثم قال: "لا بأس عندي بذلك يا جون. خذنا إلى هناك". ابتسم الصيني وأخذنا من أحد الأبواب إلى قبو، ثم عبر بنا فتحة في أرضية غرفة حيث نزلنا بضع درجات، ثم صعدنا ثانية إلى غرفة مليئة بالأرائك والوسائد المريحة جداً. وكانت تلك أفضل لحظات في الأمسية. أحضروا لنا غلايين الأفيون وجهزوها، وتظاهرنا نحن أننا ندخن، ثم تظاهرنا بالنوم والسباحة في الأحلام. ولكن عندما أصبحنا بمفردنا دعاني السيد بيرسن بصوت خافت، ثم بدأ فوراً بالزحف على طول أرض الغرفة. ذهبنا إلى غرفة أخرى فيها أناس آخرون نيام، وهكذا حتى سمعنا رجلين يتكلمان. وقفنا خلف

ستارة وأصغينا لحديثهما، وكان الحديث عن وو لينغ. قال الأول: "ماذا عن الأوراق؟"، أجاب الآخر (وكان صينياً): "لقد أخذها السيد ليستر. قال إنه سيضعها في مكان أمين لا يصل إليه الشرطة". قال الصوت الأول: "ولكنه اعتُقل"، فأجابه صاحبه: "سيطلق سراحه؛ فالشرطة غير متأكدين من أنه هو الذي أخذها". وجرى كلام آخر كثير على هذا المنوال، ثم بدا واضحاً أن الرجلين قادمان باتجاهنا فأسرعنا عائدين إلى أرائكنا. بعد مضي بضعة دقائق قال بيرسن: "من الأفضل أن نخرج من هنا... ليس هذا بالمكان الصحي"، وأجبته قائلاً: "أنت على حق يا سيدي. لقد قمنا بما يكفي من التمثيل". نجحنا في التخلص بشكل جيد بعد أن دفعنا بسخاء مقابل تدخيننا. وما أن خرجنا من المنطقة حتى سحب بيرسن نفساً عميقاً وقال: "أنا سعيد لتخلصنا من هذا المكان، ولكن التأكد من الحقائق أمر يستحق العناء". وافقته قائلاً: "إنه يستحق فعلاً. ويخيل لي أننا لن نجد صعوبة في العثور على ما نريد... بعد تمثيلية هذا المساء".

ثم أنهى بوارو كلامه فجأة بالقول: وبالفعل لم نجد أية صعوبة أبداً.

بدت هذه النهاية المفاجئة غريبة إلى حدٍ جعلني أحدق إليه. سألته: ولكن... أين كانت الوثائق؟

– في جيبه... بكل بساطة.

– في جيب من؟

– في جيب بيرسن طبعاً!

ثم لاحظ مقدار حيرتي فقال بلطف: ألم تفهمها بعد؟ لقد كان السيد بيرسن غارقاً في الديون مثل تشارلز ليستر، وكان مثله أيضاً مولعاً بالقمار. وقد خطرت له فكرة سرقة الأوراق من الرجل الصيني، فاستقبله بالفعل في ساوثهامبتن، وجاء معه إلى لندن وأخذه مباشرة إلى منطقة لايمهاوس. كان الضباب كثيفاً في ذلك اليوم، ولم يكن من شأن الصيني أن يلاحظ إلى أين يذهب. ويخيل لي أن السيد بيرسن اعتاد تعاطي المخدرات هناك، وله -بالنتيجة- بعض الصداقات الغريبة في ذلك المكان. لا أظنه كان يقصد القتل. فقد كانت فكرته هي أن يقوم أحد الصينيين بتمثيل دور وو لينغ وقبض المال مقابل الوثائق. إلى هذا الحد كانت الأمور على ما يرام! ولكن كان من الأبسط كثيراً -بالنسبة للعقل الشرقي- قتل وو لينغ وإلقاء جثته في النهر، وقد اتبع شركاء بيرسن الصينيون طرقهم الخاصة دون استشارته. تخيل عندها مقدار رعب السيد بيرسن؛ إذ ربما كان أحدٌ قد رآه في القطار مع وو لينغ... وجريمةُ القتل تختلف تماماً عن جنحة اختطاف بسيطة.

كان خَلاصُه متوقفاً على الصيني الذي يقوم بدور وو لينغ في فندق راسل سكوير. لو أن الجثة فقط لا تُكتشف بسرعة! ربما كان وو لينغ قد أخبره بأن تشارلز ليستر سيأتي لزيارته في الفندق، وقد رأى بيرسن في ذلك فرصة ممتازة لإبعاد الشكوك عنه؛ إذ أن تشارلز ليستر سيكون آخر من يُشاهد مع وو لينغ. وقد تلقى الصيني الذي يمثل دور لينغ أوامر تقضي بأن يقدم نفسه لليستر باعتباره خادم السيد وو لينغ، وبأن يحضره بأقصى سرعة ممكنة إلى لايمهاوس. والأرجح أنهم قدموا له هناك شراباً، والأرجح أن الشراب كان يحتوي على

مخدر مناسب، وعندما يخرج ليستر بعد ساعة من ذلك سيكون لديه انطباع غائم غامض جداً عما حدث. وقد نجح ذلك إلى حدٍ جعل ليستر يفقد أعصابه بمجرد علمه بوفاة وو لينغ، بحيث نفى وصوله إلى لايمهاوس أبداً.

وقد كان -في ادعائه هذا- يخدم مصلحة بيرسن دون أن يدري. ولكن هل اكتفى بيرسن بذلك؟ كلا... فقد أقلقه سلوكي، فعزم على استكمال القضية ضد ليستر. وهكذا رتب تمثيلية تنكر متقنة، وكان يُفترض بي أن أنخدع بها تماماً. ألم أقل قبل قليل إنه كان طفلاً يمثل دوراً؟ حسناً، لعبت أنا دوري، ومضى هو إلى بيته فرحاً. ولكن ما أن حل الصباح حتى وصل المفتش ميلر إلى عتبة بيته، وقد وُجدت الأوراق عنده وانتهت اللعبة. ولا بد أنه ندم بمرارة على سماحه لنفسه بتمثيل دور المهرج على هيركيول بوارو! وفي النهاية تم إرجاع الفضل كله إلى المفتش ميلر!

- هذا ظلم كبير.

- نعم، ولكنني نلت ما عوضني عن ذلك. فقد كافأني مديرو الشركة بأربعة عشر ألفاً من أسهمها كتعويض بسيط عن خدماتي. ليس تعويضاً سيئاً، أليس كذلك؟ ولكن عندما تريد استثمار أموال فإنني أرجوك يا هيستنغز أن تلزم جانب الاستثمارات الرصينة. إن ما تقرأه في الصحف قد لا يكون صحيحاً، فقد تجد في مديري شركة بوركيوباين الكثير من أمثال صاحبنا بيرسن!

* * *

لغز قطار بلايموث السّريع

صعد أليك سيمبسن، الضابط في البحرية الملكية، من رصيف محطة نيوتن آبوت إلى مقصورة من مقصورات الدرجة الأولى في قطار بلايموث السريع، وتبعه حمّال يحمل حقيبة ثقيلة. كان الحمال يوشك أن يرفع الحقيبة لوضعها على رف المقصورة، ولكن البحّار الشاب أوقفه قائلاً: كلا، دعها على المقعد، سأضعها أنا فيما بعد. خذ هذا مقابل تعبك.

انسحب الحمال بعد أن تلقى إكرامية سخية وهو يقول: شكراً يا سيدي.

أُغلقت الأبواب، وصاح صوت جهوري: "التوجه إلى بلايموث فقط. على الراغبين بالتوجه إلى توركيه تغيير القطار. بلايموث هي المحطة القادمة". ثم دوت صافرة القطار، وتحرك ببطء خارجاً من المحطة.

كان الملازم الأول سيمبسن وحده في المقصورة، وكان هواء كانون الأول بارداً، فأغلق النافذة. بعد ذلك تشمّم بأنفه وقطب جبينه متسائلاً: ترى ما هذه الرائحة! إنها تذكّره بتلك الفترة التي قضاها في

المستشفى، والعملية التي أجراها لساقه. نعم، رائحة الكلوروفورم، تلك هي الرائحة!

فتح النافذة ثانية، مستبدلاً بمقعده مقعداً يعطي ظهره لمحرك القطار. أخرج من جيبه غليوناً وأشعله. وجلس برهة ساكناً ينظر إلى عتمة الليل من خلال النافذة ويدخن. وأخيراً نهض وفتح الحقيبة، وأخرج منها بعض الصحف والمجلات، ثم أغلقها مرة أخرى، وسعى إلى دفعها تحت المقعد المقابل له، ولكن دون نجاح، فقد أعاقتها عقبة ما. دفعها بقوة أكبر وقد بدأ صبره بالنفاد، ولكنها بقيت مكانها، وبقي نصفها خارجاً على الأرضية أمامه.

تمتم مع نفسه: "ما هذا... لماذا لا تدخل هذه الحقيبة؟". سحبها فأخرجها من تحت المقعد تماماً، ثم انحنى مستطلعاً ما تحت المقعد المقابل.

بعد لحظة من ذلك دوت صرخة في ظلام الليل، وتوقف القطار الضخم توقفاً اضطرارياً امتثالاً لحبل اتصال الطوارئ الذي شُدّ بعنف.

* * *

قال بوارو: يا صديقي، أعرف أنك أصبحت مهتماً كثيراً بلغز قطار بلايموث السريع. اقرأ هذه.

أخذتُ الملاحظة المكتوبة التي قذفها لي عبر المائدة، وقد كانت مقتضبة ومركزة:

سيدي العزيز،

سأكون ممتناً لو تفضلت بزيارتي في أقرب وقت يلائمك.

المخلص: إيبنزر هاليدي

لم تتضح في عقلي الصلة بين هذه الرسالة وموضوع اللغز، فتطلعت إلى بوارو متسائلاً. وجواباً على نظراتي، أخذ بوارو الصحيفة وقرأ بصوت عالٍ:

اكتشافٌ مثير تم أمس. فقد عثر ضابط بحرية شاب عائد إلى بلايموث تحت مقعدٍ في مقصورته على جثة امرأة طعنت في قلبها. وقد شد الضابط فوراً حبل الطوارئ، وأُوقف القطار. ولم يتم -حتى الآن- التعرف إلى هوية المرأة التي كانت في نحو الثلاثين من عمرها وترتدي ثياباً فاخرة.

ثم أضاف بوارو: وفيما بعد تم نشر ما يلي:

المرأة التي وجدت مقتولةً في قطار بلايموث السريع تم التعرف إليها، وهي زوجة روبرت كارينغتن.

هل فهمت الآن يا صديقي؟ إن لم تكن فهمت فسأضيف ما يلي: زوجة روبرت كارينغتن كان اسمها قبل الزواج فلوسي هاليدي، ابنة العجوز هاليدي، ملك صناعة الفولاذ في أمريكا.

- وقد أرسل في طلبك؟ رائع!

- لقد قدمتُ له خدمة صغيرة في الماضي... قضية تتعلق بسندات مالية. ومرة عندما كنت في باريس في زيارة عمل، دلني

البعض على الآنسة فلوسي. يا لتلك النزيلة الرائعة! وقد نالت مهراً رائعاً أيضاً! ذلك سبّب كثيراً من المشكلات... كادت أن تقع في علاقة سيئة.

- كيف كان ذلك؟

- بسبب رجل يدعى الكونت دولا روشيفو، شخص سيء جداً، مغامر بكل ما تعنيه الكلمة، ممن يعرفون كيف يستميلون فتاة رومانسية شابة. ولحسن الحظ فإن والدها علم بالأمر في وقت مبكر، فأعادها إلى أمريكا على وجه السرعة. وقد سمعتُ بزواجها بعد عدة سنوات، ولكنني لا أعرف شيئاً عن زوجها.

- همم، إن روبرت كارينغتن لم يكن في وضع مريح بكل الاعتبارات. فقد بدّد أمواله تماماً على السباقات، وأتخيل أن دولارات العجوز هاليدي قد جاءت في وقتها تماماً. أعتقد أنه كان من الصعب على وغدٍ جميل الهيئة، معسول اللسان، عديم الضمير تماماً، أن يجد شريكة حياة له!

- آه، يا للسيدة المسكينة الشابة!

- أتخيل أنه أوضح تماماً ومنذ البداية بأن انجذابه كان لمالها، وليس لها هي. وأعتقد أنهما انفصلا بعد الزواج مباشرة. وقد سمعت مؤخراً شائعات تقول إن انفصالاً قانونياً محدداً سيتم بينهما.

- ليس العجوز هاليدي بالمغفل، وسيضع أموالها في حرزٍ مكين.

- بالتأكيد. وعلى كل حال فإنني أعرف على وجه اليقين بأن روبرت مفلس تماماً كما يقال.

- أهاه! يجوز...

- يجوز ماذا؟

- يا صديقي الطيب، لا تركب على ظهري بهذا الشكل! أعرف أنك مهتم بالموضوع. تعال ورافقني لزيارة السيد هاليدي... يوجد موقف لسيارات الأجرة عند المنعطف.

* * *

كانت بضع دقائق كافية لوصولنا إلى ذلك المنزل الفخم في منطقة بارك لين الذي استأجره القطب الأمريكي. أُدخلنا إلى المكتبة، وسرعان ما جاءنا رجلٌ ضخم بدين ذو عينين حادتين وذقن يوحي بالجرأة والإقدام.

قال السيد هاليدي: السيد بوارو؟ أعتقد أنني لست بحاجة لأن أخبرك بسبب حاجتي إليك. لقد قرأتَ الصحف، ولست أنا ممن يدَعون العشب ينبت تحت أقدامهم مماطلة وعجزاً. وقد سمعت بالمصادفة أنك في لندن، وتذكرتُ العمل الرائع الذي أديته لي بخصوص تلك السندات... إنني لا أنسى شيئاً. لديّ أفضل ضباط سكوتلانديارد ولكن أريد أن يكون لي محققي الخاص أيضاً. المال ليسَ مشكلة... لقد جنيت كل الأموال من أجل فتاتي الصغيرة... أما وقد ماتت الآن، فسأصرف آخر سنت لديّ لأمسك بذلك الوغد اللعين الذي قام بهذه الجريمة! أتفهمني؟ إنني أعتمد عليك أنت في العثور على المجرم.

انحنى بوارو مجاملة وقال: موافق يا سيدي، ومما يزيد

استعدادي أنني رأيت ابنتك في باريس عدة مرات. والآن سأطلب منك أن تخبرني بظروف رحلتها إلى بلايموث، وأية تفصيلات أخرى قد تبدو لك ذات علاقة بالقضية.

- حسناً. بداية أقول: إنها لم تكن ذاهبة إلى بلايموث، بل كانت ذاهبة لحضور حفلة منزلية في آفون ميدكورت، وهو منزل دوقة سوانسي. وقد غادرت لندن في قطار الساعة الثانية عشرة وأربع عشرة دقيقة المنطلق من بادينغتن، ووصلت إلى بريستول -حيث ينبغي أن تبدل القطار- في الثالثة إلاّ عشر دقائق. إن القسم الأكبر من قطارات بلايموث السريعة تمر طبعاً عبر ويست بيري ولا تقترب من بريستول أبداً، ولكن قطار الثانية عشرة وأربع عشرة دقيقة يقوم برحلة دون توقف إلى بريستول، ويقف في كل من ويستن وتارنتن وإيغزيتر ونيوتن آبوت. وقد سافرت ابنتي وحدها في مقصورتها التي حجزت حتى بريستول، فيما كانت خادمتها في مقصورة الدرجة الثالثة في العربة التالية من القطار.

هز بوارو رأسه، ومضى السيد هاليدي قائلاً: كان يُنتظر أن تكون حفلة أفون ميد كورت حفلة بهيجة جداً يتخللها الرقص، وتبعاً لذلك فقد أخذت ابنتي معها كل جواهرها تقريباً، وربما بلغت قيمتها ما يقرب من مئة ألف دولار!

قاطعه بوارو قائلاً: لحظة من فضلك. من الذي يحتفظ بالجواهر؟ ابنتك أم الخادمة؟

- ابنتي تحتفظ دوماً بالجواهر بنفسها، وتحملها في حقيبة مغربية زرقاء صغيرة.

- أكمل يا سيدي.

- في محطة بريستول قامت الخادمة جين ميسن بجمع حقيبة ملابس سيدتها وأمتعتها التي كانت معها، وأتت إلى باب مقصورة فلوسي. ولكن ما أثار دهشتها الكبرى أن ابنتي أخبرتها أنها لن تنزل في بريستول، بل ستستمر في القطار أبعد من ذلك. وقد أمرت الخادمة بأن تخرج الأمتعة وتضعها في غرفة إيداع الأمتعة في المحطة، وقالت لها إن بوسعها أن تشرب الشاي في مطعم المحطة، ولكن عليها أن تنتظر في المحطة عودة سيدتها التي ستعود إلى بريستول في أحد قطارات العودة عصراً. ومع أن الخادمة دهشت كثيراً، إلاّ أنها نفّذت ما طُلب منها، فوضعت الأمتعة في غرفة الإيداع، ثم شربت بعض الشاي. ولكن قطارات العودة وصلت الواحد بعد الآخر دون أن تظهر سيدتها. وبعد وصول آخر قطار، تركت الأمتعة حيث كانت، وذهبت إلى فندق قرب المحطة لقضاء الليلة. وصباح اليوم قرأت عن المأساة فأسرعت عائدة بأول قطار متاح.

- أليس لديك ما يفسر التغيير المفاجئ في خطط ابنتك؟

- حسناً، لديّ ما يلي: وفقاً لما قالته الخادمة جين ميسن ففي بريستول لم تعد فلوسي وحيدة في مقصورتها، إذ كان فيها رجلٌ وقف ينظر من النافذة إلى الجانب الآخر من الرصيف بحيث لا تستطيع رؤية وجهه.

- كانت عربات القطار ذات ممر جانبي بالطبع؟

- نعم.

- وفي أي جانب كان الممر؟

- في الجانب المحاذي لرصيف المحطة. وكانت ابنتي تقف في الممر وهي تتكلم مع ميسن.

- ألا يوجد في قرارة نفسك شك... اعذرني لحظة.

نهض وعدّل بحرص ودقّةٍ المحبرة التي كانت مائلة قليلاً، وأضاف وهو يجلس: أستميحك العذر، إنه لمما يؤثر في أعصابي أن أرى أي شيء معوجّ أو في غير مكانه. أمر غريب، أليس كذلك؟ كنت أقول يا سيدي: أليس لديك شك بأن هذا اللقاء الذي ربما كان غير متوقع هو سبب التغيير المفاجئ في خطط ابنتك؟

- يبدو هذا الافتراض الوحيد المعقول.

- أليست لديك فكرة عن هوية ذلك السيد؟

تردد المليونير لحظة، ثم أجاب: كلا... لا أعرف أبداً.

- والآن، ماذا بالنسبة لاكتشاف الجثة؟

- اكتشفها ضابط بحري شاب قام فوراً بالإنذار. وكان على متن القطار طبيب، ففحص الجثة. لقد تم تخديرها بالكلوروفورم أولاً ثم طعنت، وقد عبّر الطبيب عن رأيه بأنها ماتت قبل نحو أربع ساعات، ولذلك فلا بد أن الجريمة ارتكبت بعد وقت قصير من مغادرة القطار محطة بريستول... ربما بين بريستول وويستن أو بين ويستن وتاونتن.

- وحقيبة الجواهر؟

- لقد فُقدت حقيبة الجواهر يا سيد بوارو.

- أمر آخر يا سيدي: لمن تؤول ثروة ابنتك بعد وفاتها؟

- لقد كتبت فلوسي وصية بعد زواجها مباشرة، تترك بموجبها كل شيء لزوجها.

ثم تردد دقيقة وأضاف: ويمكنني أيضاً أن أخبرك يا سيد بوارو بأنني أعتبر صهري وغداً منحرفاً، وأنه -بناءً على نصيحتي- كانت ابنتي على وشك تحرير نفسها منه بالوسائل القانونية، وهو ليس بالأمر الصعب. كنت قد رتبتُ أمور ابنتي المالية بطريقة لا يستطيع معها أن يلمس تلك الأموال أثناء حياتها، وهما قد عاشا منفصلين تماماً لعدة سنوات، إلاّ أنها وافقت في كثير من الأحيان على مطالبه المالية بدل مواجهة فضيحة علنية. ولكنني كنت مصمماً على وضع حدٍّ لذلك، وقد وافقت فلوسي أخيراً، فوجّهت محاميّ بأن يتخذوا الإجراءات القانونية.

- وأين هو السيد كارينغتن؟

- في المدينة، وأعتقد أنه كان مسافراً في الريف أمس، ولكنه عاد في الليلة الماضية.

فكر بوارو لبرهة، ثم قال: أعتقد أن هذا كل شيء يا سيدي.

- هل ترغب في رؤية الخادمة جين ميسن؟

- إذا سمحت.

ضرب هاليدي جرساً وأعطى أمراً مقتضباً للخادم.

بعد بضع دقائق دخلت جين ميسن الغرفة. امرأة محترمة،

قاسية القسمات خالية من العواطف إزاء المآسي بشكل لا يستطيعه إلاّ الخادم الجيد.

قال بوارو: ستسمحين لي بطرح بعض الأسئلة؟ هل كانت سيدتك طبيعية تماماً قبل سفركما صباح أمس؟ ألم تكن منفعلة أو مضطربة؟

- كانت طبيعية يا سيدي.

- ولكنها كانت مختلفة تماماً في بريستول؟

- نعم يا سيدي، منزعجة جداً... كانت عصبية إلى الحد الذي بدت فيه وكأنها لا تعي ما تقول.

- ما الذي قالته بالضبط؟

- حسناً يا سيدي، بقدر ما تسعفني الذاكرة قالت: "إنني مضطرة لتغيير خططي يا ميسن. لقد حدث أمرٌ ما، أعني أنني لن أغادر القطار هنا في نهاية المطاف.. عليّ أن أستمر فيه. أخرجي الأمتعه وضعيها في غرفة الإيداع، ثم اشربي بعض الشاي وانتظريني في المحطة". سألتها "أنتظرك هنا يا سيدتي؟"، فأجابت "نعم، نعم. لا تغادري المحطة. سأعود في قطار لاحق. لا أدري متى. ربما تأخر ذلك بعض الشيء". قلت لها: "حسناً يا سيدتي". لم أكن في وضع يسمح لي بطرح أسئلة، ولكنني اعتبرت ذلك غريباً تماماً.

- لم يكن ذلك من طبيعة سيدتك، إيه؟

- لم يكن من طبيعتها أبداً!

- وماذا تعتقدين؟

حسناً يا سيدي، لقد اعتقدت بأن لذلك علاقة بالرجل الذي كان في المقصورة. إنها لم تكن تتكلم معه، ولكنها التفتت مرة أو مرتين كما لو أنها تريد سؤاله إن كانت تقوم بالعمل الصحيح.

- ولكنك لم تري وجه الرجل، أليس كذلك؟

- نعم يا سيدي؛ فقد أولاني ظهره طوال الوقت.

- هل تستطيعين وصفه بأي شكل؟

- كان يرتدي معطفاً بنياً فاتحاً ضارباً إلى الصفرة وقبعة، وكان طويلاً ونحيلاً.

- ألم تعرفيه؟

- آه، لا أعتقد ذلك يا سيدي.

- ولم يكن هذا الرجل سيدك، السيد كارينغتن، بأي حال من الأحوال؟

بدا وكأن ميسن قد جفلت، ثم قالت: لا أعتقد ذلك يا سيدي!

- ولكنك لست واثقة؟

- كانت بُنيته كبنية سيدي تقريباً يا سيدي، ولكني لم أفكر مطلقاً أنه قد يكون هو، فنحن نادراً جداً ما نراه... لا أستطيع القول إنه لم يكن هو!

التقط بوارو دبوساً عن السجادة وقطب جبينه بحدة وهو ينظر

إليه، ثم استمر قائلاً: هل كان يمكن أن يكون هذا الرجل قد دخل القطار في بريستول قبل أن تصلي أنت إلى المقصورة؟

فكرت السيدة ميسن ثم قالت: نعم يا سيدي، أعتقد أن ذلك ممكن. لقد كانت مقصورتي مزدحمة جداً، وقد مضت بضع دقائق قبل أن أتمكن من الخروج منها. ثم إنه كان على رصيف المحطة حشد ضخم، وقد أخّرني ذلك أيضاً. ولكنه ما كان ليمتلك سوى دقيقة أو دقيقتين للكلام مع سيدتي لو صحّ ذلك؛ ولذا فقد سلمت جدلاً بأنه أتى من خلال ممر المقصورات.

- هذا احتمال أكبر بالتأكيد.

وصمت وهو لمّا يزل مقطب الجبين. فقالت جين ميسن: هل تعرف ما الذي كانت ترتديه السيدة، يا سيدي؟

- أعطت الصحف بعض التفصيلات، ولكنني أريد منك تأكيدها.

- لقد كانت ترتدي قبعة بيضاء من فرو الثعالب يا سيدي، مع خمار أبيض مُنقّط، ومعطف صوفي أزرق وتنورة زرقاء فاتحة من ذلك اللون الذي يسمونه سماوياً.

- همم... أمر مثير!

علق السيد هاليدي قائلاً: نعم، إن المفتش جاب يأمل بأن يساعدنا ذلك في تحديد المكان الذي ارتكبت فيه الجريمة. فكل من رآها من شأنه أن يتذكرها.

قال بوارو: بالضبط! شكراً يا آنسة.

غادرت الخادمة الغرفة. ونهض بوارو بخفة قائلاً: حسناً، هذا كل ما يمكنني فعله هنا، باستثناء أمر واحد يا سيدي، وهو أنني أود أن أطلب منك أن تخبرني كل شيء، كل شيء!

- لقد أخبرتك.

- هل أنت متأكد؟

- متأكد تماماً.

- ليس هناك إذن ما يُقال بعد. عليّ أن أنسحب من القضية

- لماذا؟

- لأنك لم تكن صريحاً معي.

- أؤكد لك.

- كلا، إنك تحتفظ بشيء ما.

ساد الصمت برهة، ثم أخرج هاليدي ورقة من جيبه وسلمها لصديقي قائلاً: أظن أن هذا هو ما تسعى إليه يا سيد بوارو، مع أن كيفية معرفتك به تثيرني تماماً!

ابتسم بوارو وفتح الورقة. كانت رسالة مكتوبة بخط صغير مائل. قرأ بوارو الرسالة بصوت عالٍ:

سيدتي الغالية،

إنه لمن دواعي سروري العظيم أن أتطلع إلى السعادة العظيمة بلقائك ثانية. فبعد ردك الودود على رسالتي

لا أكاد أستطيع السيطرة على صبري النافذ. إنني لم أنس أبداً تلك الأيام في باريس، وإنها لقسوة بالغة أن تغادري لندن غداً. ومع ذلك فلن يمضي وقت طويل، وربما بأسرع مما تظنين، إلاّ وأتمتع برؤيةٍ ثانية للمرأة التي بقيت صورتها دوماً المسيطرة على قلبي.

كوني على ثقة -يا سيدتي الغالية- بكل عهود عواطفي ومشاعري المخلصة الثابتة.

أرماند دي لاروشيفو

أعاد بوارو الرسالة إلى هاليدي مع انحناءة تقدير وقال: أتخيل يا سيدي أنك لم تكن تعرف أن ابنتك كانت تنوي إعادة صلتها بالكونت دي لاروشيفو؟

- لقد وقع عليّ ذلك وقوع الصاعقة! وجدتُ هذه الرسالة في حقيبة يد ابنتي، وربما كنت تعرف يا سيد بوارو بأن هذا الكونت المزعوم مغامر من أسوأ أنواع المغامرين.

هز بوارو رأسه موافقاً، فقال هاليدي. ولكنني أريد أن أعرف كيف علمت بوجود هذه الرسالة؟

ابتسم صديقي وقال: يا سيدي، أنا لم أعلم. ولكن لا يكفي رجل التحري أن يتعقب آثار الأقدام بتفحص رماد لفائف التبغ، بل عليه أيضاً أن يكون عالماً نفسياً جيداً! لقد عرفت بأنك تكره صهرك ولا تثق به، وهو المستفيد من موت ابنتك، كما أن وصف الخادمة للرجل الغامض يشير إلى شبه كافٍ به، ومع ذلك فأنت لم تكن حريصاً على اتهامه وتتبع أثره! لماذا؟ بالتأكيد لأن شكوكك تكمن

في اتجاه آخر. ولذلك علمت أنك كنت تخفي شيئاً.

- أنت على حق يا سيد بوارو. لقد كنت واثقاً أنّ روبرت هو المذنب حتى وجدت هذه الرسالة. لقد شوّشتني بشكل فظيع!

- نعم، إذ يقول الكونت فيها: "لن يمضي وقت طويل، وربما بأسرع مما تظنين". ومن الواضح أنه لم يكن لينتظر حتى تعلم أنت بظهوره مرة أخرى. أكان هو الذي سافر من لندن على متن قطار الثانية عشرة وأربع عشرة دقيقة، وجاء عبر الممر إلى مقصورة ابنتك؟ الكونت روشيفو -أيضاً- طويلٌ وأسمر إن كانت ذاكرتي تعمل بشكل جيد!

هز المليونير رأسه موافقاً، فقال بوارو: حسناً يا سيدي. أتمنى لك يوماً سعيداً. أحسب أن لدى الشرطة قائمة بالجواهر، أليس كذلك؟

- بلى، وأحسب أن المفتش جاب قد أصبح هنا الآن إن كنت ترغب برؤيته.

* * *

كان جاب صديقاً قديماً لنا، وقد قام بتحية بوارو بشيء من الازدراء الصادر عن محب. قال: وكيف أنت يا مسيو؟ لا ضغائن بيننا، مع أن لدينا بالفعل طرقنا المختلفة في النظر إلى الأمور. كيف هي «الخلايا الرمادية الصغيرة»... إيه؟ هل تزداد قوة؟

أشرقت له أسارير بوارو وقال: إنها تعمل يا عزيزي جاب، إنها تعمل بكل تأكيد!

- هذا جيد إذن. هل تعتقد أن الجريمة من فعل روبرت أم لصٍ ما؟ إننا نراقب كل الأماكن التي يرتادها المجرمون، وسنعرف فور محاولة التخلص من الجواهر. بطبيعة الحال فإن من فعلها -كائناً من كان- لن يحتفظ بالجواهر لتأمل بريقها... هذا غير وارد! إنني أحاول معرفة مكان وجود روبرت كارينغتن يوم أمس، ويبدو أن في هذه المسألة بعض الغموض، وقد وضعت رجلاً لمراقبته.

قال بوارو بتعريض لطيف: إجراء احترازي عظيم، ولكن لعله جاء متأخراً يوماً واحداً.

- لا تستطيع دوماً إلاّ أن تطلق نكاتك يا سيد بوارو. حسناً، أنا ذاهب إلى محطة بادينغتن. سأذهب إلى بريستول وويستن وتاونتن. تلك هي مهمتي... إلى اللقاء.

- هل ستأتي لتراني مساء اليوم، وتخبرني بالنتيجة؟

- بالتأكيد، إذا عدت.

وفيما غادر صديقنا تمتم بوارو قائلاً: إن مفتشنا الطيب يؤمن أن في الحركة بركة. فتراه يسافر، ويقيس آثار الأقدام، ويجمع الطين ورماد الدخان... إنه مشغول إلى أبعد الحدود! وهو متحمس بما تعجز عنه الكلمات! وإن أنا ذكرت له علم النفس فهل تدري ماذا يفعل يا صديقي؟ إنه يبتسم! إنه يقول لنفسه: "يا لبوارو العجوز المسكين... لقد هرم وأصابه الخَرَف!". إن جاب هو «الجيل الشاب الذي يقرع الأبواب». ولكن، واأسفاه! إنهم منشغلون جداً بقرع الباب إلى الحد الذي لا ينتبهون معه إلى أن الباب مفتوح!

قلت له: وماذا ستفعل؟

- بما أن لدينا شيكاً على بياض، فسأصرف ثلاثة بنسات لمكالمة فندق ريتز حيث يقيم الكونت كما قد تكون لاحظت. بعد ذلك، ولأن قدميّ باردتان قليلاً، وقد عطست مرتين، فسأعود إلى البيت لأصنع لنفسي كوباً من الزهورات!

* * *

لم أر بوارو ثانية حتى صباح اليوم التالي. وجدته ينهي بهدوء إفطاره، فسألته بلهفة: حسناً؟ ماذا حدث؟

- لا شيء.

- وماذا عن جاب؟

- لم أره.

- والكونت؟

- لقد غادر فندق ريتز يوم أمس الأول.

- أي في يوم الجريمة؟

- نعم.

- فالأمر محلول إذن! لقد بُرِّئت ساحة روبرت كارينغتن.

- برئت ساحته لأن الكونت روشيفو غادر فندقه؟ إنك تتسرع كثيراً يا صديقي.

- على كلٍ، ينبغي أن تتم متابعته، واعتقاله! ولكن ماذا عساه يكون دافعه؟

- إن ما قيمته مئة ألف دولار من الجواهر يعتبر دافعاً جيداً لأي شخص. كلا، إن السؤال برأيي هو: لماذا يقتلها؟ لماذا لا يكتفي -ببساطة- بسرقة الجواهر؟ إنها لن تلاحقه قضائياً.

- لم لا؟

- لأنها امرأة يا صديقي. لقد أحبّت هذا الرجل ذات يوم، ولذلك فإنها كانت ستتألم لخسارتها بصمت. ومن شأن الكونت، عالم النفس الحاذق جداً فيما يخص النساء، أن يعرف هذه الحقيقة تماماً! ومن ناحية أخرى: إن كان روبرت كارينغتن هو الذي قتلها، فلماذا يأخذ الجواهر التي ستدينه بشكل قاتل؟

- ربما أخذها للتضليل.

- ربما كنت محقاً يا صديقي. آه، ها هو جاب! إنني أميّز طرقته على الباب.

كان المفتش منفرج الأسارير مرحاً. قال: صباح الخير يا بوارو. لقد عدت لتوي، ولقد قمت بعمل جيد! وأنت؟

- أنا؟ أنا نظمت أفكاري.

ضحك جاب من قلبه وقال هامساً لي: "عجوزنا أخذ يشيخ". ثم قال بصوت عال: هذا لا يناسبنا نحن الشباب.

تساءل بوارو: وما الضرر في ذلك؟

- حسناً، هل تريد سماع ما فعلته؟

- هل تسمح لي بأن أُخمّن؟ لقد وجدتَ السكين التي ارتُكبت بها الجريمة على جانب خط سكة الحديد بين ويستن وتاوتن، ولقد حققتَ مع الصبي بائع الصحف الذي تحدث مع السيدة الفقيدة كارينغتن في محطة ويستن!

فَغَر جاب فاه، ثم قال: كيف عرفت، بالله عليك؟ لا تقل لي إنها خلاياك «الرمادية الصغيرة» فائقة القدرة!

- إنني سعيد لاعترافك هذه المرة بأنها فائقة القدرة! قل لي: هل أعطَتِ القتيلة للصبيّ بائع الصحف شلناً إكرامية له؟

- كلا، بل أعطَتْهُ نصف جنيه!

استعاد جاب مزاجه وقال بصوت أجش: مسرفون جداً هؤلاء الأميركان!

- ونتيجة لذلك، لم ينسها الصبي، أليس كذلك؟

- وكيف له أن ينساها؟ إن أنصاف الجنيهات لا تصادفه كل يوم. لقد نادته واشترت منه مجلّتين، على غلاف إحداهما صورة فتاة بثياب زرقاء، وقد قالت له "هذه تماثلني". آه، إنه يتذكرها تماماً، وكان ذلك كافياً بالنسبة لي. فحسب شهادة الطبيب، لا بد أن الجريمة ارتكبت قبل محطة تاونتن. وقد خمّنتَ بأنهم قد رموا السكين فوراً، وقد مشيت مع خط السكة بحثاً عنها، وبالفعل كانت

هناك. ولقد قمت بإجراء تحقيقات في تاونتن حول الرجل، ولكنها -بالطبع- محطة كبيرة، ولم يكن مرجحاً أن يكونوا قد لاحظوا وجوده. ويحتمل أنه قد عاد إلى لندن في قطار لاحق.

هز بوارو رأسه وقال: احتمال وارد جداً.

- ولكنني وجدت لدى عودتي خبراً آخر: إنهم يصرّفون الجواهر... فتلك الزمردة الضخمة قد تم رهنها ليلة أمس من قبل أحد أرباب السوابق. من تظنه كان؟

- لا أدري، إلاّ أنه رجل قصير.

نظر جاب إليه وقال: حسناً، إنك على حق في هذه... إنه قصير تماماً. إنه ريد ناركي.

قلت: ومن هو ريد ناركي؟

قال جاب: إنه لص جواهر ماهر جداً يا سيدي، وهو ليس ممن يقدمون على القتل. إنه يعمل -عاده- مع امرأة اسمها غريسي كيد، ولكن يبدو أنها غير متورطة في هذه القضية، ما لم تكن قد فرت إلى هولندا بباقي الغنيمة.

سأله بوارو: وهل اعتقلتم ناركي؟

- بالتأكيد. ولكن تذكّر، إن الرجل الآخر هو من نبحث عنه. الرجل الذي كان مع السيدة كارينغتن في القطار، ذلك هو الذي خطط للعملية بالتأكيد. ولكن ناركي لم يتحدث عن صاحبه.

لاحظت بأن عيني بوارو أصبحتا أكثر اخضراراً، وقال بهدوء:

أعتقد أنني أستطيع أن أجد لك صاحب ناركي بالتأكيد.

قال جاب: واحدة من أفكارك الصغيرة، إيه؟

ثم نظر إليه بحدة وقال: مدهشٌ كيف تستطيع الإمساك بالمجرمين أحياناً، بمثل عمرك والاعتبارات الأخرى! إنه الحظ بالطبع.

تمتم صديقي قائلاً: ربما، ربما... ناولني قبعتي يا هيستنغز، والفرشاة، نعم، هكذا! وحذائي المطاطي الخارجي إن كانت السماء ما تزال تمطر! ينبغي أن لا أسمح بإبطال المفعول الجيد لتلك الزهورات. وداعاً يا جاب!

- حظاً سعيداً يا بوارو!

أوقف بوارو أول سيارة أجرة صادفناها وطلب من السائق التوجه إلى بارك لين. عندما وصلنا أمام بيت هاليدي انسلّ بوارو بهدوء، ودفع أجرة السيارة ثم ضرب جرس الباب. وعندما فتح الخادم الباب طلب بوارو منه شيئاً ما بصوت منخفض فقادنا الخادم فوراً إلى الطابق العلوي. صعدنا إلى الغرف العليا في المنزل، ثم قادنا الخادم إلى غرفة نوم صغيرة مرتّبة.

تجول بوارو بناظريه في الغرفة، ثم تركزت عيناه على صندوق أسودَ صغير. جلس أمام الصندوق وتفحص بدقة العلامات الموجودة عليه، ثم أخرج لفافة سلك صغيرة من جيبه والتفت إلى الخادم قائلاً: اطلب من السيد هاليدي -إن كان بإمكانه- أن يتلطف ويصعد إليّ هنا.

غادر الخادم، وعالج بوارو بلطفٍ قفل الصندوق بيدٍ متمرسة.

وفي بضع دقائق انفتح القفل، ورفع بوارو غطاء الصندوق، ثم شرع يعبث بسرعة بالملابس التي يحتويها ويرميها خارجه إلى الأرض.

سمعت وقع خطوات ثقيلة تصعد الدرج، ثم دخل هاليدي الغرفة وصاح وهو يحدّق إلى بوارو: ما الذي تفعله هنا؟

قال: "إنني -يا سيدي- أبحث عن هذا". وأخرج من الصندوق معطفاً وتنورةً صوفية سماوية اللون، وقبعة بيضاء من فرو الثعالب.

سمعت صوتاً يصيح: "ما الذي تفعله بصندوقي؟"، والتفتُّ لأرى الخادمة، جين ميسن، وقد دخلت الغرفة، وقال بوارو: لو تكرمت بإغلاق الباب يا هيستنغز. شكراً لك. نعم، وقِفْ مولياً ظهرك للباب. والآن يا سيد هاليدي دعني أعرفك إلى غريسي كيد المسماة -تنويعاً- جين ميسن، والتي سرعان ما ستنضم إلى شريكها ريد ناركي تحت الحراسة اللطيفة للمفتش جاب.

* * *

قال بوارو وهو يلوح بيد مزدرية: كانت من أسهل ما يكون!

ثم سكب لنفسه مزيداً من الكافيار، ومضى قائلاً: لقد كان إصرار الخادمة على الملابس التي كانت سيدتها ترتديها هو أول ما لفت انتباهي. لماذا كانت حريصة إلى ذلك الحد على توجيه انتباهنا إلى الملابس؟ وفكرت بأننا لا نملك إلاّ رواية الخادمة حول الرجل الغامض في المقصورة في بريستول. وحسبما ذهبت إليه شهادة الطبيب، فقد كان بالإمكان بسهولة أن تكون السيدة كارينغتن

قد قُتلت قبل الوصول إلى بريستول. ولكن -إن كان الأمر كذلك- فهذا يعني أن الخادمة شريكة في الجرم، وإن كانت شريكة فلن تتمنى أن تعتمد هذه النقطة على شهادتها وحدها. لقد كانت الملابس التي ارتدتها السيدة كارينغتن مثيرة للانتباه... وعادة ما يكون للخادمة خيارات عديدة فيما ينبغي على سيدتها أن ترتديه. والآن، إن كان أي شخص -بعد بريستول- قد رأى سيدة بمعطف أزرق سماوي وتنورة وقبعة فرو، فسيكون مستعداً تماماً ليُقسم بأنه رأى السيدة كارينغتن.

وهكذا بدأت أعيد بناء القضية: تُزّود الخادمة نفسَها بملابس مثيلة لسيدتها. ثم تخّدر -هي وشريكها- السيدة كارينغتن ويقتلانها طعناً بين لندن وبريستول مستفيدين -ربما- من مرور القطار في نفق. توضع الجثة تحت المقعد، وتأخذ الخادمة مكانها. وفي ويستن يجب عليها أن تلفت الأنظار لنفسها. كيف؟ بكل الاحتمالات يغلب أن يتم اختيار بائع الصحف والتحقيق معه، ولذلك فإنها ستضمن تذكّره إياها بإعطائه إكرامية ضخمة. كما أنها جذبت انتباهه إلى لون ملابسها بإبداء ملاحظة عن غلاف إحدى المجلات. بعد مغادرة القطار محطة ويستن ترمي السكين من النافذة لتؤشر المكان الذي يفترض أن الجريمة حدثت فيه، وتبدل ملابسها، أو ترتدي فوقها معطفاً طويلاً يخفيها، وفي تاونتن تغادر القطار وتعود إلى بريستول بأسرع ما تستطيع، حيث يكون شريكها قد ترك الأمتعة في غرفة الإيداع. يعطيها تذكرة استرداد الأمتعة ويعود هو إلى لندن. تنتظر هي على الرصيف منفذة دورها، ثم تذهب إلى فندق لقضاء الليلة، ثم تعود إلى البلدة صباحاً كما فعلت بالضبط.

عندما عاد جاب إلى مهمته أكد كل استنتاجاتي. وقد أخبرني أيضاً بأن لصاً مشهوراً كان يحاول تصريف الجواهر. وعرفت أنه كائناً من كان هذا اللص فلا بد أن يكون نقيضاً في صفاته للرجل الذي وصفته جين ميسن. وعندما علمت بأنه ريد ناركي -الذي عمل دوماً مع غريسي كير- علمت تماماً أين أجدها.

سأله هاليدي: والكونت؟

- كلما فكرت به ازددت اقتناعاً بأنه لا علاقة له بالأمر، فذلك الرجل أكثر حرصاً على جلده من أن يجازف بجريمة قتل... كان من شأن ذلك أن يكون منافياً لشخصيته.

قال هاليدي: حسناً يا سيد بوارو، إنني مدين لك بدَين كبير، والشيك الذي كتبتُه بعد الغذاء لا يكاد يفي بهذا الدين.

ابتسم بوارو بتواضع، ثم تمتم لي: إن جاب الطيب هو الذي سيحصل رسمياً على الفضل في كشف الجريمة. حسناً، ولكن بالرغم من أنه حصل على مجرمته غريسي كير، إلاّ أنني أعتقد بأنني -كما يقول الأميركان- قد أخذت عنزته!

* * *

علبة الحلوى

كانت ليلة هائجة، فقد كانت الريح تزأر بعنف، والمطر يضرب النوافذ بموجات هائلة.

جلسنا -بوارو وأنا- مقابل الموقد وقد سرّحنا سيقاننا باتجاه ألسنة اللهب البهيجة. كانت بيننا طاولة صغيرة، وعليها -أمامي- كوبٌ ضخم من الشاي الحار، وأمام بوارو كوب من شراب الكاكاو الكثيف الذي ما كنت لأشربه لو دفعوا لي مئة جنيه!

ارتشف بوارو ذلك المزيج الثخين البني من كوبه الصيني الأحمر وتنهد باطمئنان ورضا قائلاً: يا للحياة الجميلة!

- نعم، إنه عالم جيد. فها أنا لدي عمل، وعمل جيد أيضاً! وها أنت مشهور...

قاطعني بوارو محتجاً: آه، يا صديقي!

- ولكنك مشهور بالفعل، وعن جدارة أيضاً! عندما أستعيد في تفكيري سلسلة نجاحاتك الطويلة فإنني أدهش لها. لا أعتقد أنك تعرف ما هو الفشل!

إن من يستطيع ادعاء ذلك يكون مهرجاً غريب الأطوار!

- كلا، ولكن قل لي بجد هل سبق أن فشلت أبداً؟

- مراتٍ لا حصر لها يا صديقي. ماذا بوسعك أن تفعل؟ إن المصادفة السعيدة لا يمكن أن تكون دوماً إلى جانبك. كثيراً ما تم استدعائي في وقت متأخر جداً، وكثيراً ما وصل قبلي شخص آخر كان يعمل باتجاه الهدف نفسه مرتين صرعني المرض تماماً عندما كنت على حافة النجاح. على المرء أن يأخذ بالاعتبار حالات النجاح وحالات الفشل معاً يا صديقي

ليس هذا ما قصدته بالضبط، ما عنيته هو هل فشلت من قبلُ تماماً في قضية بسبب خطأ ارتكبته أنت؟

آه، فهمت! إنك تسأل إن كان قد سبق أن جعلت من نفسي حماراً، كما تقولون في بلادكم هنا؟ مرة واحدة يا صديقي

وتبدت على وجهه ابتسامة بطيئة متأملة، وأضاف نعم، مرة واحدة جعلت من نفسي أضحوكة!

ثم اعتدل فجأة في كرسيه وقال: اسمعني يا صديقي، أعرف أنك احتفظت بسجلٍ لنجاحاتي الصغيرة. وعليك أن تضيف قصة أخرى إلى مجموعتك، قصة فشل!

انحنى إلى الأمام، ووضع حطبةً في الموقد. وبعد أن مسح يديه بعناية بمنشفة معلقة بمسمار قرب الموقد لهذا الغرض، عاد ليسترخي على كرسيه، ويبدأ قصته.

هذا الذي أرويه لك حدث في بلجيكا منذ سنوات عديدة. كان ذلك في زمن الصراع الرهيب في فرنسا بين الكنيسة والدولة. كان السيد بول ديرولار نائباً فرنسياً نابهاً، ولم يكن سراً أن حقيبةً وزارية تنتظره. كان واحداً من أكثر المعادين للكنيسة، وكان من المؤكد أنه سيضطر لمواجهة عداء عنيف لدى توليه السلطة. وقد كان رجلاً متميزاً من عدة جوانب، ومع أنه لم يكن يشرب ولا يدخن، إلاّ أنه لم يكن متزمتاً كثيراً في جوانب أخرى. هل تفهمني يا هيستنغز، أعني في النساء... إنهن دوماً في الصورة!

كان قد تزوج قبل بضع سنوات امرأة شابة من بروكسل أعطته مهراً لا بأس به، ولا شك أن هذا المال كان مفيداً له في حياته المهنية؛ إذ لم تكن عائلته غنية، مع أنه كان -من جهة أخرى- مخولاً بتسمية نفسه باروناً لو أراد. لم يسفر الزواج عن أطفال، وماتت زوجته بعد عامين، نتيجة سقطة عن الدرج. ومن ضمن الممتلكات التي ورثها عنها بيت في شارع لويس في بروكسل.

وفي ذلك البيت حدثت وفاته المفاجئة، تصادفت وفاته مع استقالة الوزير الذي كان مقدراً له أن يخلفه. وقد نشرت كل الصحف مقالات مطولة عن حياته السياسية، وعَزَت موته -الذي حدث بشكل مفاجئ تماماً بعد طعام العشاء- إلى حدوث أزمة قلبية.

في ذلك الوقت كنت يا صديقي -كما تعلم- عضواً في جهاز التحري البلجيكي. ولم تكن وفاة السيد بول ديرولار مثيرة بشكل خاص بالنسبة لي، فأنا -كما تعلم- متدين أيضاً، وقد بدت لي وفاته أمراً مفرحاً.

بعد ثلاثة أيام من وفاته، وكانت إجازتي على وشك أن نبدأ، جاءتني زائرة إلى بيتي. كانت امرأة تضع خماراً سابغاً، ولكنها بدت شابة تماماً، وأدركت على الفور أنها كانت فتاة كأجمل ما يمكن للفتاة أن تكون. سألتني بصوت عذب منخفض: "أنت السيد هيركيول بوارو؟"، فانحنيت لها. قالت: "من جهاز التحري؟" انحنيت ثانية وقلت: تفضلي بالجلوس أرجوك يا آنستي.

أخذت كرسياً ورفعت خمارها، كان وجهها ساحراً رغم الدموع التي شوهته، وكانت ذاهلة كأنها مسكونة بقلق حاد قالت سيدي، إنني اعرف أنك ستأخذ إجازتك الآن، ولذلك ستكون حراً للنظر في قضية خاصة. أنت تدرك بأنني لا أريد استدعاء الشرطة.

هززت رأسي بالنفي وقلت: أخشى أن لا يكون ما تطلبينه ممكناً يا آنستي؛ فأنا أظلّ واحداً من رجال الشرطة ولو كنت في إجازة.

اتكأت إلى الأمام وقالت: اسمع يا سيدي.. إن كل ما أطلبه منك هو أن تتحرى. وفيما يخص نتيجة تحرياتك فأنت حر تماماً في تقديمها للشرطة. إن كان ما أظنه صحيحاً بالفعل فإننا سنحتاج إلى كل «ماكينة» القانون.

أضفى ذلك طابعاً مختلفاً بعض الشيء على القضية، ووضعت نفسي في خدمتها دون مزيد من اللغو. صبغ لونٌ خفيف وجنتيها وقالت: أشكرك يا سيدي. إن وفاة السيد بول ديرولار هي ما أطلب منك أن تتحرى عنه.

هتف مدهوشاً ماذا؟

قالت: سيدي، ليس لدي من شيء أنطلق منه في هذه القضية.. لا شيء سوى غريزة المرأة، ولكنني مقتنعة -يقيناً- بأن السيد ديرولار لم يمت ميتة طبيعية!

قلت: ولكن المؤكد أن الأطباء...

قاطعتني قائلة: قد يخطئ الأطباء. لقد كان مفعماً بالحيوية، قوياً جداً. آه يا سيد بوارو، إنني أتوسل إليك أن تساعدني

كانت الطفلة المسكينة في غاية الهم والقلق، وكانت مستعدة لأن تركع أمامي، فهدأتها بأفضل ما استطعت، وقلت: سأساعدك يا آنسة. إنني أكاد أكون واثقاً من أن مخاوفك لا أساس لها من الصحة، ولكننا سنرى. سأطلب منك -أولاً- أن تصفي لي ساكني البيت.

قالت: يوجد الخدم بالطبع: جانيت وفيليس ودينيس الطباخة، وقد عملت الطباخة في البيت من سنين عديدة، أما الخادمتان فهما فتاتان ريفيتان بسيطتان. يوجد أيضاً فرانسوا، ولكنه هو الآخر خادم قديم. وأيضاً والدة السيد ديرولار التي تعيش معه، وأنا. اسمي فيرجيني منسار وأنا ابنة عم فقيرة للراحلة زوجة السيد ديرولار، ولقد أصبحت عضوة في أسرة ساكني المنزل منذ أكثر من ثلاث سنوات. لقد وصفت لك الآن ساكني المنزل، ولكن كان لدينا أيضاً ضيفان يقيمان في المنزل.

- وهما؟

- السيد دوسان آلار، وهو جار للسيد ديرولار في فرنسا، وصديق إنكليزي هو السيد جون ويلسن.

- ألا يزالان معكم؟

- بالنسبة للسيد ويلسن فإنه موجود، ولكن السيد دوسان آلار غادر بالأمس.

- وما هي خطتك يا آنسة منسار؟

- إن أمكنك المجيء إلى البيت خلال نصف الساعة القادمة فسأكون قد رتبت قصةً لتبرير وجودك. من الأفضل أن أقدمك على أنك مرتبط بالصحافة بشكل أو بآخر. سأقول إنك جئت من باريس، وإنك أحضرت بطاقة تعريف وتوصية من السيد دوسان آلار. إن صحة مدام ديرولار عليلة تماماً، ولن تلتفت كثيراً للتفصيلات.

وبناء على التبرير العبقري للآنسة دخلت المنزل، وبعد مقابلة قصيرة مع والدة النائب المتوفى -التي كانت ذات شخصية جليلة أرستقراطية رغم وضوح تداعي صحتها- تحرّرتُ من المقدمات وبسط الأعذار.

إنني لأتساءل -يا صديقي- إن كان بوسعك تصور الصعوبات التي تكتنف مهمتي؟ فأنا أمام رجل حدثت وفاته قبل ثلاثة أيام. وإن كانت خلف وفاته لعبة قذرة بالفعل، فإن احتمالاً واحداً فقط كان يمكن قبوله: السم! ولم تكن لدي فرصة رؤية الجثة، ولم أملك أي إمكانية لفحص أو تحليل الوسط أو الطعام الذي تم فيه دس السم. لم أجد أية دلائل أو مؤشرات يمكن تقييمها، سواء أكانت مزيفة أم

حقيقيه هل تم تسميم الرجل؟ هل مات موتاً طبيعياً؟ كان علي أن
هيركيول بوارو ودون أية مساعدة أن أقرر

في البداية قابلت الخدم، وبمساعدتهم أعدت تلخيص أحداث تلك الليلة وقد أوليت انتباهاً خاصاً لطعام العشاء وطريقة تقديمه، فقد قام السيد ديرولار نفسه بتقديم الحساء، ثم تقديم طبق من شرائح اللحم مع عظامها، ثم الدجاج. وأخيراً طبق فواكه مطبوخة بالسكر وكل ذلك وضع على الطاولة، وقدمه السيد ديرولار بنفسه. وقد جيء بالقهوة في إبريق كبير إلى طاولة العشاء. لم أجد شيئاً يا صديقي، يستحيل تسميم شخص دون تسميم الجميع!

بعد العشاء عادت مدام ديرولار إلى جناحها، ورافقتها الآنسة فيرجيني وقد انتقل الرجال الثلاثة إلى مكتب السيد ديرولار حيث تبادلوا الأحاديث بشكل ودي لبعض الوقت، ثم فجأة ودون سابق إنذار سقط النائب بقوة على الأرض. اندفع السيد دوسان آلار إلى الخارج وطلب من الخادم فرانسوا إحضار طبيب قائلاً إنها سكتة قلبية بلا شك، كما شرح الخادم. ولكن عندما وصل الطبيب كان الوقت قد فات لمساعدة المريض.

كان السيد جون ويلسن -الذي قدمتني له الآنسة فيرجيني- رجلاً إنكليزياً نموذجياً في تمثيله لأبناء جلدته، في أواسط عمره، ضخم البنية. وقد كانت روايته للحادثة، التي سردها بفرنسية تغلب عليها اللكنة الإنكليزية، شبيهة مع ما سردته عليك إلى حد كبير قال: "احمرّ وجه ديرولار كثيراً، ثم سقط أرضاً"

لم يكن من شيء إضافي يمكن العثور عليه هناك. بعد ذلك

ذهبت إلى مسرح وقوع المأساة في المكتب، وتُركت هناك وحدي بناء على طلبي. حتى الآن لم أجد ما يؤيد نظرية الآنسة منسار، ولم أستطع منع نفسي من الاعتقاد بأن الأمر كان مجرد وهم من طرفها. وكان من الواضح أنها كانت تحتفظ للفقيد بعاطفة رومانسية لم تسمح لها بأن تنظر نظرة طبيعية للقضية. ومع ذلك فقد فتشت المكتب بعناية تفصيلية دقيقة. كان ممكناً أن توضع إبرة حقن في كرسي النائب بطريقة تسمح بتمرير حقنة قاتلة إلى جسده، وكان يحتمل أن تمر اللسعة الخفيفة التي تسببها الإبرة دون أن يُنتبه لها. ولكنني لم أستطع اكتشاف أية إشارة تدعم هذه النظرية ورميت نفسي على الكرسي بحركة يأس.

قلت لنفسي بصوت عالٍ: وماذا بعد؟ سأترك القضية! ليس من مؤشر في أي مكان! كل شيء طبيعي تماماً.

وفيما كنت أقول هذه الكلمات وقعت عيناي على علبة حلوى كبيرة تنتصب على طاولة قريبة، وقفز قلبي من مكانه. ربما لم يكن هذا مؤشراً يقود إلى تفسير وفاة السيد ديرولار، ولكن ها قد وجدت -على الأقل- شيئاً ليس طبيعياً. رفعت غطاء العلبة. كانت مليئة لم تُمسّ ولم تفقد ولا قطعةً واحدة، ولكن لم يكن من شأن ذلك إلاّ أن يجعل الغرابة التي جذبت انتباهي أقوى وأشد تأثيراً. أتدري لماذا يا هيستنغز؟ لأنه بينما كانت العلبة نفسها وردية اللون، كان غطاؤها أزرق. يمكن للمرء أن يرى دوماً شريط زينة أزرق على علبة وردية، والعكس، ولكن أن يجد علبةً من لون وغطاءها من لون آخر فلا. بالتأكيد، هذا ما لم أره مطلقاً!

ومع ذلك، فلم أكن أعتقد بأن هذا الحدث البسيط يحمل أي فائدة لي، ولكنني صممت على تحري الأمر باعتباره خارجاً عن المألوف. قرعت الجرس طلباً للخادم فرانسوا، وسألته إن كان سيده الفقيد مغرماً فيما مضى بالحلويات. ارتسمت على شفتيه ابتسامة كآبة باهتة وقال: كان مغرماً بها جداً يا سيدي. كان يحتفظ دوماً بعلبة حلوى في المنزل. إنه لم يكن يشرب الخمر أبداً كما تعلم.

رفعت غطاء العلبة أمامه وقلت: ومع ذلك فإن هذه العلبة لم تُمسّ أبداً؟

- عفواً يا سيدي، ولكن هذه العلبة جديدة، وقد اشتريت يوم وفاته، باعتبار أن الحلوى هي الأخرى أوشكت على النفاد.

قلت له ببطء: إذن فإن العلبة الأخرى فرغت يوم وفاته.

- نعم يا سيدي. وجدتها فارغة عند الصباح ورميتها.

- أكان السيد ديرولار يأكل الحلويات في كل ساعات النهار؟

- بعد العشاء عادة يا سيدي.

بدأت أرى بصيص نور. قلت: فرانسوا.. أتستطيع حفظ السر؟

- بالطبع يا سيدي.

- حسناً! فاعلم إذن أنني من الشرطة. هل تستطيع أن تجد لي تلك العلبة الأخرى؟

- دون شك يا سيدي. ستكون في سلة المهملات.

غادر ثم عاد بعد دقائق بعلبة يعلوها الغبار. كانت نسخة طبق

الأصل عن العلبة التي لدي، باستثناء أن العلبة كانت زرقاء هذه المرة وكان غطاؤها وردياً.

شكرت فرانسوا، ونصحته مرة أخرى بالتكتم، وغادرت المنزل في شارع لويس دون مزيد من اللغط.

بعدها زرت الطبيب الذي عاين السيد ديرولار، وكانت مهمتي معه صعبة، فقد تخندق بعناد خلف جدار من الكلمات والمفردات المتخصصة، ولكنني تخيلت بأنه لم يكن واثقاً تماماً بخصوص القضية كما كان يجب أن يكون.

قال بعد أن تمكنت من انتزاع أسلحته إلى حدٍّ ما: لقد وقعت حوادث غريبة كثيرة من هذا النوع. نوبة غضب مفاجئة، عاطفة هوجاء بعد عشاء ثقيل، هذا أمر يحدث، ثم بموجة من الغضب يصعد الدم إلى الرأس، ثم «بست»! ينتهي كل شيء!

- ولكن لم تكن لدى السيد ديرولار عاطفة هوجاء.

- لم تكن لديه؟ إنني واثق أنه كان يخوض مشاحنة كلامية عاصفة مع السيد دوسان آلار.

- ولماذا؟

رفع الطبيب كتفيه دهشة وقال: أمر واضح! ألم يكن السيد دوسان آلار كاثوليكياً متعصباً؟ لقد دُمرت صداقتهما بسبب هذه المشكلة بين الكنيسة والدولة، ولم يكن يمر يوم دون نقاشات. كان ديرولار يبدو للسيد دوسان آلار معادياً للقيم الدينية.

كان هذا الأمر غير متوقع، وقد أعطاني ذخيرة للتفكير. قلت: سؤال آخر يا دكتور: هل من الممكن دس جرعة قاتلة من السم في قطعةِ حلوى؟

- أحسب أن ذلك ممكن. إن حامض البروسيك الصافي يمكن أن يناسب هذا الاحتمال بغياب فرصة لتبخّره، ويمكن ابتلاع كُرةٍ صغيرة من أية مادة دون الانتباه لها، ولكنه لا يبدو احتمالاً مرجح الحدوث. إن قطعة حلوى مليئة بالمورفين أو الاستريكنين...

ثم أبدى وجهاً متمعجاً وأردف قائلاً: أنت تدري يا سيد بوارو، إن لقمة واحدة تكفي! والغافل لن يدقق في الشكليات والتفصيلات.

- شكراً لك يا سيدي الدكتور.

غادرته، وقمت بعدها بتحريات لدى الصيادلة، وخاصة أولئك القريبين من شارع لويس. إنه لأمر جيد أن تكون في سلك الشرطة، فقد حصلت على ما أردته من معلومات دون مصاعب. ولم أعثر -إلاّ في حالة واحدة- على أية مناسبة تم فيها تزويد ساكني البيت بأي نوع من السموم. وكان الأمر -في تلك الحالة- على شكل قطرات عين من سولفات الأتروبين للسيدة ديرولار. والأتروبين سم فعال، ولقد فرحتِ للحظة، ولكن أعراض الأتروبين قريبة من أعراض التسمم الغذائي، وليس فيها أي شبه بالحالة التي كنت أحقق فيها. وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت الوصفة قديمة، فقد كانت المدام ديرولار تعاني منذ سنوات طويلة من إعتام العدسة في عينيها.

وكنت أهم بالخروج خائباً عندما أعادني صوت الصيدلي:

دقيقة يا سيد بوارو، أتذكّر أن الفتاة التي أحضرت لي هذه الوصفة قالت شيئاً يفيد بأنها مضطرة للذهاب إلى الصيدلي الإنكليزي. بوسعك أن تجرب هناك.

وقد جربت بالفعل، فارضاً مرة أخرى مكانتي الرسمية، وحصلت على المعلومات التي أريدها. في اليوم الذي سبق وفاة السيد ديرولار حضّر العاملون في الصيدلية وصفةً للسيد جون ويلسن. وهذا لا يعني أنها كانت بحاجة إلى تحضير، فلم تكن سوى حبوب صغيرة من الترينيترين. سألت إن كان بوسعي أن أرى نموذجاً لها، فأروني إياها، فأخذ قلبي يدق أسرع فأسرع، ذلك أن الحبوب الصغيرة كانت مصنوعة من الحلوى.

سألت: هل هي سم؟

قال الصيدلي: كلا يا سيدي.

- هل تستطيع أن تصف لي تأثيرها؟

- إنها تخفض ضغط الدم. وهي توصف لبعض أنواع أمراض القلب، كالخناق الصدري مثلاً. إنها تخفف التوتر في العضلة القلبية. وفي حال تصلب الشرايين...

قاطعته قائلاً: يا عزيزي! هذه المفردات المختصة لا تعني شيئاً بالنسبة لي. هل تجعل هذه الحبوب الوجه يتورد؟

- نعم، بالتأكيد.

- ولنفترض أنني ابتلعت عشراً، أو عشرين، من حباتك

الصغيرة هذه، فما الذي يحدث؟

أجاب الصيدلي بجفاء: إنني لا أنصحك بمحاولة ذلك.

- ومع ذلك فإنك تقول إنه ليس سماً؟

أجاب بجفاء أيضاً: يوجد الكثير من الأشياء التي لا تسمى سماً، وتستطيع قتل الإنسان.

تركت الصيدلية مبتهجاً، فقد بدأت الأمور تنجلي أخيراً!

لقد عرفت الآن بأن جون ويلسن كان يملك أداة الجريمة... ولكن ماذا عن الدوافع؟ كان قد جاء إلى بلجيكا في عمل، وطلب من السيد ديرولار -الذي كان على معرفة سطحية به- أن يستضيفه. كان واضحاً أنه ما من طريقة يمكن أن يكون بها موت السيد ديرولار مفيداً له. وفوق ذلك، فقد أدركت من خلال تحريات في إنكلترا بأنه كان يعاني منذ سنوات عديدة من ذلك النوع من مرض القلب الذي يدعى الخناق الصدري. ولذلك فقد كان له حق مطلق في الاحتفاظ بتلك الحبوب في متناول يده. ومع ذلك، كنت مقتنعاً بأن شخصاً ما ذهب إلى علبة الحلوى، وفتح العلبة الملأى في البداية عن طريق الخطأ، ثم نزع لُبّ أو محتويات آخر قطعةٍ في العلبة القديمة، ثم حشاها بدل ذلك بكل ما يمكن أن تستوعبه من حبات التريترين. لقد كانت قطع الحلوى كبيرة، وكنت واثقاً أنه كان بالإمكان إدخال ما بين عشرين إلى ثلاثين حبة في القطعة. ولكن من الذي فعل ذلك؟

كان في المنزل ضيفان، وكانت لدى جون ويلسن أداة الجريمة، ولدى سان آلار الدافع لها. تذكر أنه كان متعصباً، وليس

من متعصب كالمتعصب لدينه. أيمكن أن يكون قد حصل -بطريقة أو بأخرى- على حبوب جون ويلسن؟

خطرت لي فكرة صغيرة أخرى. آه، إنك تبتسم لأفكاري الصغيرة! لماذا استنفذ جون ويلسن حبوبه؟ من المؤكد أن يكون قد أحضر معه ذخيرة تكفيه من إنكلترا. عدتُ مرة أخرى لزيارة البيت في شارع لويس. كان ويلسن خارجاً ولكنني رأيت فيليس، الفتاة التي تنظف غرفته، وسألتها فوراً إن كان صحيحاً أن السيد ويلسن قد فقد زجاجة دواء من فوق مغسلته قبل بعض الوقت. أجابت الفتاة بلهفة بأن ذلك كان صحيحاً تماماً، وأنها قد تعرضت للّوم بسبب ذلك. وقد ظن السيد الإنكليزي بأنها كسرتها ولم ترغب بالاعتراف بذلك، بينما هي لم تلمسها أبداً، وقالت: إنها بلا شك جانيت التي تدس أنفها دوماً في أمور لا علاقة لها بها...

هدّأتُ من سخطها، واستأذنتُ بالانصراف. لقد عرفت الآن كل ما احتجت لمعرفته. بقي عليّ أن أثبت قضيتي. وشعرت بأن ذلك لن يكون سهلاً. قد أكون أنا واثقاً من أن سان آلار قد أخذ زجاجة التريتيترين عن مغسلة جون ويلسن، ولكن حتى أقنع الآخرين لا بد لي من إبراز دليل، ولم يكن لديّ دليل لأبرزه!

ولكن لا يهم.. إنني أعرف الحقيقة. كان ذلك هو الأمر العظيم. إنك تتذكر الصعوبة التي واجهتنا في قضية ستايلز يا هيستنغز؟ هناك أيضاً كنت أعرف، ولكنني استغرقت وقتاً طويلاً حتى وجدت الصلة الأخيرة المفقودة التي جعلت من سلسلة دلائلي ضد القاتل سلسلة كاملة.

طلبت مقابلة مع الآنسة منسار، وجاءت على الفور. طلبت

منها عنوان السيد دوسان آلار. اعترت وجهها مسحةُ قلق، وقالت: لماذا تريده يا سيد بوارو؟

- إنه ضروري يا آنستي.

بدت مرتابة قلقة، قالت: إنه لا يستطيع أن يخبرك بشيء؛ فهو رجل يعيش خارج هذا العالم، ولا يكاد يلاحظ ما يدور حوله!

- هذا ممكن يا آنسة، ولكن مع ذلك فقد كان صديقاً قديماً للسيد ديرولار، وربما كان يعرف أشياء يستطيع أن يخبرني عنها، أشياء من الماضي... عداوات قديمة... علاقات حب قديمة.

توردت وجنتا الفتاة وعضت شفتها ثم قالت: كما ترغب، ولكني... ولكني أشعر الآن بأنني على ثقة من أنني كنت مخطئة. لقد كان لطفاً منك أن توافق على طلبي، ولكنني كنت منزعجة... بل كنت شديدة الاضطراب في ذلك الوقت. إنني أدرك الآن بأنه لم يكن في الأمر لغز يتطلب حلاً. اترك الأمر، أرجوك يا سيدي.

تأملتها بإمعان، ثم قلت: يا آنستي، من الصعب أحياناً على كلب الصيد أن يعثر على الأثر الذي يقوده إلى طريدته، ولكن -إذا وجدّه فعلاً- فما من قوة تجعله يتركه! ذلك إذا كان كلب صيد جيداً... وأنا يا آنستي، هيركيول بوارو، كلب صيد جيد جداً!

دارت دون أن تنبس بشفة، وبعد بضع دقائق عادت بالعنوان مكتوباً على ورقة صغيرة. غادرت المنزل، وكان الخادم فرانسوا ينتظرني في الخارج. نظر إليّ بلهفة وقال: أما من أخبار يا سيدي؟

- حتى الآن، كلا يا صديقي.

تنهد وقال: آه! السيد ديرولار المسكين! أنا أيضاً كانت لي نفس طريقة تفكيره. ولكن هذا لا يعني أنني أستطيع التصريح بذلك في البيت؛ فالنساء هناك ورعات كلهنّ، وربما كان ذلك أمراً جيداً. إن السيدة تقية جداً، والآنسة فيرجيني كذلك أيضاً.

تساءلت: الآنسة فيرجيني؟ أهي تقية جداً؟

تعجبت من ذلك، وأنا أفكر بوجهها العاطفي الذي أهزلته الدموع، الذي رأيته في ذلك اليوم الأول.

وعندما حصلت على عنوان السيد سان آلار لم أضيع أي وقت. وصلت إلى جوار بيته الريفي في مقاطعة آردين، ولكن أعياني العثور على عذرٍ لدخول المنزل لبضعة أيام. وفي النهاية وجدت ذلك العذر، كيف تظنني دخلت؟ كسمكري يا صديقي! استغرقت مسألة ترتيب تسرب صغير في الغاز في غرفة نومه دقيقة واحدة. تركت المنزل لإحضار أدواتي، وحرصت على العودة بأدواتي في ساعة عرفت فيها أنني سأكون في الساحة وحدي. لم أكد أعرف ما الذي أبحث عنه، ولم أستطع إقناع نفسي بوجود أية فرصة للعثور على الأمر الوحيد المفيد بالنسبة للقضية، فلم يكن ليجازف بالاحتفاظ به.

ومع ذلك فعندما وجدت الخزانة الصغيرة فوق المغسلة مقفلة لم أستطع مقاومة إغراء رؤية ما بداخلها. كان القفل من النوع الذي يسهل تماماً فتحه. انفتح باب الخزانة، وكانت مليئة بالزجاجات القديمة، أخرجتها واحدةً واحدةً بيدٍ ترتعش. وفجأة ندت عني

صرخة. تصور يا صديقي، لقد أمسكت بيدي قارورة صغيرة عليها ملصق الصيدلي الإنكليزي، وقد كتب عليه: «حبوب ترينيترين. تؤخذ حبة واحدة عند اللزوم. السيد جون ويلسن».

سيطرت على انفعالي، وأغلقت الخزانة، ودسست القارورة في جيبي، وتابعت تصليح تسرب الغاز... إذ أن الإنسان ينبغي أن يكون منظماً! بعدها غادرت البيت الريفي، وركبت القطار عائداً إلى بلدي بأسرع ما يمكن. وصلت إلى بروكسل في وقت متأخر من تلك الليلة. وفي الصباح كنت أكتب تقريراً لرئيس جهاز التحري عندما جاءتني ملاحظة. وكانت الملاحظة من مدام ديرولار تطلبني فيها إلى المنزل في شارع لويس دون تأخير.

فتح فرانسوا الباب لي وقال: السيدة البارونة في انتظارك.

قادني إلى جناحها. كانت تجلس على كرسيها بكل جلالها، ولم أرَ أثراً للآنسة فيرجيني. قالت السيدة العجوز: سيد بوارو، لقد سمعتُ لتوّي بأنك لستَ كما ادّعيت، وأنك ضابط شرطة.

- هذا صحيح يا سيدتي.

- وجئت هنا لتحقق في ظروف وفاة ابني؟

أجبت ثانية: هذا صحيح يا سيدتي.

- سأكون سعيدة إن تكرمت بإخباري بالتقدم الذي أحرزته.

ترددت، ثم قلت: خبّريني كيف عرفت كل ذلك يا سيدتي؟

- من شخص لم يعد من هذا العالم.

كلماتها، والطريقة التي نطقتها بها، جعلت قشعريرة رعب تسري في صدري، وعجزت عن الكلام. قالت: ولذلك يا سيدي، أتوسل إليك بكل إلحاح أن تخبرني بالضبط بالتقدم الذي أحرزته في تحرياتك.

- سيدتي، لقد انتهت تحرياتي.

- وابني؟

- قُتل عمداً.

- هل تعرف القاتل؟

- نعم يا سيدتي.

- فمن هو إذن؟

- السيد دوسان آلار.

- أنت مخطئ؛ فهو غير قادر على ارتكاب مثل هذه الجريمة.

- الأدلة في يدي.

- أتوسل إليك ثانية أن تخبرني بكل شيء.

أطعتها هذه المرة، مستعرضاً كل خطوة قادتني إلى كشف الحقيقة. أصغت إليّ بانتباه، وفي النهاية هزت رأسها وقالت: نعم، نعم. كل شيء كما قلت، كل شيء باستثناء أمر واحد، فليس السيد دوسان آلار هو من قتل ابني. بل أنا الذي قتلته... أمه!

حدقت إليها، واستمرت هي تهز رأسها بهدوء، ثم قالت: كان خيراً أنني أرسلت في طلبك. إن من عناية الله الرحيم أن فيرجيني

أخبرتني -قبل أن ترحل للالتحاق بدير- بما فعلته. اسمع يا سيد بوارو: لقد كان ابني رجلاً شريراً؛ فقد آذى الكنيسة، وعاش حياة من الخطايا المهلكة. وقد أغوى نفوساً أخرى مع نفسه، ولكنه فعل ما هو أسوأ من ذلك، ففي صبيحة أحد الأيام، بينما كنت أخرج من غرفتي في هذا البيت، رأيت زوجة ابني واقفة عند رأس الدرج. كانت تقرأ رسالة، ورأيت ابني يتسلل من خلفها، وبدفعة سريعة واحدة وقعت وارتطم رأسها بالدرجات الرخامية. وعندما انتشلوها كانت قد ماتت. لقد كان ابني قاتلاً، وأنا فقط، أمه، كنت أعرف ذلك.

أغمضت عينيها لحظة، ثم تابعت: لا تستطيع -يا سيدي- تخيل ألمي ويأسي. ماذا كان عليّ أن أفعل؟ أدينه أمام الشرطة؟ لم أستطع حمل نفسي على ذلك. كان ذلك واجباً علي، ولكن جسمي كان ضعيفاً. وفوق ذلك: هل كانوا سيصدقونني؟ كان نظري يضعف منذ مدة، وكانوا سيقولون بأنني كنت مخطئة. لزمت الصمت، ولكن ضميري لم يسمح لي بالراحة. فبلزومي للصمت كنت أنا أيضاً قاتلة. وقد ورث ابني أموال زوجته، وازدهر كشجرة اللبلاب، وأصبح الآن على وشك استلام حقيبة وزارية، وسيكون أذاه للكنيسة مضاعفاً. ورأيت فيرجيني، تلك الطفلة المسكينة الجميلة التقية بطبيعتها تتعلق به بشغف. كانت له سلطة غريبة قطيعة على النساء. ورأيت المصيبة قادمة رأي العين، وكنت عاجزة عن منعها. لم يكن ينوي الزواج بها، وجاء الوقت الذي أصبحتْ فيه جاهزةً لتسليمه كل شيء.

عندها رأيت طريقي واضحاً. لقد كان ولدي، فأنا التي أعطيته الحياة، وكنت مسؤولة عنه. وقد قتل جسدَ امرأة، ويوشك الآن على قتل روح امرأة أخرى! ذهبت إلى غرفة السيد ويلسن وأخذت قارورة

الحبوب. كان قال مرة مازحاً بأنه كان في تلك القارورة ما يكفي لقتل رجل! ذهبت إلى المكتب وفتحت علبة الحلوى الكبيرة التي كانت دائماً على الطاولة. فتحت علبة جديدة بالخطأ. وكانت الأخرى على الطاولة أيضاً، وفيها قطعةٌ واحدة باقية فقط. وقد سهّل ذلك الأمور علي. فلا أحد يأكل الحلوى سوى ابني وفيرجيني وكنت سأبقيها معي تلك الليلة. وقد حدث كل شيء كما خططت...

توقفت وقد أغمضت عينيها لبرهة ثم فتحتها ثانية، وقالت: سيد بوارو، إنني بين يديك. لقد قالوا لي بأن أيامي معدودة في هذه الحياة. وأنا مستعدة لتحمل مسؤولية عملي أمام الله، فهل عليّ أن أتحملها على الأرض أيضاً؟

ترددتُ، ثم قلت لكسب بعض الوقت: ولكن، ماذا عن الزجاجة الفارغة يا سيدتي، كيف جاءت تلك إلى حوزة السيد دوسان آلار؟

قالت: عندما جاء ليودعني يا سيدي دسستها في جيبه. لم أكن أعرف كيف أتخلص منها. إنني عاجزة إلى الحد الذي لا أستطيع معه التحرك كثيراً دون مساعدة، وكان العثور عليها فارغة في جناحي مسألة قد تثير الشكوك. هل فهمتني يا سيدي؟

ثم عدلت جلستها لتبلغ كامل طولها وقالت: كان ذلك دون أن أقصد إلقاء الشبهة على السيد دوسان آلار! لم أحلم أبداً بشيء كهذا. فكرت بأن خادمه سيجد قارورة فارغة ويرميها دونما سؤال.

انحنيت لها وقلت: لقد فهمت يا سيدتي.

- وقرارك أيها السيد؟

كان صوتها عازماً غير متلعثم، ورأسها مرفوعاً أكثر من أي وقت مضى. نهضت على قدمي وقلت: سيدتي. يشرفني أن أتمنى لك يوماً سعيداً. لقد قمت بتحرياتي... وفشلت! انتهت القضية.

صمت بوارو لحظة، ثم قال بهدوء: ولقد ماتت بعد أسبوع فقط. تلك يا صديقي هي القصة. عليّ أن أعترف بأنني لم أوفق إلى تخمين صحيح فيها.

- ولكن ذلك لا يكاد يكون فشلاً، فما الذي كان بوسعك أن تخمنه غير ذلك في مثل تلك الظروف؟

صاح بوارو وقد دبت فيه الحماسة فجأة: آه يا صديقي، هل علّتك أنك لا ترى؟ لقد كنتُ مغفلاً ستاً وثلاثين مرة! خلاياي الرمادية لم تعمل على الإطلاق، فقد كان الدليل معي طوال الوقت.

- أي دليل؟

- علبة الحلوى! ألم تفهم؟ هل كان لأحد يمتلك كامل قوة بصره أن يرتكب خطأ كهذا؟ كنت أعرف أن المدام ديرولار تعاني من إعتام عدسة العين، علمت ذلك من قطرات الأتروبين التي تستعملها. كان في المنزل شخص واحد فقط ذو بصرٍ ضعيفٍ بحيث لا يستطيع أن يرى أي الغطاءين ينبغي وضعه على العلبة. كانت علبة الحلوى هي التي وضعتني على طريق البداية في ذلك المسار، ومع ذلك فقد فشلت حتى النهاية -وبإصرار- في إدراك مغزاها الكبير!

وكذلك فإن تحليلي النفسي كان خاطئاً. فلو كان دوسان آلار هو المجرم لما احتفظ أبداً بقارورة تدينه. إن عثوري عليها لديه كان دليلاً على براءته. كنت قد عرفت آنفاً من الآنسة فيرجيني بأنه كان

شارد الذهن. لقد كانت هذه القضية التي رويتها لك بمجملها قضية تعِسة! لم أروِ هذه القصة إلاّ لك أنت. هل تفهمني؟ لم أقم بتخمين جيد فيها! امرأة عجوز ترتكب جريمة بكل تلك البساطة والذكاء بحيث أغدو أنا -هيركيول بوارو- مخدوعاً تماماً. تبّاً! لا أتحمل التفكير فيها! عليك أن تنساها. أو... كلا، بل تذكّرْها، وإن اعتقدت في أي وقت بأنني أصبحت مغروراً، وهو أمر غير محتمَل، ولكنه قد يقع...

أخفيت ابتسامة، فيما تابع بوارو: حسناً يا صديقي، إن رأيتني أصبحت مغروراً فما عليك إلاّ أن تقول لي: «علبة الحلوى». اتفقنا؟

- اتفقنا.

قال بوارو متأملاً: لقد كانت تجربة مفيدة في نهاية المطاف! أنا الذي أملك دون شك أبرع دماغ في أوروبا في الوقت الحاضر، أستطيع أن أكون متساهلاً واسع الصدر.

تمتمت بهدوء: علبة الحلوى...

- عفواً، ماذا قلت يا صديقي؟

نظرت إلى وجه بوارو البريء وهو ينحني متسائلاً فشعرت بتأنيب الضمير. لطالما عانيت على يدي بوارو، ولكنني أنا أيضاً - رغم عدم امتلاكي أبرع دماغ في أوروبا- أستطيع أن أكون متساهلاً، واسع الصدر!

أجبته كاذباً: لا شيء.

وأشعلت غليوناً آخر وأنا أبتسم مع نفسي.

* * *

مغامرة شقّة الطابق الثالث

قالت بات: "تبّاً!"، ونبشت بعصبية في تلك الخرقة الحريرية التي تسميها حقيبة اليد المسائية، وقد تقطب جبينها أكثر فأكثر. كان شابّانِ وفتاةٌ أخرى يرقبونها بلهفة. كانوا جميعاً يقفون خارج الباب المغلق لشقة بات غارنيت.

قالت بات: لا فائدة، إنه ليس هنا. والآن، ماذا نفعل؟

تمتم جيمي فوكنر قائلاً: ما قيمة الحياة دون مفتاح؟

كان جيمي شاباً قصيراً عريض الكتفين، ذا عينين زرقاوين تنمان عن أريحية المزاج. التفتت إليه بات غاضبة وقالت: لا تتهكم يا جيمي، فالأمر جدي!

قال دونوفان بيلي (الذي كان ذا صوت كسول بديع ينسجم مع هيئته النحيلة السمراء): ابحثي ثانية يا بات، لا بد أنه موجود في مكان ما.

قالت الفتاة الأخرى ميلدريد: ربما لم تحمليه معك حين خرجنا.

قالت بات: "بل حملته معي بالطبع". ثم التفتت إلى الشابين متهمة وقالت: أعتقد أنني أعطيته لواحدٍ منكما. طلبتُ من دونوفان أن يحفظه لي.

ولكن لم يكن من السهل عليها أن تجد كبش فداء، فقد قدم دونوفان تنصلاً جازماً، وأيده جيمي في تنصله قائلاً: رأيتك تضعينه في حقيبتك بأم عيني.

بات: حسناً إذن، هذا يعني أن أحدكما أوقعه من الحقيبة عندما أحضرتماها لي. لقد أوقعتُه مرة أو مرتين من قبل.

دونوفان: مرة أو مرتين! لقد أوقعتِه عشر مرات على الأقل، كما أنك تنسينه وتتركينه في كل مكان تذهبين إليه.

جيمي: لا أرى سبباً يمنع سقوط كل شيء من هذه الحقيبة.

ميلدريد: المسألة الآن هي كيف سندخل الشقة؟

كانت ميلدريد فتاة عقلانية لا تبتعد عن جوهر المسألة، ولكنها لم تكن بنفس جاذبية بات المندفعة المشاكسة. ونظر الأربعة جميعاً إلى الباب حائرين.

جيمي: ألا يستطيع البوّاب مساعدتنا، أليس لديه مفتاح رئيسي لكل الشقق أو شيء من هذا القبيل؟

هزت بات رأسها بالنفي. كان يوجد مفتاحان فقط: أحدهما داخل الشقة معلق في المطبخ، والآخر كان -أو ينبغي أن يكون- في الحقيبة السخيفة.

بات: لو أن الشقة كانت فقط في الطابق الأرضي... لكان بوسعنا كسر نافذة وفتحها. دونوفان... أظنك لا ترغب أن تكون لصّ طوابقٍ عليا، أليس كذلك؟

رفض دونوفان بحزم، ولكن بأدب، أن يكون لص طوابق عليا.

جيمي: إن شقةً تقع في الطابق الرابع مسألة عسيرة بعض الشيء.

دونوفان: ماذا عن مخرج الحريق؟

بات: لا يوجد مخرج حريق.

جيمي: ينبغي أن يوجد مخرج حريق. بناية من خمسة طوابق ينبغي أن يكون فيها مخرج حريق.

بات: ربما، ولكن ما يفترض أنه مخرج حريق لا يفيدنا. كيف لي أن أدخل إلى شقتي؟

دونوفان: أليس من منفذٍ ما؟ شيء كذلك الذي يرسل فيه الباعة بضائعهم وخضراواتهم إلى الطوابق العليا؟

بات: مصعد الخدمات. آه، نعم، ولكنه مجرد سلة سلكية. آه. اسمعوا... وجدتها. ما رأيكم بمصعد الفحم؟

دونوفان: هذه فكرة رائعة!

طرحت ميلدريد مقترحاً مثبطاً: سيكون مغلقاً بالرتاج، أعني في مطبخ بات من الداخل.

ولكن فكرة إقفال المطبخ من الداخل رُفضت على الفور. إذ قال دونوفان: لا أصدق ذلك.

جيمي: ليس في مطبخ بات، فهي لا تقفل ولا ترتج شيئاً أبداً.

بات: لا أظنه مُرتَجاً. لقد أخرجت سلة المهملات صباح اليوم، وأنا واثقة أنني لم أقفل الرتاج بعد ذلك، ولا أعتقد أنني اقتربت من القفل مُذّاك.

دونوفان: حسناً، ستخدمنا هذه الحقيقة كثيراً هذه الليلة، ولكن دعيني -مع ذلك- أقل لك يا طفلتي بات بأن هذه العادات المهملة ستتركك تحت رحمة اللصوص في كل ليلة.

تجاهلت بات التحذيرات والنصائح وصاحت: "هيا"، وبدأت تهبط درج الطوابق الأربعة، وتبعها الآخرون. قادتهم عبر سرداب مظلم بدا مليئاً بعربات الأطفال، ثم عبرت بهم باباً آخر إلى بئر الشقق، وأرشدتهم إلى المصعد المطلوب. كان على المصعد سلة مهملات، أبعدها دونوفان ثم قفز بحذر شديد إلى القاعدة مكانها. زمّ ما حول أنفه امتعاضاً وقال: رائحة كريهة بعض الشيء، ولكن ما يهم؟ أأذهب وحدي في هذه المغامرة أم يرافقني منكم أحد؟

قال جيمي: "أنا سآتي معك"، ثم قفز بجانب دونوفان وهو يقول ببعض الشك: أحسب أن المصعد سيتحملني.

بات: لا يمكن أن تزن أكثر من طن من الفحم.

قالتها، وهي التي لم تكن أبداً مبرّزة بشكل خاص في جدول الأوزان والمقاييس.

قال دونوفان بابتهاج وهو يسحب الحبل: "سنعرف ذلك حالاً".
واختفى الاثنان عن الأعين مصحوبين بصريرٍ عالٍ.

علّق جيمي وهما يصعدان وسط الظلام قائلاً: هذا الشيء يصدر ضجيجاً رهيباً. ما الذي سيقوله الناس في الشقق الأخرى؟

دونوفان: أشباح أو لصوص كما أتوقع. إن جرّ هذا الحبل عمل شاق تماماً. أقول يا جيمي، يا ابني الغالي، هل تَعُدّ الطوابق؟

جيمي: آه، يا إلهي! كلا، لقد نسيت ذلك!

دونوفان: حسناً، لقد عددتها أنا، وخيراً فعلت. هذا هو الطابق الثالث الذي نعبره الآن. الطابق التالي طابقنا.

جيمي: وأحسبنا سنجد الآن أن بات قد أرتجت الباب.

ولكن لم يكن لهذه المخاوف أساس، فقد فتح الباب الخشبي من أول لمسة. وقفز دونوفان وجيمي إلى الظلمة الحالكة لمطبخ بات. هتف دونوفان: كان ينبغي أن نحمل مصباحاً يدوياً لهذه المهمة الليلية الرعناء. إن كانت معرفتي ببات صحيحة فستجد كل شيء ملقىً على الأرض، وسنهشّم ما لا حصر له من الأواني قبل أن أستطيع الوصول إلى زر الضوء. لا تتحرك يا جيمي ريثما أشعل الضوء.

وتلمس طريقه بحذر فوق الأرض، مدمدماً بكلمة "تبّاً!" عندما صدمته -على حين غرة- زاوية طاولة المطبخ بين أضلاعه. وصل إلى مفتاح الضوء، وبعد لحظة تردّدت "تباً" أخرى في الظلام.

جيمي: ما الأمر؟

دونوفان: لم يشعل الضوء، أحسب أن المصباح محروق. انتظر لحظة، سأشعل ضوء غرفة الجلوس.

كانت غرفة الجلوس مقابل المطبخ تماماً عبر الممر. سمع جيمي صديقه دونوفان يخرج من باب المطبخ، وسرعان ما وصلته شتائم جديدة. شق هو أيضاً طريقه بحذر عبر المطبخ وقال: ما الأمر؟

دونوفان: لا أدري. أظن أن الغرف تصبح مسحورة في الليل. كل شيء يبدو في غير مكانه. الكراسي والطاولات تجدها في آخرِ ما تتوقعه من أماكن. آه، تباً! هاهو كرسي آخر!

ولكن في هذه اللحظة وصل جيمي إلى مفتاح الضوء الكهربائي وضغط عليه. وبعد لحظة كان الشابان يتبادلان النظرات برعب صامت. لم تكن تلك غرفة جلوس بات... كانا في الشقة الخطأ!

بدايةً كانت الغرفة مزدحمة بالأثاث أكثر عشر مرات من غرفة بات، مما يفسر ذعر دونوفان لارتطامه المتكرر بالكراسي والموائد. كان في وسط الغرفة طاولة مدوّرة ضخمة مغطاة بغطاء أحمر، وقرب النافذة نبتة منزلية ذات أوراق خضراء عريضة. كانت في الحقيقة غرفةً من ذلك النوع الذي شعر الشابان معه بأن التفاهم مع صاحبها وشرح الموقف له سيكون عسيراً. حدّقا برعب صامت إلى الطاولة التي كانت توجد فوقها كومة صغيرة من الرسائل.

همس دونوفان وقد أخذ بعض الرسائل وقرأ الاسم: السيدة إيرنستين غرانت... آه، النجدة! هل تظن أنها سمعتنا؟

جيمي: معجزةٌ ألا تكون قد سمعتك، بصوتك وطريقة

اصطدامك بالأثاث. هيا بالله عليك، دعنا نخرج بسرعة من هنا.

أطفأ الضوء بسرعة وعادا أدراجهما بكل ما أوتيا من خفةٍ وصولاً إلى المصعد. وقد أطلق جيمي زفرة ارتياحٍ عندما عادا ليدخلا أعماق الظلمة دون وقوع أي حدث إضافي.

جيمي: إنني أحب أن تكون المرأة نؤومة ثقيلة النوم. إن للسيدة إيرنستين غرانت فضائلها!

دونوفان: لقد فهمت الآن لماذا أخطأنا في الطابق. في بئر السلم بدأنا العد من القبو.

* * *

جر الحبل ثانية، وصعد المصعد.

دونوفان: لقد وصلنا هذه المرة.

قال جيمي وهو يقفز إلى حيز مظلم آخر: أتمنى -من كل قلبي- أن يكون ذلك صحيحاً، فأعصابي لن تتحمل صدمات أخرى من هذا القبيل.

ولكنهما لم يواجها مزيداً من التوتر العصبي؛ فمن أول لمسة لمفتاح الكهرباء ظهر مطبخ بات، وبعد دقيقة أخرى كان الاثنان يفتحان باب الشقة الأمامي، ويُدخلان الفتاتين اللتين كانتا تنتظران في الخارج.

دمدمت بات قائلة: لقد غبتما طويلاً، انتظرتُ وميلدريد دهوراً.

قال دونوفان: كنا في مغامرة، وكان ممكناً أن نُسحب إلى قسم الشرطة كمجرمين.

كانت بات قد عبرت إلى غرفة الجلوس، حيث أشعلت الضوء، ورمت وشاحها على الكنبة، وأصغت باهتمام لرواية دونوفان عن مغامرته. قالت: يسرني أنها لم تمسك بكما. إنني واثقة أنها امرأة سيئة المزاج. لقد وصلتني ملاحظة منها صباح اليوم أرادت فيها رؤيتي بعض الوقت بخصوص شيء أرادت الشكوى منه، وأظنه البيانو الذي أعزف عليه. إن على أولئك الذين لا يحبون أن يكون فوق رؤوسهم بيانو أن لا يأتوا ويسكنوا شققاً. أرى أنك قد جرحت يدك يا دونوفان فهي مغطاة بالدماء، اذهب واغسلها تحت الحنفية.

نظر دونوفان إلى يده مدهوشاً. ثم خرج من الغرفة ممتثلاً وسرعان ما نادى صديقه جيمي.

أجاب الآخر: هالو، ما الأمر؟ لعلك جرحت نفسك جرحاً بليغاً، أليس كذلك؟

دونوفان: لم أجرح نفسي بتاتاً.

كان في صوت دونوفان شيء غريب جداً، مما جعل جيمي يحدق إليه مدهوشاً. رفع دونوفان يده المغسولة، ورأى جيمي أنه لم يكن فيها أية علامة أو جرح من أي نوع.

قال مقطباً جبينه: غريب! لقد كان عليها كثيرٌ من الدماء، من أين أتت؟

ثم أدرك فجأة ما سبق لصديقه الأكثر إدراكاً أن فهمه، فقال: يا إلهي، لا بد أن الدماء أتت من تلك الشقة.

توقف مفكراً في الاحتمالات التي تنطوي عليها هذه الكلمة، ثم قال: أأنت واثق أنه كان... دماً؟ أليس دهاناً؟

هزّ دونوفان رأسه بالنفي وقال مرتعداً: كان دماً بالتأكيد.

تبادل الاثنان النظرات، وبدا واضحاً أن نفس الفكرة تراود عقلهما معاً. ولكن جيمي هو الذي نطقها أولاً، قال برعب: أقول... هل ترى أن علينا أن... أن ننزل هناك ثانية لنرى ما الأمر؟ أعني لنرى إن كانت الأمور على ما يرام؟

- وماذا عن البنتين؟

- لن نقول لهما شيئاً. لقد ذهبت بات لترتدي مريلة المطبخ وتصنع لنا عجّة. سنعود قبل أن تتاح لهما فرصةٌ للتساؤل عن وجودنا أو غيابنا.

- حسناً، هيا. أعتقد أن علينا أن نصل إلى قرارة الأمر. ربما لا يكون في الأمر خطأ حقاً.

ولكن نبرته كانت تفتقر إلى الإقناع. ركب الاثنان المصعد، ونزلا إلى الطابق الأدنى. وقد استدلاً على طريقهما عبر المطبخ دون كبير عناء، ثم قاما ثانية بإشعال ضوء غرفة الجلوس.

قال دونوفان: "لا بد أن يكون هنا، أقصد من هنا جاء الدم إلى يدي. فأنا لم ألمس شيئاً في المطبخ". ثم نظر حوله، وكذلك

فعل جيمي، وقطب كلاهما حاجبيه، فقد بدا كل شيء مرتباً وعادياً وأبعد ما يكون عن أي إيحاء بالعنف أو الدم.

وفجأة، جفل جيمي بشدة، وأمسك بذراع زميله قائلاً: انظر!

تابع دونوفان إشارة الأصبع، وتمتم بعبارة تعجب، فمن تحت الستارة الثقيلة برزت قدم، قدم امرأة بحذاء جلدي منفتح.

مضى جيمي إلى الستارة وفرّج بين جانبيها بشدة، وفي فتحة النافذة داخل الجدار تمددت على الأرض جثة امرأة مرميةً وإلى جانبها بركة من الدماء الداكنة اللزجة! كانت ميتة، لا شك في ذلك. وقد حاول جيمي أن يرفعها عندما استوقفه دونوفان قائلاً: من الأفضل أن لا تفعل ذلك؛ لا ينبغي أن تُلمس حتى يأتي الشرطة.

جيمي: الشرطة. آه! بالطبع. يا للجريمة الشنيعة يا دونوفان. من تظن هذه المرأة تكون؟ السيدة إيرنستين غرانت؟

- يبدو أنها هي. على كل حال إن كان في الشقة أي شخص آخر فإنه يحافظ على صمت مطبق.

جيمي: ما الذي نفعله الآن؟ نركض للخارج ونجلب شرطياً أو نتصل بالشرطة من شقة بات؟

دونوفان: أظن أن الاتصال بالشرطة سيكون أفضل. هيا، يمكننا أيضاً أن نخرج من الباب الأمامي، فلا يمكن أن نقضي الليلة كلها صعوداً ونزولاً في ذلك المصعد النتن.

وافقه جيمي، ولكن فيما كانا يعبران الباب تردد جيمي وقال:

اسمعني، هل تظن أن على أحدنا أن يبقى هنا... لمجرد حراسة المكان... حتى يأتي الشرطة؟

قال دونوفان: "نعم، أعتقد أنك مُحقّ. انتظر أنت حتى أركض وأتصل". ثم ركض بسرعة صاعداً الدرج، ورنّ جرس الشقة. جاءت بات لتفتح الباب. بات الجميلة جداً ذات الوجه المتورد ومريلة الطبخ على صدرها. اتسعت عيناها دهشة لرؤية دونوفان على الباب، وهتفت: أنت؟ ولكن كيف... يا دونوفان، ما الأمر؟ هل من مشكلة؟

أخذ يديها بين يديه وقال: لا بأس يا بات، إلاّ أننا قمنا باكتشافٍ مؤسف بعض الشيء في الشقة السفلى. امرأة... ميتة...

ندّت عنها شهقة صغيرة وقالت: آه! يا للفظاعة! تعرضتْ لنوبة أم ماذا؟

- كلا... يبدو... يبدو الأمر كما لو أنها قد قُتلت.

- آه، دونوفان!

- أعرف، إن ذلك وحشي جداً!

كانت يداها ما تزالان بين يديه، تركتهما هناك، بل إنها كانت تتمسك به. بات الغالية... لكم يحبها. هل تهتم هي به أبداً؟ يشعر أحياناً بأنها تهتم. وأحياناً كان يخشى أن جيمي فوكنر... جعله تذكّره لجيمي الذي ينتظر صابراً في الأسفل يسرع شاعراً بالذنب.

دونوفان: عزيزتي بات، علينا أن نتصل بالشرطة.

جاء صوتٌ من خلفه قائلاً: السيد على حق. وفي هذه الأثناء، ونحن ننتظر وصولهم، ربما أستطيع تقديم مساعدة بسيطة.

كانا يقفان في مدخل باب الشقة، وأطلاّ الآن على فسحة الدرج. كان يقف على الدرج شخص أعلى منهما بقليل، ولم يلبث أن نزل حتى أصبح في مجال رؤيتهما.

وقفا يحدّقان إلى الرجل الضئيل ذي الشارب الحاد جداً والرأس البيضوي. كان يرتدي ثوب نوم لامعاً، وخفّاً منزلياً مزوّقاً، وانحنى بتودد باتجاه بات قائلاً: آنستي. إنني -كما قد تعلمين- ساكن الشقة فوقكم. أحب أن أكون عالياً في القمة، في الهواء، مُطلاً على لندن. أخذت الشقة باسم السيد أوكونر، ولكنني لست إيرلندياً كما يوحي الاسم. إن لي اسماً آخر، ولذلك غامرت بوضع نفسي في خدمتكم. اسمحي لي.

وسحب -بفخر- بطاقة تعريفه وسلمها إلى بات. قرأتها: السيد هيركيول بوارو. آه! والتقطت أنفاسها: أنت السيد بوارو نفسه! التحري العظيم؟ وهل ستساعدنا حقاً؟

بوارو: هذا ما أنويه يا آنسة. لقد كدت أعرض مساعدتي في وقت مبكر من هذا المساء.

بدت بات حائرة، فأوضح قائلاً: لقد سمعتكم تتداولون حول كيفية الدخول إلى شقتك. بالنسبة لي، أنا ذكي جداً في فتح الأقفال. كان بوسعي -دون شك- أن أفتح لكم الباب. ولكنني ترددت في اقتراح ذلك، إذ كان من شأنكم أن تظنوا بي الظنون.

ضحكت بات، والتفت بوارو إلى دونوفان قائلاً: والآن يا سيدي، ادخل أرجوك واتصل بالشرطة. سأنزل إلى الشقة تحت.

نزلت بات معه إلى الشقة، ووجدا جيمي قائماً بالحراسة، شرحت بات له ملابسات وجود بوارو. شرح جيمي لبوارو -بدوره- مغامرته مع دونوفان، وقد أصغى رجل التحري بكل انتباه.

بوارو: تقول إن المطبخ مقابل المصعد كان غير مقفل؟ دخلتما إلى المطبخ ولكن الضوء لم يكن ليشتعل؟

وفيما هو يتكلم وجّه خطاه باتجاه المطبخ. ضغطت أصابعه على مفتاح الضوء، ثم قال وقد أشتعل الضوء: ها! إنه أمر غريب! هاهو يعمل تماماً الآن... إنني لأعجب!

ثم رفع أصبعه طالباً الصمت، وأصاخ بسمعه. كسر السكون صوت خافت، صوت شخير بالتأكيد. قال بوارو: آه! غرفة الخدم.

مشى بخفّةٍ وصمت عبر المطبخ إلى فسحة صغيرة في نهايتها باب. فتح الباب وأشعل الضوء. كانت الغرفة أشبه ببيت كلب صمّمه بُناة الشقق لكي يؤوي إنساناً. كانت فسحة أرض الغرفة مشغولةً كلها تقريباً بسرير، وعلى السرير تمددت على ظهرها فتاة محمرة الخدين وفمها مفتوح على مداه، وهي تشخر بهدوء.

أطفأ بوارو الضوء وتراجع خارجاً قائلاً: لن تصحو. سنتركها تنام حتى يأتي الشرطة.

عاد إلى غرفة الجلوس، وكان دونوفان قد انضم إلى المجموعة

قائلاً وهو يلهث: سيكون الشرطة هنا فوراً كما قالوا. ويجب أن لا نلمس شيئاً.

هزّ بوارو رأسه موافقاً وقال: لن نلمس شيئاً، بل سننتظر، هذا كل ما في الأمر.

انتقل إلى الغرفة، وكانت ميلدريد قد نزلت مع دونوفان، ووقف الأربعة جميعاً عند مدخل الباب يراقبونه باهتمام بالغ. قال دونوفان: الذي لا أستطيع فهمه -يا سيدي- هو أنني لم أذهب أبداً نحو النافذة، فكيف جاء الدم إلى يدي؟

بوارو: يا صديقي الشاب، الجواب على ذلك أمامك. ما هو لون غطاء الطاولة؟ إنه أحمر، أليس كذلك؟ ولا شك أنك وضعت يدك على الطاولة.

دونوفان: بلى، وضعتها، هل ذلك...؟

هزّ بوارو رأسه موافقاً، وكان منكباً على الطاولة، ثم أشار بيده إلى بقعةٍ غامقة على الغطاء الأحمر، وقال باكتئاب: في هذا المكان ارتكبت الجريمة، وتمّ نقل الجثة لاحقاً.

ثم اعتدل في وقفته وقلّب نظره في أنحاء الغرفة. لم يتحرك، ولم يلمس شيئاً، ولكن -مع ذلك- شعر الأربعة الذين يراقبونه كما لو أن كل شيء في هذه الغرفة النتنة بعض الشيء قد باح بأسراره لهذه العين المراقبة الخبيرة. هزّ بوارو رأسه كما لو أنه مقتنع بما لاحظه، وخرجت منه زمرةٌ صغيرة وقال: إنني أرى.

سأل دونوفان بفضول: ماذا ترى؟

بوارو: أرى ما لا شك أنكم شعرتم به... أن الغرفة محشورة حشراً بالأثاث.

ابتسم دونوفان بحزن وقال: لقد تخبطت قليلاً فيها. كان كل شيء طبعاً في مكان مختلف عنه في غرفة بات، ولم أتمكن من تخمين ذلك.

بوارو: ليس كل شيء.

نظر إليه دونوفان متسائلاً، فقال وكأنه يعتذر: أعني أن أشياء معينة تكون ثابتة دائماً؛ ففي بناية تضم شققاً تكون الأبواب والنوافذ والمواقد كلها في نفس الأماكن في الشقق التي يعلو بعضها بعضاً.

سألت ميلدريد: أليست هذه تفصيلات لا تستحق الاهتمام بها؟

كانت تنظر إلى بوارو بشكل ينم عن اعتراض طفيف. قال: على المرء دوماً أن يتكلم بدقة تامة. إن ذلك يشكل أحد أفكاري، أو -لنقل- بِدَعي الصغيرة.

سُمعت أصوات أقدام على الدرج، ثم دخل ثلاثة رجال، منهم مفتش شرطة وشرطي وطبيب المركز. عرف المفتش بوارو، وحيّاه بأسلوب يكاد يصل حد التبجيل. ثم التفت إلى الباقين وقال: سأطّلب شهادةً من كل واحد منكم، ولكن في البداية...

قاطعه بوارو قائلاً: لديّ اقتراح صغير؛ سنعود إلى الشقة العلوية، وستقوم هذه الآنسة بما كانت تخطط للقيام به... تصنع لنا عجة (فأنا مغرم بها)، وبعدها -يا سيدي المفتش، عندما تكون قد أكملت عملك هنا- ستصعد إلينا وتسأل الأسئلة التي تحب.

رُتّب الأمر بناءً على هذا الاقتراح، وصعد بوارو والمجموعة.

بات: سيد بوارو، أظن أنك شخص في غاية اللطف، وستنال عُجّة لذيذة. إنني أصنع العجة فعلاً بشكل رائع جداً!

بوارو: هذا جيد. ذات مرة أحببت -يا آنستي- فتاة إنكليزية جميلة تشبهك كثيراً، ولكنها -مع الأسف- لم تكن تتقن الطبخ، ولذلك فربما كان كل ما جرى من فراق بيننا لحكمةٍ فيها مصلحتي.

كان في صوته حزن خفي، ونظر جيمي فوكنر إليه بفضول. ولكن ما أن أصبحوا في الشقة، حتى أجهد بوارو نفسه في إسعادهم وتسليتهم. ولقد كادت المأساة الكئيبة التي حدثت تحتهم أن تُنسى.

كانت العجة قد استهلكت وأُسبغ عليها ما تستحقّه من ثناء عندما سمعت خطوات المفتش رايس. دخل ومعه الطبيب، حيث ترك الشرطي في شقة القتيلة. قال المفتش: حسناً يا سيد بوارو، يبدو الأمر كله واضحاً، ولا أسرار فيه. ليست قضية معقدة من تلك القضايا التي تروق لك، مع أننا قد نجد صعوبة في الإمساك بالرجل. إنني أرغب -فقط- في سماع كيفية اكتشاف الجريمة.

أعاد دونوفان وجيمي رواية الأحداث التي جرت معهما في هذه الليلة. التفت المفتش إلى بات مؤنباً وقال: ينبغي أن لا تتركي مطبخك من جهة المصعد بغير قفلٍ يا آنسة. عليك أن تقفليه دائماً.

أجابت بات مرتعدة: لن أتركه هكذا مرة أخرى... قد يدخل أحدهم ويقتلني كتلك المرأة المسكينة في الأسفل.

المفتش: آه، ولكنهم لم يدخلوا من ذلك الباب على أية حال.

بوارو: ألن تخبرنا بما اكتشفتَه؟

المفتش: لا أدري إن كان مسموحاً لي أن أفعل ذلك، ولكن بما أن الأمر يتعلق بك أنت يا سيد بوارو...

بوارو: تماماً، وبالنسبة لهؤلاء الشبان فإنهم سيلتزمون بالكتمان.

المفتش: ستحصل الصحف على القصة في كل الأحوال، وبأسرع ما يمكن. ليس في القضية سر حقيقي. حسناً، السيدة الميتة هي السيدة غرانت بالتأكيد، فقد ناديت البواب للتعرف إليها. وهي امرأة في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها. كانت تجلس إلى الطاولة، وقد أطلق عليها النار من مسدس ذي عيار صغير، ربما من شخص كان يجلس مقابلها على الطاولة. سقطت إلى الأمام، ومن هنا جاءت بقعة الدم على الطاولة.

ميلدريد: ألم يكن بوسع أحدٍ أن يسمع الطلقة؟

المفتش: كان المسدس مزوداً بكاتم صوت، ولم يكن بوسع أحدٍ أن يسمع شيئاً. وبالمناسبة، هل سمعتم الصرخة التي أطلقتها الخادمة عندما أخبرناها أن سيدتها ميتة؟ كلا. حسناً، إن ذلك يظهر إلى أي مدى كان مستبعداً أن يسمع أحدٌ صوت الطلقة.

بوارو: أليس لدى الخادمة ما تقوله؟

المفتش: لقد كانت هذه الأمسية هي موعد إجازتها المسائية التي تخرج فيها عادةً كل أسبوع، ولديها مفتاحها الخاص. جاءت

إلى الشقة في نحو العاشرة ليلاً. كان السكون سائداً في الشقة. وظنت أن سيدتها قد أوت إلى فراشها.

بوارو: ألم تنظر -إذن- في غرفة الجلوس؟

المفتش: بلى، فقد أدخَلَتْ إلى غرفة الجلوس الرسائل التي وردت في البريد المسائي، ولكنها لم ترَ شيئاً غير عادي، تماماً كما لم يلحظ السيدان شيئاً، فالقاتل قد أخفى الجثة خلف الستارة بإتقان!

بوارو: ولكن إخفاء الجثة كان أمراً غريباً، ألا تعتقد ذلك؟

كان صوت بوارو ناعماً جداً، ومع ذلك فقد كانت فيه نبرة جعلت المفتش يلتفت بسرعة قائلاً: لم يرد القاتل للجثة أن تُكشف حتى يكون لديه وقت للنجاة بنفسه.

بوارو: ربما، ربما، ولكن استمر فيما كنت تقوله.

المفتش: كانت الخادمة قد خرجت في الساعة الخامسة، وقد قدّر الطبيب أن الوفاة حدثت تقريباً قبل نحو أربع ساعات إلى خمس. أليس كذلك يا دكتور؟

اكتفى الطبيب، الذي كان رجلاً قليل الكلام، بهزّ رأسه موافقاً.

المفتش: الساعة الآن الثانية عشرة إلا ربعاً. ويمكن -كما أظن- تقريب الوقت الفعلي لارتكاب الجريمة وحصره ضمن ساعة محددة.

أخرج ورقة مجعدة مكوَّرة وقال: وجدنا هذه في جيب ملابس المرأة القتيلة. لا تخْشَ الإمساك بها؛ فلا توجد عليها أية بصمات.

فتح بوارو الورقة ومسّدها حتى استوت. كانت قد طُبعت عليها بعض الكلمات بأحرف طباعية صغيرة: «سآتي لرؤيتك هذا المساء في الساعة السابعة والنصف. التوقيع: ج. ف.».

علق بوارو وهو يعيدها للمفتش قائلاً: وثيقة تثير الشبهات بحيث يُستغرب من القاتل تركها خلفه.

المفتش: حسناً، لم يكن يعرف بأنها تضعها في جيبها، وربما اعتقد أنها أتلفتها. إن لدينا دليلاً يشير إلى أنه كان رجلاً حريصاً حذراً رغم ذلك، فقد وجدنا المسدس الذي قُتلت به تحت جثتها، ولم تكن عليه أية بصمات كذلك. لقد تمّ مسح البصمات بكل حرص بمنديل حريري!

بوارو: كيف عرفت أنه كان منديلاً حريرياً؟

أجابه المفتش بلهجة المنتصر: لأننا وجدناه. ففي النهاية، وحين كان يسدل الستارة لا بد أنه وقع منه دون أن ينتبه لذلك.

ثم سلم بوارو منديلاً حريرياً أبيض كبيراً ذا نوعية جيدة. ولم تكن من حاجة لأصبع المفتش لتدل بوارو إلى العلامة الموجودة عليه في الوسط. كانت مطرزة بشكل بديع، ومفهومة تماماً. قرأ بوارو الاسم بصوت عال: جون فريزر.

المفتش: هذا هو، جون فريزر... «ج. ف.» كما ذكر في توقيع الرسالة. إننا نعرف اسم الرجل الذي نبحث عنه، وعندما نعرف القليل عن المرأة القتيلة وتتكشف علاقاتها، فربما نستطيع بسرعة أن نعرف شيئاً عنه.

بوارو: أشك في ذلك. كلا يا عزيزي، أنا لا أعتقد أنه سيكون من السهل العثور على جون فريزر هذا. إنه رجل غريب... إنه رجل حذر؛ لأنه يعلّم مناديله، ويمسح المسدس الذي ارتكب به الجريمة، ومع ذلك فهو مهمل؛ لأنه يضيّع منديله ولا يبحث عن رسالةٍ يمكن لها أن تجرمه.

المفتش: مضطرب... تلك كانت حالته.

بوارو: هذا ممكن. نعم، ممكن. ألم يره أحد يدخل البناية؟

قال المفتش: "كثير من الناس بأشكال مختلفة يأتون ويذهبون طوال الوقت، فهذه بنايات كبيرة". ثم التفت إلى الأربعة جميعاً وقال: أحسب أن أيّاً منكم لم يَرَ أحداً يخرج من الشقة؟

هزت بات رأسها بالنفي وقالت: لقد خرجنا في وقت مبكر.. في نحو السابعة.

نهض المفتش قائلاً: فهمت. ورافقه بوارو إلى باب الشقة قائلاً: هل لي -كخدمة صغيرة منك- أن أفتش الشقة السفلى؟

- بالتأكيد يا سيد بوارو. إنني أعرف تقديرهم لك عندنا في المركز. سأترك لك مفتاحاً، فلديّ اثنان. الشقة خالية؛ فقد ذهبت الخادمة إلى بعض أقاربها لأنها كانت خائفة جداً من البقاء وحدها.

قال بوارو: "أشكرك". ثم عاد إلى الشقة مفكراً.

جيمي: إنك غير مقتنع يا سيد بوارو، أليس كذلك؟

بوارو: نعم؛ أنا لست مقتنعاً.

نظر إليه دونوفان بفضول وقال: وما هو الذي يقلقك؟

لم يُجب بوارو. ظل صامتاً برهة مقطب الجبين كما لو كان يفكر، ثم قام بحركة مفاجئة من كتفيه تدل على نفاد الصبر وقال: سأقول لك تصبحين على خير يا آنسة. لا بد أنك متعبة، فلقد قمت بالكثير من الطبخ، أليس كذلك؟

ضحكت بات وقالت: العُجّة فقط. لم أحضّر عشاءً، فقد جاء دونوفان وجيمي ودعانا كلاهما للخروج، فخرجنا إلى مقهى صغير في سوهو.

بوارو: وبعدها لا شك أنكم ذهبتم إلى أحد المسارح؟

بات: نعم، مسرحية «عينا كارولين العسليتان».

قال بوارو: آه! كان ينبغي أن تكون «العينان الزرقاوان»، عينا الآنسة الزرقاوان.

تمنى للآنسة بات ليلة سعيدة مرة أخرى، وأيضاً للآنسة ميلدريد التي كانت قد قررت البقاء تلك الليلة بناء على طلب خاص؛ إذ أن بات اعترفت صراحة بأنها ستلاقي الأمرّين لو تُركت وحدها في هذه الليلة بالذات.

رافق الشابان بوارو، وعندما أُغلق الباب وكانا يستعدان لوداعه في أعلى الدرج استَبْقاهما قائلاً: يا صديقيّ، لقد سمعتماني أقول إنني لست مقتنعاً. حسناً، إن ذلك صحيح، فأنا لست مقتنعاً. سأذهب للقيام ببعض التحريات الخاصة بي. فهل تودان مرافقتي؟ نعم؟

تلقى عرضُه موافقة متلهفة منهما، وقادهما بوارو إلى الشقة السفلى، وأدخل المفتاح في القفل، ولدى دخولهم لم يتجّه -كما توقع الآخرون- إلى غرفة الجلوس، بل ذهب مباشرة إلى المطبخ. وفي فجوة صغيرة (كانت تستعمل حجرةً صغيرة لغسل الأطباق) كان يوجد صندوق ضخم للملابس المعدّة للكي. فتح بوارو الصندوق، ثم انحنى وبدأ يفتش فيه بسرعة وحماسة كلب صيد ضارٍ.

حدق جيمي ودونوفان إليه بدهشة بالغة. وفجأة، وبصيحة انتصار نهض وفي يده قارورةٌ صغيرة مسدودة بسدادة: "ها هي! وجدت ما أبحث عنه". قرّبها من أنفه وشمها بحذر ثم قال: مع الأسف! إنني لا أشم شيئاً، فقد أصابني الزكام!

أخذ دونوفان القارورة منه وشمّها، فلم يجد لها ريحاً. نزع سدادها وقرّبها تحت أنفه قبل أن تستطيع صيحة بوارو المحذرة أن تمنعه. ووقع فوراً كجذع شجرة على الأرض. ولكن بوارو استطاع بقفزته إلى الأمام أن يخفف جزئياً من سقطته.

صاح بوارو: الأبله! لماذا؟ كيف ينزع السدادة بهذا الأسلوب الأحمق! ألم يلاحظ كيف أمسكتها بكل حذر؟ سيد... فوكنر... أليس هذا اسمك؟ هل لك أن تتلطف وتأتيني بليمونة؟ لقد لاحظت وجود الليمون في المطبخ.

أسرع جيمي لتلبية الطلب، وما أن عاد حتى كان دونوفان جالساً يعلن أنه أصبح بخير ثانية. واضطر إلى الاستماع إلى درس قصير من بوارو حول ضرورة الحذر من استنشاق مواد قد تكون سامة.

قال دونوفان وهو ينهض على قدميه متمايلاً: أعتقد أنه ينبغي أن أذهب إلى البيت إلّم يكن في وجودي هنا أي نفع بعد. أشعر أنني ما أزال معتلاً قليلاً.

بوارو: بالتأكيد. ذلك أفضل ما يمكن أن تفعله. سيد فوكنر.. ساعدني هنا قليلاً. سأعود فوراً.

ثم رافق دونوفان إلى الباب، وبقي الاثنان في رأس الدرج في الخارج يتحدثان لدقائق، وعندما عاد بوارو إلى الشقة أخيراً وجد جيمي واقفاً في غرفة الجلوس يحدق حوله بعينين حائرتين.

جيمي: حسناً يا سيد بوارو، ما هي الخطوة التالية؟

بوارو: لا توجد خطوة تالية... لقد انتهت القضية.

جيمي: ماذا؟

بوارو: إنني أعرف كل شيء الآن.

نظر جيمي إليه وقال: تعني تلك القارورة التي وجدتها؟

بوارو: بالضبط... تلك القارورة الصغيرة.

هز جيمي رأسه بحيرة وقال: لا أفهم رأس الموضوع من أساسه. لسبب أو لآخر أستطيع أن أفهم بأنك غير مقتنع بالدليل ضد جون فريزر كائناً من كان هذا الشخص.

ردّد بوارو: كائناً من كان... هذا إن كان شخصاً أساساً، سيدهشني ذلك.

جيمي: لم أفهمك.

- إنه اسم... مجرد اسم! اسم كُتب على منديل بكل حرص.

- والرسالة؟

- ألم تلاحظ أنها كانت مطبوعة؟ لماذا؟ سأخبرك. إن الخطوط قد يتم التعرف إليها، كما أن متابعة مصدر رسالةٍ مطبوعة أمر أسهل مما تتصور، فلو أن شخصاً حقيقياً اسمه جون فريزر كتب تلك الرسالة، أكان يغفل عن خطورة مثل هذا العمل؟ لا، لقد كُتبت الرسالة قصداً، ووُضعت في جيب القتيلة حتى نجدها نحن. لا يوجد شخص اسمه جون فريزر!

نظر جيمي إليه متسائلاً، فمضى بوارو قائلاً: وهكذا عدت إلى النقطة الأولى التي أثارت انتباهي. لقد سمعتني أقول إن في الغرف أشياء معينة تكون في نفس الأماكن في ظروف معينة. وقد ضربت على ذلك ثلاثة أمثلة، وكان بوسعي أن أذكر مثالاً رابعاً: مفتاح الضوء الكهربائي يا صديقي.

بقي جيمي يحدق دون فهم، فيما مضى بوارو قائلاً: إن صديقك دونوفان لم يقترب من النافذة، ولقد غطى الدم يده لأنه وضع يده على الطاولة! ولكنني سألت نفسي فوراً: لماذا وضع يده هناك؟ ما الذي كان يفعله في تخبطه في هذه الغرفة في الظلام؟ تذكّرْ يا صديقي أن مفتاح الضوء الكهربائي هو دوماً في نفس الموضع، قرب الباب. لماذا -وقد أتى إلى هذه الغرفة- لم يتلمس مباشرة مفتاح الضوء ويشعله؟ كان ذلك هو الأمر الطبيعي والعادي الذي يفعله أي إنسان. بناء على روايته فقد حاول إشعال ضوء المطبخ ولكنه كان

معطلاً. ومع ذلك فعندما جربت أنا إشعاله كان يعمل على ما يرام. فهل أراد -إذن- للضوء أن يبدو وقتها معطلاً؟ لو اشتعل ضوء المطبخ لأدركتما فوراً أنكما في الشقة الخطأ، ولن يكون لديكما سبب للمجيء إلى هذه الغرفة.

- ما الذي تريد الوصول إليه يا سيد بوارو؟ إنني لا أفهم ما الذي تعنيه؟

قال وهو يرفع بيده مفتاح باب: أعني هذا.

- أهو مفتاح هذه الشقة؟

- كلا يا صديقي، بل هو مفتاح شقة الآنسة بات الذي أستلّه السيد دونوفان بيلي من حقيبتها في وقتٍ ما أثناء السهرة.

- ولكن لماذا... لماذا؟

- بالطبع! لكي يستطيع أن يفعل ما يريد فعله... لكي يدخل إلى هذه الشقة بأسلوب لا يثير الشكوك على الإطلاق. لقد تأكد من أن باب المطبخ قبالة المصعد كان غير مقفل، وذلك في وقت مبكر من مساء اليوم.

- من أين حصلت على المفتاح؟

اتسعت ابتسامة بوارو وقال: لقد وجدته لتوي حيث بحثت عنه، في جيب السيد دونوفان. هل فهمت؟ تلك القارورة الصغيرة التي تظاهرت بالعثور عليها كانت خدعة... وقد انطلت على السيد دونوفان. صنع ما ظننت أنه سيصنعه: نزع السدادة وشم محتويات

القارورة، وكان في تلك القارورة الصغيرة مادة إيثيل كلورايد، وهي مخدر فوري قوي جداً، وقد أعطتني لحظات من الغياب عن الوعي كنت أحتاجها، وقد أخذت من جيبه الشيئين اللذين عرفت أنهما سيكونان هناك. هذا المفتاح كان أحدهما... والآخر...

توقف قليلاً ثم مضى قائلاً: شككت آنذاك بالسبب الذي أعطاه المفتش لمسألة إخفاء الجثة. فهل كان إخفاؤها فعلاً لكسب الوقت؟ كلا، بل كان في الأمر ما هو أبعد من ذلك. ولذلك فكرت في شيء واحد فقط يا صديقي، وهو البريد. بريد المساء الذي يصل في الساعة التاسعة والنصف تقريباً. لنفترض أن القاتل لم يعثر على شيء كان يتوقع العثور عليه، ولكن ذلك الشيء قد يرسل بالبريد لاحقاً. من الواضح -في هذه الحالة- أنه لا بد له من العودة، ولكن يجب أن لا تكشف الخادمة الجثة عندما تأتي، وإلاّ أصبحت الشقة في عهدة الشرطة، ولذلك أخفى الجثة خلف الستارة. ولم تشكّ الخادمة بشيء، ووضعت الرسائل على الطاولة كعادتها.

- الرسائل؟

- نعم، الرسائل.

ثم أخرج شيئاً من جيبه وقال: هذا هو الشيء الثاني الذي أخذته من السيد دونوفان عندما كان غائباً عن الوعي.

ثم عرض المغلف، وكان ظرفاً مطبوعاً موجهاً إلى السيدة إيرنستين غرانت، وأضاف: ولكنني سأسألك سؤالاً واحداً يا سيد فوكتر قبل أن تنظر إلى محتويات الرسالة. هل أنت مغرم بالآنسة بات أم لا؟

- إنني أهتم بها إلى حد كبير، ولكن لم يخيل إليّ أن لي فرصة!

- أنت حسبتَ أنها مهتمة بصديقك دونوفان؟ قد تكون بدأت بالاهتمام به، ولكنها محض بداية يا صديقي. إن من مسؤوليتك أنت أن تجعلها تنسى... أن تقف إلى جانبها في مشكلتها.

- مشكلتها؟

- نعم، مشكلتها. سنبذل كل ما في وسعنا لإبقاء اسمها خارج الموضوع، ولكن سيكون من المستحيل القيام بذلك بشكل كامل، فقد كانت هي الدافع للجريمة.

ثم فضّ المغلف الذي يمسكه، فبرزت الرسالة داخله، وكانت مختصرة ومرسلة من شركة محاماة:

السيدة العزيزة،

إن الوثائق التي أرفقتِها برسالتك قانونية تماماً، وحقيقةُ أنّ الزواج قد تم في بلد أجنبي لا تضعف أو تلغي من قانونيته وصحته بأي شكل.

فتح بوارو الوثائق المرفقة بالرسالة، وكانت تتضمن عقد زواج بين دونوفان بيلي وإيرنستين غرانت يعود تاريخه إلى ثماني سنوات خلت.

قال جيمي: آه، يا إلهي! لقد قالت بات إنها تلقت رسالة من المرأة تطلب فيها رؤيتها، ولكنها لم تتخيل أبداً أن للقضية هذا القدر من الأهمية!

هزّ بوارو رأسه موافقاً وقال: لقد كان دونوفان يعرف ذلك. لقد ذهب ليرى زوجته هذا المساء قبل ذهابه إلى الشقة العليا... إنّ من مجريات القدر الغريبة أن يسوق تلك المرأة المسكينة لتأتي إلى هذه البناية حيث تسكن منافستها! لقد قتلها بكل أعصاب باردة، ثم مضى إلى تسليته المسائية. لا بد أن زوجته قد أخبرته بأنها أرسلت عقد الزواج إلى محاميها، وأنها تنتظر الجواب، ولا شك أنه حاول -هو شخصياً- أن يقنعها بأن في زواجهما علةً أو نقصاً.

- ولقد بدا بحالة معنوية ممتازة تماماً أيضاً، وطوال الأمسية. سيد بوارو، ألا تعتقد أنك قد تركته يهرب؟

أجاب بوارو بجد: ليس من مهربٍ له؛ لا داعي لخوفك.

- إن بات هي التي أفكر فيها أكثر من أي شيء آخر. ألا تظن أنها... كانت حقاً مهتمة به.

- يا صديقي، هذا هو دورك... أن تجعلها تلتفت إليك وتنسى. ولا أظن أنك ستجد هذا الأمر بالغ الصعوبة!

* * *

ذات الخمار

لاحظت مؤخراً أن بوارو قد أصبح منذ بعض الوقت غير قانع وقلقاً متبرماً بشكل متزايد. لم تأتنا مؤخراً قضايا مثيرة، لم يأتنا شيء يمكن لصديقي أن يمارس من خلاله مواهبه العقلية الحادة وقدراته الاستنتاجية البارزة. لقد قذف صباح اليوم بالصحيفة مطلقاً لفظة "تشاه!" الدالة على نفاذ صبره، وهي لفظة عجب مفضلة لديه يبدو عندما يطلقها كقطة تعطس. أطلق تلك اللفظة وقال: إنهم يخشونني يا هيستنغز، مجرمو بلدك -بريطانيا- يخشونني! عندما يكون القط موجوداً فإن الفئران الصغيرة لا تقرب الجبن!

- لا أحسب أن الغالبية العظمى منهم تعرف حتى بوجودك.

نظر بوارو إليّ مؤنباً. إنه يتصور دوماً أن العالم كله يفكر ويتحدث عن هيركيول بوارو. لا شك أنه حقق لنفسه شهرة في لندن، ولكنني لا أكاد أعتقد بأن وجوده يدب الذعر في عالم الإجرام. سألته: ماذا عن حادث السطو على الجواهر الذي حصل في شارع بوند في وضح النهار قبل أيام؟

أجاب بوارو باستحسان: ضربة مرتبة... مع أنها لا تقع ضمن

اختصاصي. خطوة رشيقة، نتيجة جرأتها على الأقل! رجل يحمل عصاً ثقيلة يهشم زجاج واجهة محل للجواهر وينتزع عدداً من الأحجار الكريمة. يُمسكه مواطنون غيورون فوراً، ويصل شرطي. يلقى عليه القبض متلبساً ومعه الجواهر. يؤخذ إلى مركز الشرطة، وبعدها يتبين بأن الأحجار الكريمة التي بحوزته مزيفة، فقد مرر الأحجار الحقيقية إلى شريك له كان من المواطنين الغيورين سالفي الذكر. سيذهب الرجل إلى السجن، هذا صحيح، ولكن عندما يخرج فإنه سيجد ثروة رائعة صغيرة بانتظاره. نعم، قضية فيها خيال لا بأس به، ولكنني أستطيع القيام بما هو أفضل من ذلك. إنني أشعر أحياناً -يا هيستنغز- بالأسف لامتلاكي هذه النزعة الأخلاقية، فالعمل ضد القانون سيكون أمراً مسلياً، على سبيل التغيير.

- ابتهج يا بوارو؛ فأنت تعلم أنك فريد في حقل اختصاصك.

- ولكن أين هي القضايا المتوفرة في حقل اختصاصي؟

أخذت الصحيفة، ثم قلت: ها هو رجل إنكليزي قُتل بشكل غامض في هولندا.

- إنهم يقولون ذلك دوماً، وبعدها يجدون أنه قد تناول سمكاً معلباً فاسداً وأن وفاته طبيعية تماماً.

- حسناً، هذا شأنك إن كنت مصرّاً على التذمر.

قال بوارو بعد أن مشى حتى وصل النافذة: مرحى! ها هي في الشارع من تُسمّى في الروايات «بذات الخمار السابغ». إنها تصعد الدرج... لا بدّ أنها آتية لاستشارتنا. ها هي فرصة لوجود شيء مثير.

عندما تكون المرأة شابة هكذا فإنها لا تضع خماراً على وجهها إلاّ لأمر عظيم.

دخلت ضيفتنا بعد دقيقة أو نحوها. وكما قال بوارو كان خمارها سابغاً حقاً، وكان من المستحيل تمييز ملامحها حتى رفعت خمارها الأسود الحريري، وعندها أدركت أن حدس بوارو كان صحيحاً، فقد كانت المرأة بارعة الجمال، شقراء الشعر زرقاء العينين. وقد استنتجت على الفور -من البساطة المُكلِفة لملابسها- بأنها تنتمي إلى الطبقات العليا في المجتمع.

قالت السيدة بصوت موسيقي ناعم: سيد بوارو، إنني أعيش مشكلة كبرى. لا أكاد أعتقد أنّ بإمكانك مساعدتي، ولكنني سمعت عنك أشياء رائعة دفعتني إلى القدوم إليك باعتبارك الأمل الأخير... متوسلة إليك أن تفعل المستحيل.

- المستحيل... إنه أمر لطالما يسرني. استمري -أرجوك- يا آنستي.

ترددت ضيفتنا الشقراء، فأضاف بوارو مستدركاً: ولكن ينبغي أن تكوني صريحة. يجب أن لا تتركيني جاهلاً تجاه أية نقطة.

قالت الفتاة فجأة: سأثق بك. هل سمعت بالليدي ميليسنت كاسل فوغان؟

التفتّ إليها باهتمام شديد، فقد ظهر إعلان خطبة الليدي ميليسنت لدوق ساوثشير الشاب قبل بضعة أيام. وعلمت أنها كانت الابنة الخامسة لشريف إيرلندي مفلس، وأن دوق ساوثشير كان

واحداً من أفضل الأكفاء لها في إنكلترا.

استمرت الفتاة قائلة: أنا الليدي ميليسنت. ربما تكون قد قرأت عن خطوبتي. يفترض أنني من أسعد الفتيات، ولكن... آه يا سيد بوارو... إنني في ورطة فظيعة! بسبب رجل، رجل رهيب... اسمه لافينغتن، وهو... لا أكاد أعرف كيف أخبرك. المشكلة في رسالة كتبتها. كنتُ وقتها في السادسة عشرة من عمري فقط، وهو... هو...

- رسالة كتبتِها لهذا السيد لافينغتن؟

- آه كلا... ليس له! بل إلى جندي شاب كنت مغرمة جداً به، وقد قتل في الحرب!

قال بوارو بلطف: نعم، فهمت.

- كانت رسالة حمقاء، رسالة طائشة، ولكنها لم تكن -فعلاً- أكثر من ذلك يا سيد بوارو. ولكن فيها عبارات قد... قد تحمل تفسيرات متباينة.

- نعم، وقد جاءت تلك الرسالة لتقع في حوزة السيد لافينغتن؟

- نعم، وقد أخذ يهدد. إلّم أدفع له مبلغاً هائلاً من المال، مبلغاً يستحيل عليّ تماماً أن أجمعه، فإنه سيرسلها إلى الدوق.

هتفتُ فجأة: الخنزير القذر... أستميحك عذراً يا آنسة ميلسنت.

قال بوارو: أليس من الحكمة أن تعترفي بكل شيء لزوج المستقبل؟

- لا أجرؤ على ذلك يا سيد بوارو. إن الدوق ذو شخصية فريدة بعض الشيء، غيور وشكاك، ويميل إلى تصديق أسوأ التفسيرات. قد يؤدي ذلك إلى فسخ خطوبتي على الفور.

قال بوارو بتودد معبر: يا عزيزتي المسكينة، وما الذي تريدين مني فعله؟

- ظننت أنه ربما كان بوسعي أن أطلب من السيد لافنغتن أن يزورك. أستطيع أن أخبره بأنني خوّلتك بمناقشة الأمر معه. ربما كان بوسعك أن تخفف من مطالبه.

- ما المبلغ الذي يطلبه؟

- عشرين ألف جنيه... أمر مستحيل. إنني أشك في قدرتي حتى على جمع ألف واحدة.

- ربما كان بوسعك أن تقترضي مالاً اعتماداً على زواجك المقبل المأمول، ولكنني أشك في إمكانية حصولك على نصف ذلك المبلغ. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه لأمر بغيض -بالنسبة لي- أن تضطري للدفع! لا، إن عبقرية هيركيول بوارو ستهزم أعداءك! أرسلي لي هذا السيد لافينغتن. هل يحتمل أن يحضر الرسالة معه؟

هزت الفتاة رأسها بالنفي وقالت: لا أظن ذلك؛ فهو حذر جداً.

- والمفترض أنّ الرسالة معه بلا شك، أليس كذلك؟

- لقد أراني إياها عندما ذهبت إلى بيته.

- ذهبت إلى بيته؟... كان ذلك تصرفاً طائشاً يا سيدتي.

- حقاً؟ لقد كنت يائسة جداً. كنت آمل أن تحركه توسلاتي.

- آه! لا، لا!! إن مَن على شاكلة هذا الرجل لا تحركهم التوسلات! بل إنه قد يرحّب بها لأنها تظهر مدى الأهمية التي تعلقينها على الوثيقة. أين يعيش هذا السيد الظريف؟

- في منزل يدعى بونا فيستا في ويمبلدون. ذهبت إليه هناك بعد حلول الظلام. قلت له إنني سأبلغ الشرطة في نهاية الأمر، ولكنه اكتفى بالضحك بطريقة بغيضة هازئة وقال: "بكل ترحيب يا عزيزتي الليدي ميليسنت، افعلي ذلك إن أردت".

- نعم، إنها قضية يصعب إيكالها للشرطة.

- بعد ذلك مضى قائلاً: "أعتقد أنك أكثر حكمة من أن تبلغي الشرطة. انظري، ها هي رسالتك، في صندوق الألغاز الصيني هذا!" ورفعها بحيث أستطيع رؤيتها. حاولت أن أختطفها منه ولكنه كان أسرع مني. طواها وهو يبتسم ابتسامته الكريهة، وأعادها إلى الصندوق الخشبي الصغير وقال: "ستكون آمنة جداً هنا، أؤكد لك ذلك. كما أن الصندوق نفسه موضوع في مكان خفي بحيث لن تجديه أبداً". وعندما تحولت عيناي إلى الخزنة الجدارية الصغيرة هزّ رأسه وضحك وقال: "كلا، إن لديّ خزنةً أفضل من هذه". آه، لقد كان بغيضاً! هل تعتقد يا سيد بوارو أن بوسعك مساعدتي؟

- ضعي ثقتك في «بابا بوارو»... سأجد طريقة لمساعدتك.

وعندما ودع بوارو زبونته مصطحباً إياها إلى أسفل الدرج، فكرت بأن تأكيداته تلك كانت كلها أمراً لا بأس به، ولكن بدا لي أن

أمامنا صخرة صلدة علينا أن نناطحها. قلت ذلك لبوارو عندما عاد إلى الغرفة فهزّ رأسه بحزن وقال: نعم، فالحل لا يبدو ظاهراً للعيان. وهذا السيد لافنغتن هو صاحب الأفضلية واليد العليا. ولست أرى الآن كيف يمكن لنا أن نحتال عليه.

* * *

زارنا السيد لافنتغن عصر ذلك اليوم. كانت الليدي ميليسنت محقة عندما وصفته بأنه بغيض، فقد شعرت بوخز حقيقي في نهاية قدمي يدفعني بشدة لأركله من أعلى الدرج. كان صخّاباً متغطرساً في أسلوبه، وقد عامل مقترحات بوارو اللطيفة بمنتهى الازدراء، وفرض نفسه -بشكل عام- سيداً للموقف. ولم أستطع تجنب الإحساس بأن بوارو لم يكن في أحسن حالاته، إذ بدا خائباً مكتئباً.

قال لافيغتن وهو يتناول قبعته: حسناً أيها السادة. يبدو أننا لا نتقدم كثيراً. القضية الآن هي كما يلي: سأحرر الليدي ميليسنت من هذا الأمر لقاء ثمن بخس كونها شابة رائعة الجمال. ولنقل: ثمانية عشر ألفاً. سأسافر إلى باريس اليوم، فلديّ عمل بسيط عليّ الاعتناء به هناك، وسوف أعود يوم الثلاثاء. وما لم تدفع الأموال مساء الثلاثاء، فستذهب الرسالة إلى الدوق. لا تقولا لي إن الليدي ميليسنت لا تستطيع جمع المبلغ؛ فبعض أصدقائها من الرجال سيكونون على أتم الاستعداد لتطويق عنق امرأة فاتنة كهذه بدين يبذلونه لها... إن اتبعت الطريقة المناسبة في ذلك.

تورد وجهي خجلاً وحنقاً، وتقدمت خطوة للأمام، ولكن لافنغتن كان قد غادر الغرفة فور إنهاء كلامه.

صحت قائلاً: يا إلهي! لا بد أن نفعل شيئاً. إنك تبدو وكأنك ستقبل ذلك صاغراً يا بوارو.

- إن لك قلباً بالغ الطيبة يا صديقي، ولكن خلايا دماغك الرمادية بحالة يرثى لها. لم تكن لدي الرغبة بإبهار السيد لافنغتن بقدراتي. كلما رأى فيّ مزيداً من الجبن كان ذلك أفضل.

- لماذا؟

تمتم بوارو متذكراً: إنه لمن الغريب أنني عبرت عن رغبة بالعمل ضد القانون مباشرة قبل وصول الليدي ميليسنت!

قلت بلهفة: هل ستسطو على منزله وهو مسافر؟

- أحياناً يكون تفكيرك يا هيستنغز سريعاً إلى حد مدهش.

- وإذا افترضنا أنه أخذ الرسالة معه؟

هزّ بوارو رأسه مشككاً وقال: احتمال ضعيف تماماً. من الواضح أن لديه مخبأً في منزله يظنه حصيناً جداً.

- ومتى نقوم... بالفعلة؟

- ليلة غد. سننطلق من هنا في نحو الحادية عشرة ليلاً.

* * *

في الموعد المحدد كنت جاهزاً للانطلاق، وقد ارتديت بدلة سوداء، وقبعة سوداء رقيقة. أشرق وجه بوارو وقال ملاطفاً: أراك ارتديت ما يناسب الدور. هيا، دعنا نستقل قطار الأنفاق إلى ويمبلدون.

– ألن نأخذ معنا أدواتٍ لمعالجة الباب واقتحام المنزل؟

– يا عزيزي هيستنغز! إن هيركيول بوارو لا يلجأ إلى وسائل بدائية كهذه.

تراجعت وقد خذلتني ملاحظته، ولكن فضولي كان يقظاً مشحوذاً. كانت الساعة تمام الثانية عشرة ليلاً عندما دخلنا الحديقة الصغيرة للمنزل المسمى بونا فيستا الواقع في ضواحي المدينة. كان البيت مظلماً ساكناً، وقد مضى بوارو مباشرة إلى نافذة خلف المنزل، حيث رفع إطار زجاجها بهدوء وأومأ لي بالدخول.

همست وقد بدا الأمر لي بالغ الغرابة: كيف عرفت بأن هذه النافذة ستكون مفتوحة؟

– لأنني نشرت مزلاجها بالمنشار صباح اليوم.

– ماذا؟

– نعم. كان ذلك أسهل ما يكون، فقد زرت هذا البيت، وقدمت بطاقة تعريف مزيفة، كواحدة من بطاقات المفتش جاب الرسمية. وقلت بأنني قد أُرسلت بناء على توصية من سكوتلانديارد لكي أُعنى بتركيب الأقفال التي تستعمل ضد السطو والتي طلب السيد لافنغتن تركيبها أثناء غيابه، وقد رحبت بي مدبرة المنزل بكل حماسة. ويبدو أنهم تعرضوا لمحاولتي سطو هنا مؤخراً دون فقدان شيء ذي قيمة، فمن الواضح أن فكرتنا الصغيرة هذه قد خطرت لأناس آخرين من المتعاملين مع السيد لافنغتن. وهكذا تفحصت جميع النوافذ، وقمت بهذا الترتيب البسيط، وحرّمت على الخدم

لمس النوافذ حتى يوم غد، باعتبارها موصولة بالتيار الكهربائي، ثم انسحبت بكل احترام.

- أنت حقاً رائع يا بوارو.

- يا صديقي، كان ذلك من أبسط الأمور. والآن، إلى العمل! إن الخدم ينامون في الطابق العلوي من المنزل، ولذلك ينبغي أن لا نجازف بإيقاظهم.

- أفترض أن الخزنة مبنية داخل أحد الجدران في مكان ما، أليس كذلك؟

- الخزنة؟ هراء! لا توجد خزنة؛ فالسيد لافنغتن رجل ذكي. وسترى بأنه قد ابتكر مخبأ أذكى بكثير من الخزنة. فالخزنة هي أول ما يبحث عنه الجميع.

وهكذا بدأ بوارو بحثاً منظماً في البيت كله. ولكن بعد بضع ساعات من التفتيش الدقيق للمنزل لم يكن بحثنا قد حقق أي جدوى، ورأيت أعراض الغضب تتجمع على وجه بوارو وقال: آه، تباً! هل سيُغلب بوارو؟ أبداً! دعنا نهدأ قليلاً. دعنا نفكر ونستخدم المنطق. دعنا -أخيراً!- نستخدم خلايا دماغنا الرمادية!

ثم صمت بضع دقائق وقد قطب حاجبيه لأغراض التركيز، وبعدها التمع في عينيه ذلك الضوء الأخضر الذي أعرفه جيداً، ثم قال: لقد كنت أحمق... المطبخ!

- المطبخ؟ ولكن ذلك مستحيل. والخدم؟!

- بالضبط. هذا ما من شأنه أن يقوله تسعة وتسعون بالمئة من الناس! ولهذا السبب بالذات فإن المطبخ هو الخيار المثالي، فهو مليء بالأواني المنزلية المختلفة. امضِ قُدماً إلى المطبخ!

تبعته وأنا مرتاب تماماً، ووقفت أراقبه وهو يغوص برأسه في حاويات الخبز والقوارير والأواني، ويدخل رأسه في فرن الغاز. وفي النهاية سئمت من مراقبته فعدت إلى غرفة المكتب. كنت مقتنعاً بأننا لن نجد بغيتنا إلاّ هناك، وهناك فقط. أجريت تفتيشاً دقيقاً آخر، ولاحظت أن الساعة قد بلغت عندئذ الرابعة والربع وبالتالي فإن الفجر قد بات وشيكاً، ثم عدت إلى المطبخ.

وقد كان من دواعي دهشتي الكاملة أن أجد بوارو واقفاً في وسط سلة الفحم تماماً مفسداً بذلك بدلته الأنيقة ذات اللون الفاتح. أومأ إليّ وقال: نعم يا صديقي... إن إفساد بدلتي على هذا النحو مناقض لكل طبائعي، ولكن ماذا عساني أفعل؟

- ولكن من غير الممكن أن يكون لافنغتن قد دفنها تحت الفحم؟

- لو أنك استخدمت عينيك لرأيت أن ما أتفحصه ليس الفحم.

رأيت على رفّ خلف حاوية الفحم بعض جذوع الحطب المكومة. كان بوارو ينزل تلك الجذوع ببراعة واحداً بعد الآخر، وفجأة هتف بصوت منخفض: أعطني سكينك يا هيستنغز!

أعطيته إياها. وبدا وكأنه يدخلها في الجذع الخشبي، وفجأة انفلقت الحطبة إلى نصفين. كانت قد نُشرت بشكل متقن من

المتصف وحفرت فجوة في وسطها. أخرج بوارو من تلك الفجوة علبه خشبية صغيرة صينية الصنع.

صحت وقد نسيت نفسي: أحسنت صنعاً!

- بهدوء يا هيستنغز! لا ترفع صوتك كثيراً. تعال، دعنا ننصرف قبل أن يداهمنا ضوء النهار.

دسّ العلبة الخشبية في جيبه، وقفز بخفة من سلة الفحم، ونفض الأوساخ عن ثيابه قدر المستطاع. وبعد أن غادرنا المنزل -بنفس الطريقة التي دخلناه بها- انطلقنا بسرعة باتجاه لندن.

قلت: ولكن يا له من مخبأ غريب! كان يمكن لأي واحد أن يستخدم الحطبة للوقود.

- في شهر تموز يا هيستنغز؟ كما أنها كانت في أسفل كومة الحطب... مخبأ عبقري جداً. آه، ها هي سيارة أجرة قادمة! والآن إلى البيت، وبعدها حمّام يزيل عنا الأوساخ، ثم نومة تعيد النشاط.

* * *

بعد انفعالات تلك الليلة نمت إلى وقت متأخر. وعندما توجهت أخيراً إلى غرفة الجلوس قُبيل الساعة الواحدة ظهراً فوجئت برؤية بوارو وقد استند إلى الخلف في أريكته، والعلبة الصينية مفتوحة بجانبه، وهو يقرأ -بهدوء- الرسالة التي أخرجها من العلبة.

ابتسم لي بمودة، ونقر بأصبعه على الورقة التي يحملها وقال: لقد كانت الليدي ميليسنت صادقة تماماً فيما قالته. لم يكن الدوق

ليغفر مثل هذه الرسالة! إنها تحوي بعضاً من أكثر عبارات الحب والعشق التي صادفتها في حياتي تهوراً وإسرافاً.

قلت بشيء من التقزز: لا أعتقد -فعلاً- يا بوارو أن من حقك قراءة الرسالة؛ فمثل هذه الأمور ينبغي عدم فعلها.

أجاب صديقي بهدوء: إن هيركيول بوارو يفعلها.

- وأمر آخر... فأنا أعتقد أن استخدام بطاقة تعريف خاصة بالمفتش جاب البارحة لم يكن أبداً من أصول اللعبة.

- ولكنني لم أكن ألعب لعبة يا هيستنغز، بل كنت أحل قضية.

رفعت كتفيّ امتعاضاً؛ فلا يمكن للمرء أن يحاجج في وجهة نظر مع بوارو، أما هو فقال: أسمعُ خطواتٍ على الدرج، لا بد أنها الليدي ميليسنت.

دخلت زبونتنا الحسناء وعلى وجهها تعبير لهفةٍ تغير إلى تعبير سعادة لدى رؤيتها الرسالة والعلبة اللتين رفعهما بوارو أمامها. قالت: آه يا سيد بوارو. كم هو رائع منك ما فعلت! كيف فعلت ذلك؟

- بأساليب تستحق الشجب نوعاً ما يا سيدتي. ولكن السيد لافنغتن لن يمضي -بعد- في مضايقتك. ها هي رسالتك، أليست هي؟

ألقت نظرة على الرسالة ثم قالت: بلى، كيف لي أن أشكرك! إنك رجل رائع، رائع. أين كانت مخبأة؟

أخبرها بوارو بذلك، فقالت: "كم هو ذكيّ منك ما فعلته!"، وتناولت العلبة الصغيرة عن الطاولة قائلة: سأحتفظ بها تذكاراً.

– كنت آمل -يا سيدتي- أن تسمحي لي بأن أحتفظ بها أنا... أيضاً تذكاراً.

– آمل أن أرسل لك تذكاراً أفضل من هذا في يوم زواجي. سوف لن تجدني قليلة العرفان يا سيد بوارو.

– إن سعادتي في أداء خدمة لك أكبر من أي مال، ولذلك اسمحي لي بالاحتفاظ بالعلبة.

صاحت ميليسنت وهي تضحك: "آه، كلا يا سيد بوارو. عليّ -ببساطة- أن آخذ العلبة". ومدّت يدها لتأخذها ولكن بوارو سبقها فغطّى العلبة بيده وقال بصوت تغيرت نبرته: لا أعتقد ذلك.

بدا وكأن صوتها يزداد حدة وهي تقول: ما الذي تعنيه؟

– اسمحي لي -على أي حال- أن أستخرج محتوياتها الأخرى. لعلكِ لاحظتِ بأن الفراغ الأصلي للعلبة تم اختصاره بمعدل النصف. في النصف العلوي توجد الرسالة الغرامية، وفي النصف السفلي...

ثم قام بحركة رشيقة، مدّ بعدها يده وفي راحتها أربعة أحجار كريمة ضخمة برّاقة، ولؤلؤتان كبيرتان بلون الحليب.

تمتم بوارو: الجواهر التي سُرقت من شارع بوند قبل أيام كما يخيل إليّ... جاب سيخبرنا إن كانت كذلك.

كان من دواعي دهشتي التامة أن يخرج جاب من غرفة نوم

بوارو. قال بوارو يخاطب الليدي ميليسنت بأدب: أعتقد أنه من أصدقائك القدامى.

قالت الليدي ميليسنت وقد تغير سلوكها تماماً: "اعتُقلت والله! يا لك من شيطان عجوز لعين!". ثم نظرت إلى بوارو برهبة تكاد تصل حدّ الإعجاب.

قال لها جاب: حسناً يا عزيزتي غِيرْتي... أظن أن اللعبة انتهت هذه المرة. ما أروع أن أراك ثانية بهذه السرعة! لقد وقع زميلك أيضاً، الرجل الذي أتى إلى هنا أمس وقد سمّى نفسه لافنغتن. أما لافنغتن الحقيقي نفسه، المعروف باسم كروكر أيضاً، وباسم ريد، فلا أدري أيّ رجال العصابات طعنه بسكين قبل أيام في هولندا. لقد ظننتِ أنه أخذ «البضاعة» معه، أليس كذلك؟ ولكنه لم يأخذها. لقد خدعك بشكل ذكي، وخبأ الجواهر في بيته. ولقد استأجرتِ رجلين للبحث عنها، ثم اتصلتِ بالسيد بوارو هنا، وقد وجدها بضربة حظ عجيبة.

قالت الليدي المزوَّرة: إنك تحب الكلام حقاً، أليس كذلك؟ على رسلك، لا داعي للشدة. سأذهب معك بهدوء... لا يمكنك الادعاء بأنني لست سيدة كاملة. وداعاً جميعاً!

قال بوارو حالماً فيما كنت أنا ذاهلاً عن الكلام: كان الخطأ في حذائها. لقد جمعتُ كثيراً من الملاحظات الصغيرة عن شعبك الإنكليزي، ومن هذه الملاحظات أن سيدةً ابنة عائلة، ذات منبت كريم، تكون -عادة- شديدة الاهتمام بحذائها. قد تكون رثة الملابس، ولكنها تكون -مع ذلك- جيدة الحذاء. أما هذه الليدي ميليسنت فقد ارتدت ملابس أنيقة باهظة الثمن، وحذاء رخيصاً.

لم يكن من المحتمل أن نكون أنا أو أنت قد رأينا الليدي ميليسنت الحقيقية؛ فهي نادراً ما تكون في لندن. وهذه الفتاة لديها شبه ظاهري بها يمكن له أن يمرر الخدعة بشكل جيد. وكما قلتُ: لقد كان الحذاء هو أول ما أيقظ شكوكي، ثم قصتها، وخمارها... كانا مؤثرين قليلاً، أليس كذلك؟ ولا بد أن العلبة الصينية التي تحوي الرسالة الغرامية المزيفة في فجوتها العليا كانت معروفة لكل العصابة، ولكن حطبة الخشب كانت فكرة السيد لافنختن الراحل.

آه، ولذلك يا هيستنغز فإنني آمل أن لا تجرح مشاعري ثانية كما فعلت أمس بقولك إنني غير معروف في عالم الإجرام؛ فحتى المجرمون يلجؤون إليّ عندما يفشلون هم شخصياً!

* * *

مشكلة في عرض البحر

قال الجنرال فوربس بشيء من الاستهجان: الكولونيل كلابْرتن!

تقدمت الآنسة إيلي هندرسن بجسمها إلى الأمام، وتدلت خصلة من شعرها الأشيب الناعم أمام وجهها، والتمعت عيناها السوداوان الحادتان بمتعة شريرة، وقالت بشكل ينم عن ضغينة: "يا له من رجل عسكري الهيئة!". ثم ردّت خصلة شعرها إلى الوراء بانتظار جواب جملتها.

انفجر الجنرال فوربس قائلاً: "عسكري!". وشدّ شاربه العسكري وأصبح وجهه أحمر متوهجاً.

تمتمت الآنسة هندرسن لتكمل مهمتها: لقد كان في الحرس، أليس كذلك؟

هتف الجنرال فوربس: الحرس؟ الحرس؟ هذا هراء! لقد كان الرجل على خشبة مسرح المنوعات! حقيقة! التحق بالخدمة العسكرية وذهب إلى فرنسا ليعُدّ معلبات الخوخ والتفاح. وقد أسقط الألمان قنبلة طائشة، مما جعله يعود إلى الوطن بجرح سطحي في ذراعه. ثم وصل -بشكل أو بآخر- إلى مستشفى الليدي كارينغتن.

- إذن فبهذه الطريقة التقيا.

- حقيقة! وقد لعب صاحبنا دور البطل الجريح. كانت الليدي كارينغتن تملك محيطاتٍ من المال، ولا تملك عقلاً. كان زوجها العجوز كارينغتن في قسم الأسلحة والذخائر. وعندما التقاها كلابترين لم يكن قد مرّ على ترمّلها سوى ستة أشهر... وقد تلقفها صاحبنا بأقصى سرعة. احتالت له للحصول على وظيفة في وزارة الدفاع، وأصبح الكولونيل كلابترين! هاه!

رددت الآنسة هيندرسن بتأمل: "وقبل الحرب كان يعمل على خشبة مسرح المنوعات". محاولة بهذا القول أن تربط ثانية بين الكولونيل المتميز ذي الشعر الأشيب كلابترين وبين مهرج أحمر الأنف يقدم أغنيات تبعث على الفرح.

قال الجنرال فوربس: حقيقة! سمعت ذلك من باسينغتن فرينتش العجوز. وقد سمعها هو من بادغار كوتيريل العجوز الذي أخذها عن سنوكز باركر.

هزّت الآنسة هندرسن رأسها بسعادة وقالت: ذلك يؤكد القصة كما يبدو.

التمعت ابتسامة سريعة للحظة واحدة على وجه رجل ضئيل الجسم يجلس بجانبهما. وقد لاحظت الآنسة هندرسن الابتسامة، إذ كانت شديدة الملاحظة. كانت الابتسامة قد أظهرت تقديراً للسخرية والتهكم الذي انطوت عليه عبارتها الأخيرة، وهو تهكم لم يخطر ببال الجنرال للحظة واحدة أن يرتاب به.

أما الجنرال نفسه فإنه لم يلحظ الابتسامة. ألقى نظرة على ساعته ثم نهض قائلاً: "التمرين... على المرء أن يحافظ على رشاقته على متن السفينة"، وعبر الباب المفتوح خارجاً إلى سطح المركب.

ألقت الآنسة هندرسن نظرة على الرجل الذي ابتسم، وكانت نظرتها مؤدبة تشير إلى استعدادها للدخول في حديث مع رفيق سفر. قال الرجل الضئيل: إنه ذو جسم نشيط، أليس كذلك؟

أجابت الآنسة هندرسن: إنه يمشي حول سطح السفينة ثمانياً وأربعين دورة بالضبط. يا له من ثرثار عجوز! ويقولون بعد ذلك أننا، نحن، الجنس الذي يحب الغيبة والقيل والقال.

علق الرجل الضئيل قائلاً: يا لها من قلة أدب!

– الفرنسيون دائماً مؤدبون.

كان في صوتها أثر لسؤال فأجابها الرجل الضئيل بسرعة: بلجيكي يا آنسة.

– آه... بلجيكي!

قال الرجل الضئيل: اسمي هيركيول بوارو، في خدمتك.

أثار الاسم ذكرى معينة في عقلها. لا شك أنها سمعته من قبل. قالت: هل أنت مستمتع بهذه الرحلة يا سيد بوارو؟

– بصراحة، لا؛ لقد كان من الحماقة أن أسمح لنفسي بالمجيء. إنني أمقت البحر؛ فهو لا يهدأ أبداً، ولا لدقيقة واحدة.

- حسناً، ولكن يجب أن تعترف أنه هادئ تماماً الآن.

اعترف السيد بوارو بذلك على مضض وقال: في هذه اللحظة نعم. ولذلك انتعشت، وبدأت أهتم من جديد بما يدور حولي... ومن ذلك -مثلاً- تعاملك الحاذق مع الجنرال فوريس.

قالت الآنسة هندرسن: "هل تعني...؟" ثم توقفت.

انحنى هيركيول بوارو لها وقال: وسائلك في استخراج خفايا الأمور وأسرارها مدهشة!

ضحكت الآنسة هندرسن بأسلوب من لا يشعر بالحرج وقالت: "تلك الإشارة إلى الحرس؟ كنت أعرف أن من شأن ذلك أن يجعل الجنرال العجوز يدمدم ويتلهف للكلام". ثم مالت بجذعها إلى الأمام بثقة، وقالت: أعترف بأنني أحب الفضائح، وكلما ازداد سوؤها وفظاظتها كان ذلك أفضل!

نظر بوارو إليها بإمعان، إلى هيئتها النحيلة التي حافظت عليها بشكل جيد، إلى عينيها السوداوين الحادتين، وإلى شعرها الأشيب، امرأة في الخامسة والأربعين من عمرها قانعة بأن تبدو بعمرها الحقيقي.

فجأة قالت: تذكرت! ألست أنت رجل التحري العظيم؟

انحنى لها بوارو وقال دون أن يظهر أيّ إنكار: إنك لطيفة جداً يا آنسة.

- كم هو مرعب! أأنت «في إثر طريدة تتعقبها» كما يقولون في

القصص؟ وهل بيننا مجرم اندسّ سراً، أم أنني -في أسئلتي هذه- أثرثر فيما ينبغي كتمانه؟

- أبداً، أبداً. يؤسفني أن أخيب آمالك؛ فأنا موجود هنا -مثل غيري- للترفيه عن نفسي فقط.

قال ذلك بصوت مكتئب مما دعا الآنسة هندرسن للضحك. قالت: حسناً! سيكون بمقدورك أن تنزل إلى البر غداً في الإسكندرية. هل زرت مصر من قبل؟

- أبداً يا آنسة.

نهضت الآنسة هندرسن بشكل مفاجئ بعض الشيء وقالت: أظن أنني سأنضم إلى الجنرال في رياضته.

نهض بوارو واقفاً بأدب. أحنت له رأسها قليلاً وخرجت إلى سطح المركب. ظهرت في عيني بوارو -لبرهة- نظرة حيرة طفيفة، ثم نهض وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة صغيرة، فأخرج رأسه من الباب إلى سطح السفينة. كانت الآنسة هندرسن متكئةً على سياج السفينة تتحدث مع رجل طويل ذي جسم عسكري السمات.

اتسعت ابتسامة بوارو. عاد لينسحب ويدخل الغرفة بنفس العناية البالغة التي تنسحب بها السلحفاة إلى داخل قوقعتها. في تلك اللحظات كان وحده في الغرفة، لكن حدسه الصائب أنبأه بأن ذلك لن يدوم طويلاً. وهكذا كان، فقد دخلت السيدة كلابيرتن بشعرها البلاتيني المموج بشكل دقيق والمحمي بشبكة تضمه، وبجسمها الذي اعتاد التدليك والحِمية وقد ارتدت بدلة رياضية أنيقة... دخلت

من الباب بمظهرٍ ينم عن امرأة استطاعت دوماً أن تدفع أعلى الأسعار لأي شيء تريده. قالت: جون...؟ آه! صباح الخير يا سيد بوارو، هل رأيت جون؟

- إنه على الجانب الأيمن من سطح المركب. أتريدين أن...

أوقفته بإشارة من يدها وقالت: سأجلس هنا لبرهة.

ثم جلست بأسلوب فخم على الكرسي المقابل له. بدت من بعيد وكأنها في الثامنة والأربعين، أما الآن، فبالرغم من وجهها المزين بالمساحيق بكل إتقان وحاجبيها المنتوفين بكل دقة، فإنها لم تكن تظهر ابنة تسعٍ وأربعين -كما هو عمرها حقاً- بل ربما ابنة خمسٍ وخمسين. كانت عيناها زرقاوين زرقة شاحبة، ذواتي بؤبؤين صغيرين. قالت السيدة كلابيرتن: لقد أسفت لعدم رؤيتك على طعام العشاء ليلة أمس. كان البحر هائجاً قليلاً بالطبع...

قال لها بوارو متأثراً: بالضبط.

- إنني -لحسن الحظ- بحّارة ماهرة. وأقول: «لحسن الحظ» لأنه في حالة قلبي الضعيف فإن غثيان البحر يقتلني.

- أفي قلبك ضعف يا سيدتي؟

- نعم، وعليّ أن أكون حذرة إلى أبعد الحدود. عليّ أن لا أجهد نفسي. كل المختصين يقولون ذلك!

وهكذا شرعت السيدة كلابيرتن في الموضوع الذي يشكل -بالنسبة لها- حديثاً شيقاً جداً، وهو موضوع صحتها: إن حبيبي

المسكين جون يهلك نفسه في محاولة منعي من العمل كثيراً، ولكنني أعيش حياتي بكل قوة، إن كنت تفهم ما أعنيه يا سيد بوارو؟

- نعم، نعم.

- إنه يقول لي دوماً: «حاولي أن تكوني أكثر نباتية يا أديلين». ولكنني لا أستطيع. لقد خُلقت الحياة لنحياها، هذا ما أحسه. والحقيقة أنني أتعبت نفسي كثيراً عندما كنت فتاة أثناء الحرب. فمستشفاي.. لا شك أنك سمعت به؟ كان لدي بالطبع ممرضات ومسؤولات تمريض وغير ذلك... ولكنني كنت أنا عملياً من يدير المستشفى.

تنهدت. وقال بوارو بأسلوب آلي بعض الشيء، كشخص جاء دوره في الكلام: إن حيويتك رائعة يا سيدتي العزيزة!

ضحكت السيدة كلابيرتن ضحكة فتاة وقالت: "الجميع يتعجبون من صغر سني! يا للسخافة. إنني لم أحاول أبداً التظاهر بأن سنيّ أقل من ثلاث وأربعين سنة، ولو بيوم واحد". ثم تابعت بصراحة كاذبة بعض الشيء: ولكن كثيراً من الناس يجدون صعوبة في تصديق ذلك، فيقولون لي: "إنك حيوية جداً يا آديلين". ولكن حقاً يا سيد بوارو، ماذا عسى الإنسان أن يكون إن لم يكن حيّاً؟

- ميتاً.

تجهم وجه السيدة كلابيرتن؛ فالجواب لم يرق لها. وفكرت بأن هذا الرجل يحاول أن يكون ظريفاً. نهضت وقالت ببرود: عليّ أن أجد جون.

وبينما هي تهتم بعبور الباب سقطت حقيبة يدها، فانفتحت وتبعثرت محتوياتها على الأرض، واندفع بوارو بشهامة لإنقاذ الموقف. مضت بضع دقائق قبل أن يتم جمع أقلام الحمرة وعلب المساحيق وعلبة لفائف التبغ والقداحة وغيرها من الغرائب والخرداوات. شكرته السيدة كلابيرتن بأدب، ثم انسلّت إلى سطح المركب وهي تنادي: "جون..."

كان الكولونيل كلابيرتن غارقاً -حتى ذلك الحين- في الحديث مع الآنسة هندرسن. دار وأتى مسرعاً لملاقاة زوجته. انحنى فوقها كمن يحدب عليها، وأخذ يتأكد من راحتها، هل كرسيها في مكانه الصحيح؟ أليس من الأفضل تعديله؟ كان مهذباً في أسلوبه، ينضح بالرعاية والاهتمام الرقيق. الواضح أنها زوجة محبوبة أفسدها دلال زوج محب.

سرحت الآنسة هندرسن بناظريها في الأفق بشكل أوحى أن في الأمر ما أثار اشمئزازها، فيما وقف بوارو بالباب ينظر. سمع من خلفه صوتاً أجش متهدجاً يقول: "لو كنت زوج تلك المرأة لضربتها بفأس". كان ذلك صوت الرجل العجوز المعروف بين جيل الشباب الأصغر سناً على متن المركب -على سبيل التهكم- بأنه "جَدُّ كل مزارعي الشاي"، وكان قد دخل لتوه الغرفة وصاح: "يا ولد!... جئني بفنجان قهوة!".

انحنى بوارو ليلتقط قصاصة ممزقة من الورق أغفلت من بين محتويات حقيبة السيدة كلابيرتن، ولاحظ أنها كانت جزءاً من وصفة طبية تحتوي على دواء ديجيتالين الذي يستخدم منبهاً للقلب. وضعها

في جيبه بقصد إعادتها للسيدة كلابيرتن فيما بعد.

في هذه الأثناء كان الرجل العجوز يمضي في حديثه: نعم، إنها امرأة خطيرة. أتذكّر أنني عرفت امرأة مثلها في بونا قبل سنوات طويلة.

سأله بوارو: وهل ضربها أحد بفأس؟

هز العجوز رأسه وقال: لقد أزعجت زوجها حتى أوردته قبره خلال عام واحد. ينبغي على كلابيرتن أن يفرض نفسه... إنه يتركها تتصرف على هواها، ويفرط في ذلك.

قال بوارو بهدوء: إنها تمسك بخيوط محفظة النقود.

قهقه العجوز: ها، ها... لقد أحسنت التعبير تماماً. تمسك بخيوط محفظة النقود. ها، ها!

دخلت فتاتان فجأة إلى الغرفة. كانت إحداهما ذات وجه دائري مُنمّش، وشعر أسود طويل عبثت به الريح، وكان للفتاة الأخرى نمش أيضاً وشعر كستنائي معقوص.

صاحت كيتي موني: إنقاذ... إنقاذ! أنا وياميلا سننقذ الكولونيل كلابيرتن.

أضافت باميلا كريغن: سننقذه من زوجته.

قالت كيتي: نظنه لطيفاً محبوباً...

وتبعتها باميلا قائلة: وهي فظيعة تماماً، لا تدعه يفعل شيئاً أبداً!

كيتي: وإلّم يكن معها، تجدونه دوماً وقد استحوذت عليه تلك المرأة هندرسن...

باميلا: وهي لطيفة تماماً، ولكنها متقدمة جداً بالسن.

ثم خرجتا وهما تلهثان وتتضاحكان: إنقاذ... إنقاذ...

بدا واضحاً في تلك الأمسية ذاتها أن إنقاذ الكولونيل كلابيرتن لم يكن اندفاعة وقتية، بل مخططاً مرسوماً. وقد اتضح ذلك عندما تقدمت باميلا كريغن ذات الثمانية عشر ربيعاً من هيركيول بوارو وهمست له قائلة: راقبنا يا سيد بوارو. سننتزعه من أمام عينيها ونأخذه للتنزه في ضوء القمر على سطح المركب.

في تلك اللحظة تماماً كان الكولونيل كلابيرتن يقول: "إنني أوافقك بخصوص سعر سيارة الرولز رويس، ولكنها -عملياً- تبقى صالحة مدى الحياة. فمثلاً سيارتي...". قاطعته السيدة كلابيرتن بصوت حاد نافذ: "أظن أنها سيارتي أنا يا جون". لم يُبدِ انزعاجاً من فظاظتها. إما لأنه قد أصبح -بمرور الوقت- معتاداً على هذه الفظاظة، أو أنه...

وفكّر بوارو في نفسه: "أو أنه ماذا؟". وأطلق العنان لتأملاته.

انحنى كلابيرتن لزوجته وقال: بالتأكيد يا عزيزتي، سيارتك أنت. ثم أكمل ما كان يقول دون أي كدر.

فكرّ بوارو: هذا ما أدعوه «السيد الماجد». ولكن الجنرال فوربس يقول إن كلابيرتن لم يكن سيداً ماجداً البتة. إنني لأعجب الآن!

طُرح اقتراح لعبه بريدج. وجلس للعب كل من السيدة كلابيرتن والجنرال فوريس وشخصان آخران حديدا البصر أما الآنسه هندرسن فقد اعتذرت وخرجت إلى سطح المركب.

سأل الجنرال فوربس متردداً: ماذا بشأن زوجك؟

أجابته السيدة كلابيرتن إنه لا يرغب باللعب، وتلك مسألة مزعجة فيه.

بدأ لاعبو البريدج الأربعة بتوزيع الورق. تقدمت باميلا وكيتي من الكولونيل كلابيرتن وأمسكت كل واحدة منهما بإحدى ذراعيه، وقالت باميلا ستأتي معنا!... إلى ظهر المركب، فالقمر في تمامه.

قالت السيدة كلابيرتن. "لا تكن أحمق يا جون، ستصاب بالبرد" ولكن كلابيرتن ضحك ومضى معهما.

لاحظ بوارو أن السيدة كلابيرتن قالت: «باص» عندما أتى دورها الأول في اللعب على ورقتي السباتي في البداية بعد ذلك خرج إلى سطح المركب المخصص للتنزه. كانت الآنسة هندرسن تقف قرب سياج المركب. نظرت حولها بترقب فيما اقترب ليقف إلى جانبها، ورأى الخيبة على محياها. تبادلا الحديث لبعض الوقت. وحين صمت بوارو قالت فجأة: ما الذي تفكر فيه؟

إنني أتساءل عن معرفتي للغة الإنكليزية. فقد قالت السيدة كلابيرتن: «جون لا يرغب بلعب البريدج»، ولكن أليست العبارة المعتادة هي «لا يجيد» لعب البريدج؟

- أظنها تعتبر عدم إجادته للعبة إهانة شخصية لها لقد كان

هذا الرجل مغفلاً إذ تزوجها.

ابتسم بوارو في الظلمة، ثم سألها بخجل وارتباك: ألا تظنين أنه ربما يكون هذا الزواج ناجحاً؟

- مع امرأة كهذه؟

رفع بوارو كتفيه حيرة وقال: لدى كثير من النساء البغيضات أزواج محبون مخلصون... ذلك واحد من ألغاز الطبيعة. عليك أن تعترفي بأن الظاهر أن شيئاً مما تقوله أو تفعله لا يغيظه أو يثيره أبداً.

وفيما كانت الآنسة هندرسن تفكر في الجواب سُمع صوت السيدة كلابيرتن من خلال النافذة: لا... لا أعتقد أنني سألعب جولة أخرى؛ الجو خانق هنا. سأخرج لأشم بعض الهواء على سطح المركب.

قالت الآنسة هندرسن: "طاب مساؤك يا سيد بوارو. أنا ذاهبة للنوم". ثم اختفت بسرعة، وتقدم بوارو إلى الردهة التي كانت خالية إلا من الكولونيل كلابيرتن والفتاتين. كان يؤدي بعض الحيل في ورق اللعب أمام الفتاتين. وقد تذكر بوارو -عندما لاحظ براعته في خلط الورق والتلاعب به- قصة الجنرال التي قال فيها إن كلابيرتن كان صاحب أدوار على خشبة مسرح المنوعات.

قال بوارو: أرى أنك تحب الورق رغم أنك لا تلعب البريدج.

قال كلابيرتن وقد أشرقت ابتسامته الساحرة: لديّ أسبابي في عدم لعب البريدج. سأريك، سنلعب دوراً واحداً.

وزّع الأوراق بسرعة وقال: ارفعوا أوراقكم. حسناً، كيف رأيتم؟

ضحك من تعبير الذهول الذي طغى على وجه كيتي. ثم كشف أوراقه وتبعه الآخرون في كشف ورقهم: كان لدى كيتي كل ورق السباتي، ولدى بوارو ورق الكبة كله، ولدى باميلا الديناري، ولدى الكولونيل كلابيرتن البستوني.

قال كلابيرتن: أرأيت؟ إن شخصاً يستطيع أن يوزع لشريكه ولخصومه أي نوع من الأوراق يريده من الأفضل له أن يتنحى جانباً ولا يشترك في لعبة بين الأصحاب! فإن حالفه الحظ كثيراً ربما قيلت فيه كلمات سيئة.

شهقت كيتي قائلة: آه! كيف استطعت فعل لك؟ بدا خلطك للأوراق طبيعياً تماماً.

قال بوارو بلهجة الواعظ: إن خفة اليد وسرعتها تخدع النظر.

ثم انتبه للتغيير المفاجئ في سيماء الكولونيل... بدا وكأنه أدرك بأنه قد نسي نفسه لدقيقة أو دقيقتين. ابتسم بوارو؛ لقد أظهر الساحر نفسه من خلف قناع السيد الماجد.

* * *

. وصلت السفينة إلى الإسكندرية فجر اليوم التالي. وعندما صعد بوارو الى السطح -بعدما أنهى إفطاره- وجد الفتاتين على أتم استعداد للنزول إلى البر. كانتا تتحدثان إلى الكولونيل كلابيرتن.

شهقت كيتي قائلة: ينبغي أن ننزل الآن. سيصعد مسؤولو الجوازات إلى المركب. ستأتي معنا، أليس كذلك؟ لا يمكنك أن

تتركنا ننزل إلى البر وحدنا... فقد تحدث لنا أشياء فظيعة!

ابتسم كلابيرتن وقال: مؤكد أنني لا أحبذ ذهابكما وحدكما؛ ولكنني لست واثقاً من أن زوجتي مستعدة للنزول.

قالت باميلا: هذا أمر سيء جداً. ولكن بوسعها أن تتمتع بفترة راحة طويلة رائعة.

بدا الكولونيل كلابرتن متردداً قليلاً. كان واضحاً أن رغبته بالتحرر والخروج كانت تطغى عليه. لاحظ قدوم بوارو فقال: مرحباً يا سيد بوارو. ستنزل إلى البر؟

- كلا، لا أعتقد.

حسم كلابيرتن أمره وقال: سوف... سأتكلم قليلاً مع أديلين.

قالت باميلا: "سنأتي معك". ثم ومضت منها غمزة لبوارو، وأضافت بهدوء: ربما استطعنا إقناعها بالنزول هي الأخرى.

بدا وكان الكولونيل كلابيرتن يرحب بهذا الاقتراح، وبدا مرتاحاً بلا ريب. قال: هيا إذن.

وذهب الثلاثة عبر الممر سوياً. أما بوارو، الذي كانت مقصورته مقابل مقصورة عائلة كلابيرتن تماماً، فقد تبعهم بدافع الفضول. طرق الكولونيل كلابيرتن الباب بشيء من الارتباك وقال: آديلين، عزيزتي، أأنت صاحية؟

أجاب صوت السيدة كلابيرتن الناعس من الداخل: آه، يا للإزعاج... ما الأمر؟

- هذا أنا، جون. ما رأيك بالنزول إلى البر؟

أجابت بصوت حاد وحاسم: كلا بالتأكيد. لقد قضيت ليلة سيئة جداً، وسأبقى في الفراش معظم النهار.

تدخلت باميلا بسرعة قائلة: آه يا سيدة كلابيرتن، إنني آسفة جداً. ولكننا أردنا كثيراً أن تأتي معنا. هل أنت واثقة أنك غير مستعدة لذلك؟

بدا صوت السيدة كلابيرتن أكثر حدة وهي تقول: واثقة تماماً!

كان الكولونيل يدير قبضة الباب دونما نتيجة. صاحت به زوجته: ما الأمر يا جون؟ الباب مقفل؛ لا أريد أن يزعجني المضيفون.

- أنا آسف يا عزيزتي، ولكنني أردت كتاب دليل الرحلات.

صاحت السيدة كلابيرتن بحدة: حسناً، لا يمكنك أن تأخذه، لن أقوم من فراشي. امضِ بعيداً يا جون ودعني أحصل على شيء من الراحة.

- بالتأكيد، بالتأكيد يا عزيزتي.

ثم ابتعد عن الباب، وتبعته باميلا وكيتي، وقالت باميلا: دعنا ننطلق على الفور. الحمد لله أن قبعتك فوق رأسك. آه، يا إلهي... لا أظن أن جواز سفرك في المقصورة، أهو هناك؟

- الحقيقة أنه في جيبي...

ضغطت كيتي على ذراعه وهتفت: عشت! والآن، هيا.

راقب بوارو -وهو يتكئ على السياج الثلاثة وهم يغادرون المركب، ثم سمع صوت تنفس بقربه، فالتفت ليرى الآنسة هندرسن كانت عيناها مركزتين على الأشخاص الثلاثة وهم يبتعدون.

قالت بهدوء: إذن، فقد نزلوا إلى البر!

- نعم، أأنت نازلة؟

كانت ترتدي قبعة شمسية كما لاحظ بوارو، وتحمل حقيبة جميلة، وتنتعل حذاء أنيقاً. كان كل مظهرها يدل على نية النزول إلى البر. ومع ذلك -وبعد فترة صمت قصيرة جداً- هزت رأسها بالنفي وقالت: كلا. أعتقد أنني سأبقى على متن المركب. لدي كثير من الرسائل التي يتوجب عليّ أن أكتبها.

ثم دارت وتركته. و حل محلّها الجنرال فوربس وهو يلهث بعد جولته الصباحية ذات الدورات الثماني والأربعين حول سطح المركب. وعندما لاحظ الأجسام المبتعدة للكولونيل والفتاتين هتف قائلاً: آها! تلك هي اللعبة إذن! وأين المدام؟

شرح له بوارو بأن السيدة كلابيرتن تقضي يوماً هادئاً في سريرها فيما أطبق المحارب العجوز واحدة من عينيه الخبيرتين غامزاً وقال: وهل تصدق ذلك! ستنهض لتناول طعام الغداء... ولو تبين أن ذلك الشيطان المسكين غائب دون إذن، فستحدث مشاجرات.

ولكن تخمينات الجنرال لم تتحقق، لم تظهر السيدة كلابيرتن على الغداء، وحتى عودة الكولونيل والفتاتين المرافقتين له إلى السفينة عند الساعة الرابعة لم تكن قد خرجت بعد

كان بوارو في مقصورته، وسمع قرع الزوج -الذي يكاد يوحي بالشعور بالذنب- على باب مقصورته. ثم سمع القرع يتكرر، ومحاولة فتح باب المقصورة، وأخيراً سمع الكولونيل ينادي أحد المضيفين: اسمع، هنا، لا يوجد جواب. هل لديك مفتاح؟

نهض بوارو عن سريره بسرعة وخرج إلى الممر.

* * *

انتشر النبأ في السفينة انتشار النار في الهشيم، وسمع الناس بشكٍّ وذعر أن السيدة كلابيرتن قد وُجدت مقتولة في سريرها، وأن خنجراً من صنع محلي نفذ إلى قلبها، وقد عُثر على سبحة من الكهرمان على أرضية مقصورتها.

وتتالت الشائعات واحدة إثر أخرى: قيل إنه تم اعتقال كل باعة المسابح الذين سُمح لهم بالصعود إلى المركب في ذلك اليوم، وتم التحقيق معهم! وقيل إن مبلغاً ضخماً من المال قد اختفى من درج المقصورة! وإن أرقام الأوراق النقدية قد تم التوصل إليها! وإنها لم يتم التوصل إليها! وإن جواهر تشكّل ثروة هائلة قد سرقت! وإنه لم تسرق جواهر على الإطلاق! وإن أحد المضيفين قد اعتُقل واعترف بارتكاب الجريمة!

استوقفت الآنسة هندرسن بوارو وسألته: ما حقيقة ذلك كله؟

كان وجهها شاحباً قلقاً. قال بوارو: يا سيدتي العزيزة، كيف لي أن أعرف؟

- طبعاً أنت تعرف.

كان وقتاً متأخراً من الليل، وقد أوى أغلب المسافرين إلى مقصوراتهم. اقتادت الآنسة هندرسن بوارو إلى كرسيين من كراسي سطح المركب في الجانب المسقوف منه، ثم سألته: والآن، قل لي؟

تفحصها بوارو بإمعان ثم قال: إنها قضية مثيرة.

- هل صحيح أن بعض الجواهر الثمينة قد سُرقت منها؟

هز بوارو رأسه بالنفي وقال: كلا... لم تسرق أي جواهر، مع أن مبلغاً بسيطاً من النقود كان متروكاً هناك قد اختفى.

ارتعدت الآنسة هندرسن وقالت: لن أشعر بالأمان أبداً على متن سفينة بعد اليوم. وهل توفّر دليل يقود إلى من ارتكب الجريمة؟

- كلا. يبدو الأمر غريباً بعض الشيء.

- ما الذي تعنيه؟

مد بوارو يديه حيرة وقال: حسناً، فلتأخذي الحقائق: كانت السيدة كلايبرتن قد ماتت قبل خمس ساعات على الأقل من اكتشاف موتها. وقد اختفت بعض النقود، ووجدت سبحة على الأرض قرب سريرها. كان الباب مقفلاً، والمفتاح مفقوداً. وكانت النافذة تطل على سطح المركب، نافذة... وليس كوّة صغيرة.

سألته وقد نفد صبرها: والنتيجة؟

- ألا تعتقدين بأنّ من الغريب أن تُرتكب جريمة قتل في ظل

هذه الظروف المحددة؟ تذكّري أن باعة البطاقات البريدية، وصرافي النقود، وباعة المسابح ممن سُمح لهم بالصعود إلى متن المركب كلهم معروفون جيداً لدى الشرطة.

- ولكن المضيفين يقفلون المقصورات عادة.

- نعم، منعاً من احتمالات حدوث سرقات صغيرة. ولكن هذه كانت جريمة قتل.

- ما الذي تفكر فيه بالضبط يا سيد بوارو؟

بدا صوتها لاهثاً بعض الشيء. قال بوارو: أفكر في الباب المقفل.

فكرت الآنسة هندرسن بذلك ثم قالت: لا أرى في ذلك أمراً ذا بالٍ؛ فقد غادر القاتل الغرفة من الباب، ثم أقفله خلفه وأخذ المفتاح معه بحيث يتم تجنب اكتشاف الجريمة بشكل سريع. كان ذلك تصرفاً ذكياً منه؛ لأن الجريمة لم تكتشف حتى الساعة الرابعة بعد الظهر.

- كلا، كلا يا آنسة. إنك لا تُقدّرين النقطة التي أحاول إيضاحها؟ فأنا لست حائراً في طريقة خروجه، ولكن في طريقة دخوله!

- من النافذة طبعاً.

- هذا ممكن. ولكنه مدخل محفوف بالمخاطر، وقد كان ثَمّ أناسٌ يروحون ويغدون على سطح المركب طوال الوقت، ألا تذكرين ذلك؟

قالت الآنسة هندرسن وقد نفد صبرها: إذن فمن الباب.

- ولكنك تنسين يا آنسة. فالسيدة كلابيرتن أقفلت الباب من الداخل. لقد فعلت ذلك قبل أن يغادر السيد كلابيرتن المركب صباح اليوم، وقد حاول -عملياً- فتحه، ولذلك فإننا نعرف بأن الباب كان مقفلاً.

- هراء. ربما كان قد استعصى قليلاً على الفتح، أو أنه لم يُدِرْ قبضة الباب بشكل سليم.

- ولكن ذلك لا يعتمد على روايته هو للحدث، فقد سمعنا نحن -بالفعل- السيدة كلابيرتن تقول ذلك بنفسها.

- تقول: "سمعتم"؟

- نعم، الآنسة موني والآنسة كريغن والكولونيل كلابيرتن وأنا.

ربتت الآنسة هندرسن على الأرض بقدمها ذات الحذاء الأنيق. لم تتكلم لدقيقة أو دقيقتين، ثم قالت بنبرة نزقة قليلاً: حسناً... ما الذي يمكن لنا أن نستنتجه بالضبط من ذلك؟ إن كانت السيدة كلابيرتن أقفلت الباب فقد كانت قادرة على فتحه أيضاً، على ما أعتقد.

أدار لها بوارو وجهاً متهللاً وصاح: بالضبط، بالضبط. وأنت تعرفين أين يفضي بنا هذا الاحتمال. لقد فتحت السيدة كلابيرتن الباب ودعت القاتل ليدخل. والآن أكان يُحتمل أن تقوم بذلك مع بائع مسابح؟

اعترضت الآنسة هندرسن قائلة: ربما لم تكن تعرف مَن الطارق. ربما كان الباب قد طُرق فنهضت وفتحته، فاقتحم عليها القاتل غرفتها عنوة وقتلها.

هزّ بوارو رأسه نافياً وقال بالعكس، لقد كانت متمددة بسلام في سريرها عندما طعنت.

نظرت الآنسة هندرسن إليه وقالت بحزم: ما هي فكرتك؟

ابتسم بوارو وقال: حسناً، يبدو الأمر كما لو أنها كانت تعرف الشخص الذي أدخلته.

قالت الآنسة هندرسن وقد بدا صوتها أجشّ قليلاً هل تعني أن القاتل هو أحد المسافرين على متن المركب؟

هزّ بوارو رأسه بالإيجاب وقال: تبدو المؤشرات بهذا الاتجاه.

- والسبحة الملقاة على الأرض كانت للتعمية؟

- بالضبط.

- وسرقة النقود أيضاً؟

- بالضبط.

ساد صمت قصير، ثم قالت الآنسة هندرسن ببطء: لقد رأيت في السيدة كلابيرتن امرأة كريهة جداً، ولا أعتقد أن أحداً على متن المركب أحبها فعلاً.. ولكن ما من أحد يملك سبباً لقتلها.

- ربما، باستثناء زوجها.

- لا أظنك تعتقد أن...

ثم توقفت.

- إن رأي كل شخص على هذا المركب أن الكولونيل كلابيرتن

مُبرِّرٌ له «ضربها بفأس»، وأعتقد أن ذلك هو التعبير الذي استُخدم.

نظرت إليه الآنسة هندرسن وهي تنتظر، فمضى قائلاً: غير أنني مضطر للقول إنني لم ألاحظ -شخصياً- أية علامات للسخط من جانب الكولونيل الطيب. مع أن الأهم هو أن لديه دفعاً بالغياب عن مكان الجريمة، فقد كان مع ذينك الفتاتين طوال النهار، ولم يعد إلى المركب حتى الساعة الرابعة. وفي ذلك الحين كانت عدة ساعات قد انقضت على وفاة السيدة كلايبيرتن.

سادت لحظة أخرى من الصمت، ثم قالت إيلي هندرسن بلطف: ولكنك لم تزل تعتقد... بأن الفاعل هو أحد المسافرين على متن المركب؟

أحنى بوارو رأسه موافقاً. ضحكت إيلي هندرسن فجأة ضحكة طائشة متحدية، وقالت: ربما كانت نظريتك صعبة الإثبات يا سيد بوارو، فهناك العديد العديد من المسافرين على متن هذا المركب.

أحنى لها بوارو رأسه مرة أخرى وقال: سأستخدم عبارةً من إحدى القصص البوليسية الإنكليزية تقول: «إن لي وسائلي يا واطسون».

* * *

في مساء اليوم التالي وجد كل مسافر قرب صحنه قصاصة ورق مطبوعة تُبلغه أن يحضر إلى الردهة الرئيسية في الثامنة والنصف. وعندما اجتمع المسافرون صعد القبطان إلى السدة المرتفعة حيث تُعزف الأوركسترا عادة، وخاطبهم قائلاً: سيداتي سادتي، تعلمون جميعاً بالمأساة التي حدثت أمس، وأنا واثق من أنكم -جميعاً-

ترغبون بالتعاون لتقديم مرتكب تلك الجريمة الشريرة للعدالة.

ثم صمت قليلاً وجلا حنجرته وقال: إن بيننا -على متن هذه السفينة- السيد هيركيول بوارو، ولعلكم تعرفونه جميعاً رجلاً ذا خبرة واسعة في... في مثل هذه القضايا. وآمل منكم أن تصغوا بانتباه لما يريد قوله.

في هذه اللحظة بالذات دخل الكولونيل كلابيرتن، الذي لم يكن حاضراً على العشاء، وجلس بجانب الجنرال فوربس. بدا رجلاً أذهله الحزن، ولم يظهر أبداً كرجل يشعر بارتياح كبير. إما أنه كان ممثلاً بارعاً جداً، أو أنه كان مغرماً بصدق بزوجته السيئة. وأخيراً قال القبطان وهو ينزل عن السدة: أتركلكم مع السيد هيركيول بوارو.

حلّ بوارو محله. وبدا شاعراً بأهميته على نحو مضحك عندما فرج أساريره للجمهور. بدأ حديثه قائلاً: سيداتي سادتي، إنه لَلطفٌ كبير منكم أن تكونوا مهتمين إلى هذا الحد بسماعي. لقد أخبركم السيد القبطان بأن لي تجربة معينة في هذه القضايا. والصحيح أن لدي فكرة صغيرة خاصة بي في كيفية الوصول إلى قرار وحقيقة هذه القضية بالذات.

ثم قام بإشارة، فاندفع أحد المضيفين متقدماً إليه وأعطاه شيئاً كبيراً لا شكل له ملفوفاً بأغطية.

قال بوارو محذراً: إن ما سأفعله الآن قد يدهشكم قليلاً. وقد يظن بعضكم بأنني غريب الأطوار، بل -ربما- مجنون. ورغم ذلك، فإنني أؤكد لكم بأن خلف جنوني منهجاً، كما تقولون معشر الإنكليز.

التقت عيناه لبرهة قصيرة فقط بعيني الآنسة هندرسن. وبدأ يفتح الأغطية عن ذلك الشيء قائلاً: إن لديّ هنا -أيها السيدات والسادة- شاهداً مهماً على حقيقة قاتل السيدة كلابيرتن. وبحركة حاذقة من يده أزاح آخر غطاء حول ذلك الشيء ليجعله بادياً للعيان... كان ذلك دمية طفل خشبية تكاد تكون بحجم طفل حقيقي، ترتدي بدلة مخملية ذات ياقة مطرزة.

قال بوارو بصوت تغيّرَ على نحو ماهر، بصوت لم يعد يحمل لكنة أجنبية، بل ينطق بإنكليزية واثقة، بلكنة فيها شيء من لكنة أهل لندن... قال: والآن يا آرثر، هل تستطيع أن تخبرني، وأكرر: هل تستطيع أن تخبرني أي شيء -مهما كان- عن مقتل السيدة كلابيرتن؟

تأرجحت رقبة الدمية قليلاً، ونزل حنكها الخشبي السفلي واضطرب، وتكلم صوت أنثوي حاد عالي الطبقة: "ما الأمر يا جون؟ الباب مقفل. لا أريد أن يزعجني المضيفون...".

سُمعت صرخة... وكرسي ينقلب... ووقف رجل يترنح ويده على حنجرته... يحاول الكلام، يحاول... ثم فجأة بدا جسمه وكأنه يتغضن وينكمش، ووقع على أم رأسه. كان ذلك الرجل هو الكولونيل كلابيرتن.

* * *

نهض بوارو وطبيب السفينة عن الجسم الممدد، وقال الطبيب بإيجاز: أخشى أن كل شيء قد انتهى. إنه القلب!

هزّ بوارو رأسه وقال: "إنها الصدمة بسبب اكتشاف حقيقة

خدعته". ثم التفت إلى الجنرال فوريس وقال: أنت أيها الجنرال مَن أعطاني إشارة ثمينة بذكرك لمسرح المنوعات. أعتقد أنني احترت، ثم جاءتني الفكرة: فلنفترض أن كلابيرتن كان قبل الحرب أحد أولئك الذين يتحدثون من بطونهم... أولئك المهرجين الذين يقلّد الواحد منهم عدة شخصيات مجرياً بينهم حواراً يُسمع فيه الصوت دون أن تتحرك شفتاه. في تلك الحالة يكون ممكناً -تماماً- أن يسمع ثلاثة أشخاص السيدة كلابيرتن تتكلم من داخل مقصورتها في وقت كانت فيه ميتة أصلاً...

كانت إيلي هندرسن تقف بجانبه، وعيناها غائمتان مفعمتان بالألم. سألته: هل كنت تعرف أن قلبه ضعيف؟

بوارو: لقد خمنت ذلك... لقد تحدثت السيدة كلابيرتن عن مرض قلبها هي، ولكنها أثارت دهشتي بكونها من ذلك النوع من النساء اللائي يحببن أن يظن بهم الآخرون المرض. بعدها التقطت مزقة وصفة طبية فيها جرعة قوية من الديجيتالين، وهو دواء للقلب، ولكنه لا يمكن أن يكون دواء السيدة كلابيرتن لأن الديجيتالين يؤدي إلى توسيع بؤبؤ العين. ولم ألاحظ أبداً هذه الظاهرة لديها، ولكنني عندما نظرت إلى عينيه رأيت الدلائل على الفور.

تمتمت الآنسة هندرسن: وهكذا ظننتَ بأن القضية يمكن أن تنتهي بهذه الطريقة؟

- إنها أفضل طريقة، ألا تعتقدين ذلك يا آنسة؟

رأى الدموع تتكور في عينيها، ثم قالت: لقد كنت تعرف... كنت تعرف -طوال الوقت- بأنني مهتمة به... ولكنه لم يفعل ذلك من

أجلي أنا... بل كان السبب نينك الفتاتين... الشباب... جعله يحس بعبوديته أراد أن يتحرر قبل فوات الأوان... نعم، أنا واثقة بأن ذلك كان السبب... متى حزرت بأنه هو الفاعل؟

- كانت سيطرته على نفسه كاملة تماماً، فبالرغم من كل وقاحة سلوك زوجته، لم يبدُ عليه أنه تأثر بذلك. وكان ذلك يعني أنه إما أن يكون اعتاد على الأمر بحيث لم يعد يثيره، أو أنه... حسناً... اخترت الخيار الآخر... وكنت على حق!

ثم لفت انتباهي إصراره على قدرته كساحر ففي الليلة التي سبقت الجريمة تظاهر بأنه نسي نفسه، ولكن رجلاً مثل كلابيرتن لا ينسى نفسه لا بد إذن من سبب. وذلك السبب هو أنه -طالما أن الناس يعتقدون بأنه كان ساحراً- فليس من المحتمل أن يروا فيه مهرجاً يتحدث من بطنه.

سألت الآنسة هندرسن: والصوت الذي سمعناه. صوت السيدة كلابيرتن؟

- كانت إحدى المضيفات ذات صوت لا يختلف كثيراً عن صوت السيدة كلابيرتن. وقد أقنعتُها بالاختباء خلف المنصة، ولقّنتُها الكلمات لكي تردّدها.

صاحت إيلي هندرسن: لقد كانت حيلة... وحيلة وحشية.

كيول بوارو: أنا لا أرضى عن الجريمة!

* *

كيف تنمو حديقتك

رتب هيركيول بوارو الرسائل الواردة إليه في كومة منظمة أمامه. تناول الرسالة العليا ونظر إلى العنوان لحظاتٍ، ثم شقّ -بعناية- الجانب الخلفي للمغلف بسكين أوراق احتفظ بها على طاولة إفطاره لأغراض فتح البريد، وأخرج محتويات الرسالة. كان في الداخل ظرف آخر أيضاً، خُتِم بعناية بالشمع الأحمر وكتب عليه: «شخصي وسري».

ارتفع حاجبا بوارو قليلاً وأحنى رأسه البيضوي، ثم تمتم قائلاً: "صبراً... لقد وصلتم!". وعمد مرة أخرى لاستخدام سكين الأوراق. وفي هذه المرة ظهرت من الظرف رسالة كتبت بخطٍ مرتبك حاد الأحرف، وقد وُضعت خطوط -بهدف التأكيد- تحت كثير من الكلمات. فتح هيركيول بوارو الرسالة وقرأ، وقد كُتب في أعلى الرسالة مرة أخرى «شخصي وسري»، وعلى الجانب الأيمن منها كان عنوان المرسل: «روزبانك، تشارمانز غرين» والتاريخ: «الحادي والعشرون من آذار».

عزيزي السيد بوارو،

لقد أشار عليّ أن ألجأ إليك صديقٌ يعرف القلق والأسى

اللذين لقيتهما مؤخراً، وهذا لا يعني أن هذا الصديق يعرف الظروف الفعلية، فقد احتفظت بتلك الظروف لنفسي بشكل كامل، باعتبار القضية شخصية بحتة. ولقد أكد لي صديقي بأنك الكتمان نفسه، وأنه لا خوف خوف من تورطي بقضية يدخل فيها الشرطة، ودخول الشرطة في المسألة -إن صحت شكوكي- سيكون أمراً أكرهه أشد الكره. ولكن من الممكن بالطبع أن أكون مخطئة كلياً. إنني لا أشعر بأن ذهني صافٍ بما فيه الكفاية هذه الأيام، ذلك أنني أعاني من الأرق ومن نتائج مرض خطير أصابني في الشتاء الماضي مما لا يسمح لي بالتحقيق في الأمور بنفسي. وأنا لا أملك لا الوسائل ولا القدرة. ومن جهة أخرى، عليّ أن أكرر -مرة أخرى- بأن هذه مسألة عائلية حساسة جداً، وأنني ربما رغبت -لأسباب عديدة- في طيّ الأمر كله. لو أتيح لي فقط أن أتأكد من الحقائق فسيكون بوسعي أن أعالج القضية بنفسي، وهو ما أفضّله. آمل أن أكون قد أوضحت مرادي بخصوص هذه النقطة. فإن قررت تولي هذا التحقيق فأرجو أن تعلمني على العنوان المذكور أعلاه.

المخلصة: أميليا بارويي

قرأ بوارو الرسالة بإمعان مرتين، وارتفع حاجباه قليلاً مرة أخرى، ثم وضعها جانباً وانتقل إلى الظرف التالي في الكومة.

في تمام الساعة العاشرة دخل إلى غرفة المكتب حيث كانت

الآنسة ليمون -سكرتيرته المؤتمنة- تجلس منتظرة تعليمات ذلك اليوم. كانت الآنسة ليمون في الثامنة والأربعين من عمرها. لم تكن ذات مظهر جذاب، وكان الانطباع العام الذي توحي به هو أنها مجموعة عظام ألقي بعضها مع بعض عشوائياً. كانت ذات ولع بالنظام يكاد يوازي ولع بوارو نفسه، ورغم قدرتها على التفكير إلاّ أنها لا تفكر إلاّ إن طُلب منها ذلك.

أعطاها بوارو بريد الصباح وقال: اعملي معروفاً يا آنسة واكتبي رسائل رفض مصوغة بالعبارات المناسبة لكل هذه الرسائل.

استعرضت الآنسة ليمون بنظرها الرسائل المختلفة، ثم خربشت كلمات هيروغليفية على كل واحدة منها. كانت تلك الخربشات ذات شيفرة خاصة مفهومة لها وحدها. وبعد أن قامت بذلك هزت رأسها وتطلعت إلى بوارو طلباً لتعليمات أخرى.

أعطاها بوارو رسالة أميليا باروبي، فأخرجتها من ظرفيها وقرأتها ثم تطلعت إلى بوارو باستفهام، وقالت: نعم يا سيد بوارو؟

راح قلمها يحوم جاهزاً فوق أوراق الاختزال أمامها، ولكن بوارو لم يُملِ شيئاً، بل سألها: ما رأيك بهذه الرسالة يا آنسة ليمون؟

وضعت الآنسة ليمون القلم من يدها، وقد قطبت جبينها قليلاً، ثم قرأت الرسالة ثانية. إن محتويات أية رسالة لم تكن تعني شيئاً بالنسبة للآنسة ليمون إلاّ من زاوية واحدة هي كيفية صياغة جواب مناسب لها. كان بوارو يلجأ -أحياناً- إلى طلب المعونة من قدراتها الإنسانية، تمييزاً لها عن قدرتها الرسمية المهنية. وقد كان ذلك

يزعج الآنسة ليمون قليلاً؛ فقد كانت أقرب إلى الآلة المثالية، ولم تكن مهتمة -أبداً- بكل الشؤون الإنسانية. كان ولعها الحقيقي الأكبر في الحياة هو استكمال وضع نظام للملفات تتراجع أمامه كل نظم الملفات الأخرى ليطويها النسيان. كانت تحلم بنظام كهذا آناء الليل، ومع ذلك فقد كانت الآنسة ليمون قادرة تماماً على استخدام الذكاء في القضايا الإنسانية البحتة... وكان بوارو يعلم ذلك جيداً.

عاد ليسألها: حسناً، ما رأيك؟

- امرأة عجوز، هبط قلبها إلى ركبتيها تماماً!

- آه! تظنين المسألة تتعلق بقلبها؟

لم تجبه الآنسة ليمون التي ارتأت أن بوارو قد مكث في إنكلترا فترة طويلة تكفي لكي تجعله يفهم تعابيرها العامية. نظرت بسرعة إلى الظرف المزدوج وقالت: إنها متكتمة جداً، ولا تنبئك بشيء أبداً.

- نعم، لاحظت ذلك.

تعلقت يد الآنسة ليمون مرة أخرى بأمل فوق ورق الاختزال، واستجاب بوارو هذه المرة لآمالها: اكتبي أنني سأتشرف بزيارتها في أي وقت تقترحه، إلاّ إذا كانت تفضل أن تستشيرني هنا. ولا تطبعي الرسالة، اكتبيها بخط اليد.

- حاضر يا سيد بوارو.

أخرج بوارو مزيداً من الرسائل وقال: "هذه فواتير". صنفتها الآنسة ليمون بيدها القديرة بسرعة، ثم قالت: سأدفع كل هذه الفواتير ما عدا هاتين الاثنتين.

- ولماذا هاتان تحديداً؟ ليس فيهما أي خطأ.

- إنهما من شركتين بدأتَ لتوك التعامل معهما. ومما يعطي انطباعاً سيئاً أن تدفع بسرعة عندما تكون قد فتحت حساباً جديداً، إذ يبدو الأمر وكأنك تسعى للحصول على قرضٍ ما فيما بعد.

تمتم بوارو: آه! إنني أنحني إجلالاً لمعرفتك الفائقة بنفسية التاجر البريطاني.

- لا يوجد كثير مما لا أعرفه عنه.

* * *

تمت كتابة وإرسال الرسالة إلى الآنسة أميليا باروبي في وقتها المحدد، ولكن لم يرد أي جواب. وفكر هيركيول بوارو بأن السيدة العجوز ربما كشفت لغزها بنفسها، ومع ذلك شعر بشيء من الدهشة لأنها -في تلك الحالة- لم تكتب له كلمة مجاملة لتخبره إنها لم تعد بحاجة إلى خدماته.

بعد خمسة أيام من ذلك، وبعد أن تلقت الآنسة ليمون تعليماتها الصباحية قالت: تلك الآنسة باروبي التي كتبنا لها... لا عجب أنها لم تُجِب، فقد ماتت.

قال بوارو بهدوء شديد: آه... ماتت.

بدت عبارته أقرب إلى الإجابة منها إلى السؤال، فيما فتحت الآنسة ليمون حقيبة يدها وأخرجت قصاصة من صحيفة وقالت: وجدت الصحيفة في قطار الأنفاق، فمزقتها منها.

احتفظ بوارو في عقله بحقيقة أن الآنسة ليمون -رغم استخدامها لكلمة «مزقتها»- كانت قد قصّت قطعة الصحيفة بعناية بالغة. قرأ بوارو الإعلان المأخوذ من صفحة «الولادات والوفيات والزيجات» في صحيفة «مورننغ بوست»، وكان فيه: «توفيت فجأة في السادس والعشرين من آذار في روزبانك، تشارمانز غرين، أميليا باروبي في عامها الثالث والسبعين. يرجى عدم إحضار الأزهار».

قرأ بوارو الإعلان مرة أخرى وتمتم: "فجأة". ثم قال بسرعة: إنْ تكرمتِ بكتابة هذه الرسالة التي سأمليها عليك يا آنسة ليمون.

تأرجح القلم، وشرعت الآنسة ليمون -التي تسكن عقلها تعقيدات نظام الملفات- بكتابة ما أملاه بوارو باختزالٍ سريع وسليم:

عزيزتي الآنسة باروبي،

لم أستلم منك جواباً، وإذ سأكون قريباً من منطقة تشارمانز غرين يوم الجمعة، فسأزورك في ذلك اليوم، وأناقش بتفصيلات أكبر القضية التي ذكرتِها في رسالتك.

المخلص: هيركيول بوارو

- اطبعي هذه الرسالة رجاء، وإن أمكن إرسالها الآن، فسوف تصل إلى تشارمانز غرين هذه الليلة.

في صباح اليوم التالي وصلت بالبريد رسالة في ظرف اتشح إطاره بالسواد، وكان مكتوباً فيها:

سيدي العزيز،

جواباً على رسالتك، فإن عمتي -الآنسة باروبي- توفيت

في السادس والعشرين من الشهر الجاري، ولذلك فالقضية التي تتحدث عنها لم تعد ذات أهمية.

المخلصة: ناري ديلافونتين

تبسّم بوارو وردّد: "لم تعد ذات أهمية"؟ هذا ما سنحاول معرفته. إلى الأمام... إلى تشارمانز غرين!

كان «روزبانك» بيتاً محاطاً بالورود والأزهار، ويفوق في ذلك أغلب البيوت المشابهة له في طرازه ومستواه. توقف بوارو قليلاً وهو يعبر الدرب المفضي إلى الباب الأمامي ونظر باستحسان إلى الحديقة المقسمة مساكب منتظمة عن يمينه وشماله، شجيرات الورد الواعدة بموسم جيد قادم عند نهاية العام، والنرجس المزهر الآن، والخزامى المبكرة، والزنبق الأزرق. أما المسكبة الأخيرة فقد حُدِّدت أُطُرها بالأصداف.

تمتم بوارو مع نفسه: ماذا تقول تلك الأنشودة الإنكليزية التي يغنيها الأطفال؟

كيف يا سيدتي ماري تنمو
حديقتك بالمقلوب تماماً؟
بأصداف الرخويات وتيجان الزهور الفضية،
وصفٌ من النساء الجميلات؟

وفكر بوارو: ربما لا يَكُنّ صفاً من الجميلات، ولكن توجد واحدة -على الأقل- من الجميلات هنا لتتحقق نبوءة المقطوعة الصغيرة.

فُتح الباب الأمامي وظهرت منه خادمة صغيرة أنيقة تضع غطاءً على رأسها وترتدي مريلة، أخذت تنظر بشيء من الريبة إلى مشهد رجل أجنبي كث الشاربين يكلم نفسه بصوت عال في الحديقة الأمامية. كانت -كما لاحظ بوارو- خادمة جميلة جداً، ذات عينين زرقاوين دائريتين ووجنتين ورديتين.

رفع بوارو قبعته مجاملة وخاطبها قائلاً: عفواً، ولكن هل تقيم هنا آنسة اسمها أميليا باروبي؟

شهقت الخادمة الصغيرة، وازدادت عيناها استدارة، وقالت: "آه، يا سيدي... ألا تدري؟ لقد ماتت! كان ذلك مفاجئاً تماماً... ليلة الثلاثاء". ثم ترددت وقد تنازعتها غريزتان قويتان؛ الأولى: عدم الثقة بالأجانب، والثانية: المتعة اللذيذة التي تجدها طبقتها في الحديث في موضوع المرض والموت.

قال بوارو دون كثير صدق: إنك تدهشينني! إن لدي موعداً مع السيدة هذا اليوم. ولكن، ربما استطعتُ مقابلة السيدة الأخرى التي تسكن هنا.

بدت الخادمة الصغيرة مرتابة قليلاً. قالت: السيدة؟ حسناً، ربما استطعتَ رؤيتها، ولكنني لا أدري إن كانت ترغب برؤية أحدٍ.

قال: "ستراني"، ثم سلّمها بطاقة شخصية. كان للثقة التي ميزت نبرته تأثيرها؛ فقد تراجعت الخادمة ذات الخدين الورديين وقادت بوارو إلى غرفة جلوس عن يمين الصالة، ثم تركته -وبطاقته في يدها- لتستدعي سيدتها.

نظر هيركيول بوارو حوله. كانت الغرفة غرفة استقبال تقليدية

تماماً... ورق جدران طحيني اللون، ونقوش في أعلى الجدار، وأثاث منجّد بقماش مطبّع غير ذي طراز محدد، ووسائد وستائر وردية اللون، وكثير من الأواني والتحفيات الصينية. لم يكن في الغرفة شيء بارز يمكن أن يوحي بشخصية محددة.

فجأة شعر بوارو -وهو الحساس كثيراً- بعينين تراقبانه. التفت ليرى فتاة تقف في مدخل الباب الزجاجي المفضي إلى الحديقة. كانت فتاة صغيرة شاحبة ذات شعر أسود فاحم وعينين شكاكتين. دخلت، وبينما كان بوارو يقوم بانحناءة طفيفة لها، انفجرت فجأة قائلة: لماذا أتيت؟

لم يجب بوارو، بل اكتفى بأن رفع حاجبيه. عادت لتقول: إنك لست محامياً، أليس كذلك؟

كانت إنكليزيتها جيدة، ولكن لم يكن أحد ليعتبرها -ولو لدقيقة واحدة- إنكليزية.

- ولماذا أكون محامياً يا آنسة؟

نظرت الفتاة إليه بتكدٍ ثم قالت: ظننتك كذلك. حسبتُ أنك ربما جئت لتقول إنها لم تكن تعرف ما الذي تفعله. لقد سمعت عن أشياء كهذه.. «التأثير غير المناسب». هذا هو ما يطلقونه على الأمر، أليس كذلك؟ ولكن ذلك ليس صحيحاً. لقد أرادت أن أحصل أنا على المال، وسأحصل عليه. وإن اقتضى الأمر فسأكلف محامياً خاصاً بي؛ فالمال مالي... هي التي كتبت ذلك، وهكذا سيكون.

بدت بشعة وقد برز ذقنها إلى الأمام والتمعت عيناها. وفجأة

فُتح الباب ودخلت امرأة طويلة القامة وقالت: "كاترينا".

انكمشت الفتاة وخجلت وتمتمت بشيء ما وخرجت من الباب الزجاجي. التفت بوارو ليواجه الوجه الجيد الذي تعامل مع الموقف بكل هذه الكفاءة ناطقاً بكلمة واحدة. كان في صوتها ثقة وقوة وازدراء وظلٌّ من سخرية المَحتدِ الكريم. وأدرك بوارو -على الفور- بأن هذه هي مالكة البيت، ماري ديلافونتين.

قالت: السيد بوارو؟ لقد كتبت لك رسالة، لكن لا يبدو أنك استلمتها.

- مع الأسف، كنت مسافراً بعيداً عن لندن.

- آه، فهمت، هذا يفسر الأمر. أقدم لك نفسي: اسمي ديلافونتين، وهذا زوجي، والآنسة باروبي كانت عمتي.

كان السيد ديلافونتين قد دخل الغرفة بشكل هادئ جداً فلم يلحظ أحد وصوله. كان رجلاً طويل القامة ذا شعر قد وخطه الشيب وشخصية غير محددة الأسلوب. وكان يمرر أصابعه على ذقنه بطريقة تنم عن العصبية، كما كان ينظر كثيراً باتجاه زوجته. وبدا واضحاً أنه ينتظر منها أن تكون المبادِرة في أي حديث.

قال بوارو: عليّ أن أعتذر عن تدخلي وسط أحزانكم.

- أدرك تماماً بأن الذنب لم يكن ذنبك. لقد توفيت عمتي مساء يوم الثلاثاء... كان ذلك أمراً غير متوقع.

قال السيد ديلافونتين: "بل غير متوقع إطلاقاً... صفعة كبرى!"، وراقبت عيناه الباب الزجاجي الذي اختفت منه الفتاة الأجنبية.

قال بوارو: أعتذر، وسأنسحب.

تحرك خطوة باتجاه الباب، فقالت السيدة ديلافونتين: لحظة من فضلك. هل قلت إنك كنت على... على موعد مع العمة أميليا؟

- تماماً.

- ربما أخبرتنا عن الأمر. إن كان ما نستطيع فعله...

قال بوارو: "كانت قضية ذات طبيعة خاصة". ثم أضاف ببساطة: أنا رجل تحرٍّ.

نقر السيد ديلافونتين على آنية صينية صغيرة كان يحملها، وبدت زوجته مرتبكة. قالت: رجل تحرٍّ؟ ولديك موعد مع عمتي؟ يا لغرابة ذلك!

نظرت إليه وأضافت: ألا تستطيع أن تخبرنا بالقليل من المعلومات الأخرى يا سيد بوارو؟ إن ذلك... إن ذلك يبدو غريباً تماماً!

صمت بوارو لحظات، ثم انتقى كلماته بعناية وقال: من الصعب عليّ يا سيدتي أن أعرف ما ينبغي عليّ فعله.

سأل السيد ديلافونتين: إنها لم تشر إلى الروس، أليس كذلك؟

- الروس؟

قال السيد ديلافونتين: نعم. البلاشفة... الحمر... أشياء من هذا القبيل.

قالت له زوجته: لا تكن سخيفاً يا هنري.

تراجع السيد ديلافونتين وقال: عفواً، عفواً... كنت أتساءل فقط.

نظرت ماري ديلافونتين بصرامة إلى بوارو بعينين شديدتي الزرقة وقالت: إن كان بوسعك أن تخبرنا أي شيء يا سيد بوارو فسأكون سعيدة بذلك. وأؤكد لك بأن لدي... بأن لدي سبباً لسؤالي.

بدا السيد ديلافونتين مذعوراً، وقال: انتبهي يا امرأة... فأنت تعلمين أنه ربما لم يكن في الأمر شيء.

أخضعته زوجته ثانية بنظرة منها، ثم قالت: حسناً، ماذا قلت يا سيد بوارو؟

هز هيركيول بوارو رأسه امتناعاً ببطء ووقار، هزّه بأسف ظاهر، ولكنه هزه بالرفض، وقال: في الوقت الحاضر -يا سيدتي- أرى أنه ينبغي عليّ أن لا أقول شيئاً.

ثم انحنى تحيةً، وأخذ قبعته وتحرك باتجاه الباب. رافقته ماري ديلافونتين عبر الصالة. وعند درج الباب الخارجي توقف ونظر إليها وقال: أعتقد أنك مغرمة بحديقتك يا سيدتي؟

- أنا؟ نعم، إنني أقضي كثيراً من الوقت في البستنة.

- تقبلي تهانيّ يا سيدتي.

ثم انحنى مرة أخرى ومشى باتجاه البوابة. وعندما عبرها ودار إلى اليسار نظر خلفه وسجّل انطباعين... وجه شاحب يراقب من نافذة

الطابق الأول، ورجل ذو قامة عسكرية مشدودة يغدو جيئة وذهاباً في الجانب المقابل من الشارع.

هزّ بوارو رأسه قناعةً بينه وبين نفسه وقال: "بالتأكيد... في هذا الجُحر فأر! ما الخطوة التي ينبغي على الهرّ أن يقوم بها الآن؟".

قاده قراره إلى أقرب مركز بريد، وهناك أجرى مكالمتين هاتفيتين، وبدا أن نتيجة المكالمتين كانت مرضية. وجّه خطاه باتجاه مركز شرطة تشارمانز غرين، حيث سأل عن المفتش سيمز. كان المفتش سيمز رجلاً ضخماً قوي البنية ذا شخصية منفتحة مرحة. قال: السيد بوارو؟ نعم، لقد عرفت ذلك. لقد تلقيتُ تواً مكالمة هاتفية من رئيس الشرطة بخصوصك. قال إنك ستأتي إلى هنا. تفضل إلى مكتبي.

أغلق الباب وقدم لبوارو كرسياً وجلس على كرسي آخر، ووجّه نظرة استفهام حادة إلى ضيفه قائلاً: أنت سريع جداً في اللحاق بالأحداث يا سيد بوارو. جئت بخصوص تلك القضية في روزبانك حتى قبل أن ندرك أنها قضية. ما الذي أدخلك في هذا الموضوع؟

أخرج بوارو الرسالة التي وردته وسلمها إلى المفتش. قرأها الأخير ببعض الاهتمام، ثم قال: أمر مثير للاهتمام. ولكن المشكلة أن هذه الرسالة قد تعني أشياء كثيرة. من المؤسف أنها لم تكن أكثر وضوحاً؛ فقد كان من شأن ذلك أن يساعدنا الآن.

استدرك بوارو قائلاً: أو أن الحاجة للمساعدة لم تكن لتنشأ أصلاً.

- ماذا تعني؟

- ربما كانت باقية الآن على قيد الحياة ولم تمت.

- فقد وصلتَ في استنتاجك إلى هذا الحد إذن؟ هممم.. ربما كنت محقاً.

- أرجوك أيها المفتش.. اروِ لي الحقائق؛ فأنا لا أعرف شيئاً.

- هذا أمر سهل. وقعت السيدة العجوز مريضة بعد العشاء من مساء الثلاثاء، وكان وضعها مقلقاً جداً: تشنجات وتقلصات وأشياء أخرى. أرسلوا في طلب الطبيب، ولكنها كانت قد توفيت لدى وصوله. كانت الفكرة أنها ماتت نتيجة نوبة. ولكن الأمر لم يَرُق للطبيب كثيراً، ولذلك غمغم ودمدم وقَبِل بالرواية على مضض، ثم أوضح بأنه لا يستطيع منح شهادة وفاة. وفيما يتعلق بالعائلة فقد بقيت القضية عند هذا الحد، وهم ينتظرون نتيجة فحص الجثة. أما نحن فقد تقدمنا قليلاً أبعد من ذلك؛ إذ سرعان ما أعطانا الطبيب طرف الخيط... فقد أجرى هو وجرّاح الشرطة عملية تشريح الجثة معاً ولم يكن في النتيجة أي شك، فقد ماتت العجوز نتيجة جرعة ضخمة من مادة الستريكنين السامة.

- آها!

- نعم، عمل قذر تماماً. السؤال هو: من الذي دس لها السم؟ لا بد أنه دُسّ لها قبل وفاتها بوقت قصير جداً. كانت الفكرة في البداية أن السم قد وضع في طعامها على العشاء، ولكن -بصراحة- يبدو

ذلك افتراضاً فاشلاً تماماً. لقد قدموا للعشاء حساء الأرضي شوكي وفطيرة السمك وكعكة التفاح.

كانوا ثلاثة على العشاء: الآنسة باروبي والسيد ديلافونتين وزوجته. وكان لدى الآنسة باروبي فتاة نصف روسية تعمل كنوع من المربية والخادمة، ولكنها لم تأكل مع العائلة، بل أكلت مما تبقى على المائدة بعد مغادرتهم غرفة الطعام. في المنزل خادمة أيضاً، ولكن كانت تلك الليلة ليلة إجازتها، ولذلك تركت الحساء فوق الموقد، وفطيرة السمك داخل الفرن، أما كعكة التفاح فكانت باردة. إن الأشخاص الثلاثة جميعاً أكلوا نفس الأشياء، وبغض النظر عن ذلك، فإنني لا أعتقد أن بوسعك أن تُنزل مادة الستكرنين في بلعوم أحد بهذه الطريقة، فهي أشدّ مرارة من الصبر، وقد أخبرني الطبيب بأن المرء يستطيع الإحساس بها ولو كانت في محلول بنسبة واحد بالألف، أو ما يقرب من ذلك.

- ففي القهوة إذن؟

- القهوة أقرب إلى ذلك، ولكن العجوز لم تشرب القهوة أبداً.

- فهمت قصدك. نعم، تبدو تلك عقبة صعبة التخطي. ما الذي شربته على العشاء؟

- ماء.

- هذا أسوأ وأسوأ.

- مهمة صعبة بعض الشيء، أليس كذلك؟

- هل كان لدى السيدة العجوز مال؟

- أتخيّل أنها كانت غنية تماماً. إننا لم نحصل بعد -بالطبع- على تفصيلات دقيقة. ومما استطعت أن أستنتجه فإن الزوجين ديلافونتين يعيشان حالة عوز سيئة، وكانت العجوز تساعدهما في صيانة ومصاريف المنزل.

ابتسم بوارو قليلاً، ثم قال: إذن فأنت تشك في الزوجين ديلافونتين... بأيهما تشك؟

- لا أقول -تحديداً- بأنني أشك بأيهما بشكل خاص. ولكن الأمر كما تراه: فهما قريباها الوحيدان، وموتها يدرّ عليهما مبلغاً جيداً من المال دون شك. نحن نعرف طبيعة النفس البشرية!

- نعم، أحياناً تفتقد الإنسانية.. هذا صحيح تماماً. ألم تشرب العجوز أو تأكل أي شيء آخر؟

- حسناً، في الحقيقة...

- آه، هيا! لقد شعرت بأن في كُمّك شيئاً تخفيه -كما تقولون معشر الإنكليز- فالحساء وفطائر السمك وكعكة التفاح كلها قشور تافهة! الآن نأتي إلى لب القضية.

- لا أدري إن كان ذلك صحيحاً، ولكن العجوز كانت تأخذ كبسولة قبل الطعام. وهي -كما تعلم- ليست حبة أو قرصاً، بل إحدى تلك الكبسولات التي تحتوي على مسحوق داخلها. إنها كبسولات تستخدم للهضم ولا ضرر منها بتاتاً.

- رائع. ليس أسهل من ملء كبسولة بمادة ستركنين وإبدالها بواحدة من الكبسولات الأخرى، وهي تُبلَع مع شربة ماء دون أن يتم تذوّقها.

- هذا صحيح، ولكن المشكلة أن الفتاة هي التي أعطتها إياها.

- الفتاة الروسية؟

- نعم، كاترينا ريغر. كانت بالنسبة لها مساعدةً وممرضةً ومرافقة. وكانت تتعبها بطلباتها كما فهمت: "أحضري هذا، وخذي ذاك، حُكّي لي ظهري، صُبيّ لي دوائي، اركضي إلى الصيدلي"، وعلى هذا النحو. أنت تعرف كيف تتعامل تلك العجائز، يكون قصدهن أن يكن لطيفات، ولكن ما يحتجنه فعلاً هو عبد أسود!

ابتسم بوارو. ومضى المفتش سيمز قائلاً: وهذا هو الوضع كما ترى. إن الأمر لا ينسجم بشكل جيد بعضه مع بعض، فلماذا تسمم الفتاة سيدتها؟ تموت الآنسة باروبي، وبموتها ستكون الفتاة قد خسرت عملها، وليس من السهل العثور على عمل، فهي ليست مدربة أو ذات خبرة.

- ومع ذلك فإن كانت علبة الكبسولات متروكة في البيت، فبوسع أي امرئ أن يمتلك الفرصة للعبث بها.

- من الطبيعي أننا نقوم بتحرياتنا... بشكل هادئ، إن كنت تفهمني. متى -مثلاً- تم تحضير وصفة الكبسولات لآخر مرة؟ أين كانت توضع عادة؟ ما نحتاجه هو الصبر والكثير من الكدح... ذلك ما سيوصلنا إلى النتيجة في النهاية. ثم لدينا محامي الآنسة باروبي.

ستكون لي معه مقابلة غداً، بالإضافة إلى مدير البنك. لديّ كثير من العمل الذي ينبغي إنجازه!

نهض بوارو وقال: سأطلب منك معروفاً صغيراً أيها المفتش سيمز: تبلغني -بمكالمة قصيرة- بسير القضية ومجرياتها. سأعتبر ذلك معروفاً عظيماً. ها هو رقم هاتفي.

- بالتأكيد يا سيد بوارو. رأيان أفضل من رأي واحد، وبالإضافة إلى ذلك: أنت يجب أن تشترك في هذه القضية، باعتبارك تسلمت تلك الرسالة.

قال بوارو: "أنت لطيف جداً أيها المفتش". ثم صافحه بأدب واستأذن بالانصراف.

* * *

استدعي للإجابة على الهاتف بعد ظهر اليوم الثاني.

- السيد بوارو؟ المفتش سيمز يتكلم. لقد بدأت الأمور تتحرك وتبدو جيدة في القضية الصغيرة التي تعرفها.

- حقاً؟ أخبرني، أرجوك.

- حسناً، إليك النقطة الأولى -وهي نقطة كبيرة تماماً- إن الآنسة «ب» تركت تركة صغيرة لابنة أخيها، وتركت باقي ثروتها كلها للآنسة «ك» تقديراً لعظيم لطفها ورعايتها. هكذا نصّت الوصية، وهذا يغير من وجه القضية.

برزت بسرعة في ذهن بوارو صورة معينة، صورة وجهٍ عابس

كئيب وصوتٍ منفعل يقول: "المال مالي، لقد كَتَبْتُ ذلك، وهذا ما سيكون". لن تُشكّل الوصية مفاجأة لكاترينا، فقد عرفت بها مسبقاً.

مضى صوت المفتش سيمز قائلاً: النقطة الثانية: لا أحد مسّ تلك الكبسولات باستثناء «ك».

- أأنت واثق من ذلك؟

- الفتاة نفسها لم تنكره، ما رأيك بذلك؟

- مثير جداً!

- ما زال أمامنا أمر واحد فقط نريد الوصول إليه... دليل على الكيفية التي حصلت بها على الستركنين، وذلك لن يكون صعباً.

- ولكنك لم تنجح في ذلك حتى الآن؟

- لست أكيداً بعد، فلم يتمّ الاستجواب إلاّ صباح اليوم فقط.

- وماذا حدث في الاستجواب؟

- تأجل لمدة أسبوع.

- والآنسة الشابة، «ك»؟

- إنني أحتجزها للاشتباه بها... لا أريد أية مجازفات؛ فقد يكون لها أصدقاء غرباء في البلد ممن يمكن أن يحاولوا إنقاذها.

- كلا، لا أظن أن لديها أي أصدقاء.

- حقاً؟ ما الذي يجعلك تقول ذلك يا سيد بوارو؟

- إنها مجرد فكرة خطرت لي. أليس لديك «نقاط» أخرى، كما تسميها؟

- لا شيء ذا صلة وثيقة بالموضوع. يبدو أن الآنسة «ب» كانت مؤخراً تتحامق قليلاً في التعامل بأسهمها، ولا بد أنها خسرت مبلغاً محترماً، وهو أمر غريب بعض الشيء في هذا الجانب أو ذاك، ولكنني لا أستطيع أن أرى كيف يمكن لذلك أن يؤثر في قضيتنا الرئيسية... أي أن ذلك لا يؤثر في الوقت الحاضر.

- نعم، ربما كنت محقاً. حسناً... لك شكري الجزيل. كان لطفاً كبيراً منك أن تتصل بي يا حضرة المفتش.

- عفواً، لا شكر على واجب. إنني رجل يلتزم بكلمته. أستطيع أن أرى اهتمامك بالقضية، ومن يدري؟ فربما استطعت أن تمد لي يد العون في النهاية.

- سيكون ذلك من دواعي سروري العظيم. ربما ساعدك -مثلاً- أن أعثر على صديق لهذه الفتاة كارينا.

- أظنك قلت إنها لا أصدقاء لها؟

- لقد كنتُ مخطئاً؛ فلديها صديق.

أعاد بوارو سماعة الهاتف قبل أن يستطيع المفتش طرح أي سؤال، ثم مشى بوجهٍ جادٍّ إلى الغرفة التي تجلس فيها الآنسة ليمون خلف آلتها الطابعة. ولدى اقترابه منها رفعت يديها عن مفاتيح الآلة

ونظرت إليه باستفهام، فقال: أريدك أن تتخيلي لنفسك تاريخاً بسيطاً.

أسقطت الآنسة ليمون يديها في حجرها كمن يستسلم اضطراراً. كانت تحب الطباعة، ودفع الفواتير، وأرشفة الأوراق في الملفات وتنظيم المواعيد. أما أن يطلب منها أن تتخيل نفسها في مواقف افتراضية، فإن ذلك يبعث فيها أكبر الضجر، ولكنها قبلته باعتباره الوجه الكريه للواجب الذي أنيط بها.

بدأ بوارو بالقول: أنت فتاة روسية.

- نعم.

قالتها وهي تبدو أشدّ ما تكون إنكليزية.

- وأنت وحيدة، لا أصدقاء لك في هذا البلد، ولديك أسباب تمنعك من العودة إلى روسيا. ثم حصلت على عمل مجهد ممرضةً وراعيةً ورفيقةً لامرأة عجوز. وأنت خنوعة صابرة لا تشكِين.

- نعم.

قالتها بكل طاعة، رغم أنها أخفقت تماماً في تخيل نفسها خنوعة لأية عجوز على وجه البسيطة.

- العجوز مسرورة منك. وتقرر أن تترك أموالها لك، وتخبرك بذلك.

توقف بوارو، وقالت الآنسة ليمون ثانية: نعم.

- وبعدها تكتشف العجوز شيئاً ما. ربما كان مسألة نقود... ربما

اكتشفت بأنك لم تكوني نزيهة معها... أو قد يكون الأمر أخطر من ذلك: دواء وجدت طعمه مختلفاً، طعام شعرت أنه أضر بصحتها. كائناً ما كان السبب، تبدأ بالشك فيك بأمر ما، وتكتب إلى رجلٍ تحرٍّ مشهوراً جداً... أو بالأحرى إلى أشهر رجل تحرٍّ... إليّ! ومن المقرر أن أزورها في أقرب وقت. وعندها تكون الفأس قد أوشكت أن تقع في الرأس كما يقال. وأهم شيء هو التصرف بسرعة. وهكذا -قبل وصول التحري العظيم- تموت العجوز. وينتقل المال إليك... أخبريني، هل يبدو لك ذلك معقولاً؟

- معقول تماماً.. معقول تماماً. أعني بالنسبة لروسية. بالنسبة لي -شخصياً- لم أكن لأقبل أبداً عملاً كمرافقة وممرضة؛ فأنا أحب أن تكون واجباتي محددة بوضوح. ولم أكن لأحلم -طبعاً- بقتل أحد.

تنهد بوارو وقال: لشدّ ما أفتقد صديقي هيستنغز؛ إذ أن له خيالاً لا يُجارى، وعقلاً رومانسياً رائعاً. صحيح أنه دائماً ما يتخيل خطأً، ولكن ذلك بحد ذاته كان مرشداً ودليلاً.

كانت الآنسة ليمون صامتة. نظرت باشتياق إلى الورقة المطبوعة أمامها. قال بوارو متفكراً: إذن ذلك يبدو لك معقولاً.

- ألا يبدو لك كذلك؟

- أكاد أخشى أن يكون كذلك.

ثم تنهدّ. رنّ جرس الهاتف فغادرت الآنسة ليمون الغرفة لتجيبه، ثم عادت لتقول: إنه المفتش سيمز مرة أخرى.

أسرع بوارو إلى الجهاز: آلو، آلو... ما الذي تقوله؟

أعاد سيمز ما قاله: لقد وجدنا علبة ستريكنين في غرفة نوم الفتاة، مدسوسة تحت الفراش. لقد جاءني الرقيب لتوه بالنبأ، وذلك يحسم القضية كما أعتقد.

- نعم، أعتقد أن ذلك يحسمها.

كان صوته قد تغير، وبدأت ترنّ به ثقة مفاجئة. وعندما وضع سماعة الهاتف عمد إلى الجلوس إلى مكتبه، ورتب الأشياء الموجودة فوقه بأسلوب آلي دون تفكير، ثم تمتم مع نفسه: كان في الأمر خطأً ما. لقد شعرتُ به... كلا، لم أشعر... بل لا بد أنه كان شيئاً رأيتُه. هيا أيتها الخلايا الرمادية الصغيرة: تفكّري، تأملي! هل كان كل شيء منطقياً ومنظماً؟ الفتاة... قلقها بشأن المال. السيدة ديلافونتين، زوجها... إشارته إلى الروس... الأحمق، لقد كان أحمق... الغرفة، الحديقة... آه! نعم، الحديقة.

وقف مشدود الجسم والبريقُ الأخضر يشع في عينيه. قفز ثم مضى إلى الغرفة المجاورة. هتف بالآنسة ليمون: آنسة ليمون، هل لك أن تتلطفي وتتركي ما تفعلينه وتقومي لي ببعض التقصّي؟

- تقصٍّ يا سيد بوارو؟ أخشى أنني لست بارعة...

قاطعها قائلاً: لقد قلتِ مرة إنك تعرفين كل شيء عن التجار.

قالت الآنسة ليمون بكل ثقة: أعرف بالتأكيد.

- إذن فالمسألة بسيطة. عليك أن تذهبي إلى منطقة تشارمانز غرين وتكتشفي لي تاجر سمك.

- تاجر سمك؟

- بالضبط، ذاك الذي يجهز منزل روزيانك بالسمك. وعندما تجدينه ستسألينه سؤالاً واحداً.

سلمها قصاصة ورق، فأخذتها ونظرت إلى محتوياتها دون اهتمام ثم هزت رأسها بالموافقة، وأسدلت الغطاء على آلتها الطابعة.

- سنذهب معاً إلى تشارمانز غرين، أنت تذهبين إلى بائع السمك، وأذهب أنا إلى مركز الشرطة. لن يستغرق ذلك منا إلاّ نصف ساعة من شارع بيكر.

عند وصوله إلى المركز حيّاه المفتش سيمز بدهشة وقال: حسناً، هذا هو العمل السريع يا سيد بوارو، فلم تمضِ نصف ساعة منذ تكلمت معك بالهاتف.

- لديّ طلب أطلبه منك، وهو أن تسمح لي برؤية هذه الفتاة كاترينا... ما هو اسمها؟

- كاترينا ريغر. حسناً، لا أظن أن لدي أي اعتراض على ذلك.

كانت الفتاة كاترينا تبدو أكثر شحوباً وكآبة من أي وقت مضى. تكلم معها بوارو بكل لطف: آنستي، أريد منك أن تؤمني بأنني لست عدواً لك. أريد منك أن تخبريني بالحقيقة.

التمعت عيناها بتحدٍّ وقالت: لقد قلت الحقيقة. قلت الحقيقة

للجميع! إن كانت العجوز قد سُمّت فلست أنا من سمّها. هذا كله خطأ. إنكم تتمنون حرماني من المال.

كان صوتها خشناً منفعلاً. وبدت -كما رآها- كجرذ يائس صغير حوصر في زاوية. قال: ألم يمسّ الكبسولات أحدٌ غيرك؟

- لقد قلت ذلك، ألم أفعل؟ حُضِّرت الكبسولات عند الصيدلي عصر ذلك اليوم، وقد أحضرتها معي في حقيبتي، وكان ذلك قبل العشاء مباشرة. فتحت العلبة وأعطيت الآنسة باروبي كبسولة منها مع كأس ماء.

- ألم يلمسها أحد إلا أنت؟

- نعم.

جُرذٌ مُحاصَرٌ وشجاع!

- والآنسة باروبي، ألم تتناول على العشاء إلا الأشياء التي ذُكِرت لنا: الحساء وفطيرة السمك، وكعكة التفاح؟

- نعم.

كانت «نعم» تلك يائسة، وخلفها عينان سوداوان يضطرم فيهما ألم صامت، ولا تريان شعاع أمل أبداً.

ربت بوارو على كتفها وقال: لتكن لديك الشجاعة يا آنسة، فقد تحصلين على الحرية رغم كل شيء. نعم، وأموال أيضاً وحياة رغيدة.

رفعت نظرها إليه بارتياب. وعندما خرج قال له سيمز: لم أفهم

تماماً ما قلته عبر الهاتف... شيئاً يفيد أن للفتاة صديقاً.

قال: "نعم، إن لديها صديقاً... أنا!"، ثم غادر مركز الشرطة قبل أن يستطيع المفتش استجماع فطنته.

في مقهى غرين كات لم تترك الآنسة ليمون بوارو ينتظر كثيراً بل دخلت مباشرة في الموضوع: اسم الرجل هو رودج وهو في شارع هاي، وقد كنتَ مصيباً تماماً. كانت دستة ونصف الدستة بالضبط، ولقد كتبتُ ملاحظة بما قاله.

ثم سلّمته الملاحظة، فقال بوارو: إيه.

كان صوته عميقاً غنياً كأنه مواء قطة بعد الشبع والرضا.

* * *

ذهب هيركيول بوارو إلى منزل روزبانك، وعندما وقف بحذاء الحديقة الأمامية والشمس تغرب خلفه خرجت ماري ديلافونتين. قالت بدهشة: السيد بوارو؟ لقد عدت؟

- نعم، لقد عدت.

ثم صمت قليلاً وقال: عندما جئتُ إلى هذا المكان لأول مرة يا سيدتي خطرت في ذهني أنشودة الأطفال التي تقول:

كيف يا سيدتي ماري تنمو
حديقتك بالمقلوب تماماً؟
بأصداف الرخويات وتيجان الزهور الفضية،
وصفٌ من النساء الجميلات؟

الفارق الوحيد هو أنها لم تكن أصداف رخويات، أليس كذلك يا سيدتي؟ إنها أصداف محار.

ثمّ أشار بيده إلى صفّ الأصداف في الحديقة. سمعها تلتقط أنفاسها، ثم تتجمد في مكانها. كانت عيناها تطرحان سؤالاً.

هزّ بوارو رأسه تأكيداً وقال: نعم، إنني أعرف! لقد تركتْ لكم الخادمة العشاء جاهزاً، وهي مستعدةٌ، وكاترينا كذلك، لحلف أغلظ الإيمان بأن ذلك العشاء كان كل ما تناولتموه. ولكنك أنت وزوجك فقط تعرفان بأنكما اشتريتما دستة ونصفاً من المحار، ضيافة تقدم للعمة الطيبة على سبيل المفاجأة السارة. من السهل جداً وضع الستريكنين في المحارة، فهي تبتلع هكذا! ولكن تبقى أصداف المحار.. وهي يجب أن لا تُلقى في حاوية القمامة؛ فقد تراها الخادمة. وهكذا فكّرتِ في استخدامها حدّاً لإحدى مساكب الحديقة. ولكن الأصداف لم تكن كافية لإكمال الحدّ، فبقي ناقصاً. وأصبح تأثير المنظر سيئاً، مما أفسد اتساق الحديقة التي كانت رائعة الجمال لولا هذا المنظر. إن أصداف المحار القليلة تلك أوجدت انطباعاً منفراً، وقد ساء منظرها عينيّ عند زيارتي الأولى.

قالت ماري ديلافونتين: أظنك خمّنت الأمر من الرسالة. كنت أعرف أنها كتبت رسالة، ولكني لم أعرف مقدار ما أفضت به فيها.

أجابها بوارو بمراوغة: لقد عرفتُ -على الأقل- أنها كانت قضية عائلية. ولو كانت المشكلة في كاترينا، لما كان لحرص العجوز على التكتم معنى. أنا أعرف أنك وزوجك قد تعاملتما بسندات الآنسة باروبي المالية بما يخدم مصالحكما الخاصة، وأنها اكتشفت...

قاطعته ماري ديلافونتين وهي تهز رأسها موافقة: لقد قمنا بذلك لسنوات طويلة وبمناسبات متفرقة. ولم أدرك أبداً أنها كانت من الفطنة بحيث تكتشف ذلك. ثم علمتُ أنها أرسلت في طلب رجلٍ تحرٍّ، واكتشفتُ أيضاً أنها ستترك أموالها لكاترينا... تلك المخلوقة البائسة!

- ولذلك وُضع الستركنين في غرفة نوم كاترينا؟ فهمت. لقد حاولتِ إنقاذ نفسك وزوجك مما قد أكتشفُه، وقد ألبستما جريمة القتل لطفلة بريئة. أليس لديك شفقة يا سيدة؟

رفعت ماري ديلافونتين كتفيها ازدراء، وتطلعت بعينيها الزرقاوين الفاتحتين إلى بوارو. تذكّرَ براعة تمثيلها في أول يوم جاءها فيه، ومحاولات زوجها الخرقاء. كانت امرأة أعلى من مستوى النساء، ولكنها قاسية متوحشة.

قالت والاحتقار يتردد صداه في صوتها: شفقة؟ شفقة على تلك الفأرة البائسة المريبة؟

قال هيركيول بوارو ببطء: أعتقد -أيتها السيدة- أنك لم تهتمي في حياتك كلها إلاّ بشيئين اثنين فقط: الأول هو زوجك.

رأى شفتيها ترتجفان. مضى قائلاً: والثاني هو حديقتك.

نظر حوله. وبدا وكأن نظرته تعتذر للأزهار عما فعله وما يوشك أن يفعله.

* * *

لغز سرقة المُنَمنَمات

زرت مكتب صديقي بوارو لأجده وقد أنهكه العمل بشكل محزن. لقد غدا مشهوراً إلى الحد الذي جعل كل امرأة ثرية وضعت عقدها في غير مكانه، أو فقدت قطتها الصغيرة المدللة، تندفع لتضمن الفوز بخدمات هيركيول بوارو العظيم. لقد أصبح صديقي ضئيل الجسم مزيجاً غريباً من ازدهار اللبلاب وتوهّجِ الفنان وتوقده. قَبِلَ كثيراً من القضايا التي لم يكن يشعر نحوها بإثارة مميزة، وذلك بسبب سيطرة الشعور الغريزي الأول لديه.

كما أنه تولى قضايا كان مردودها المالي محدوداً، أو حتى معدوماً، لمجرد أنها أثارت اهتمامه. وكانت النتيجة -كما قلت- إنهاك نفسه بالعمل. وقد اعترف بذلك شخصياً، ولذلك لم أجد صعوبة كبيرة في إقناعه بمرافقتي لقضاء عطلةٍ لمدة أسبوع في ذلك المصيف المشهور على الساحل الجنوبي، إيبير ماوث.

كنا قد قضينا أربعة أيام مريحة جداً، عندما جاءني بوارو وبيده رسالة. قال: هل تتذكر صديقي جوزيف آرونز، وكيل المسرح؟

تذكّرته بعد التفكير لبرهة، فأصدقاء بوارو كثيرون جداً،

ومختلفون جداً في مشاربهم، ويراوحون بين عمال النظافة واللوردات.

قال: حسناً يا هيستنغز. إن جوزيف آرون موجود في تشارلوك بي. وهو ليس بحال جيدة أبداً؛ إذ يبدو أن مشكلة صغيرة تقلقه، وقد ناشدني أن أذهب إليه وأراه. أظن يا صديقي أنه ينبغي أن أستجيب لهذا الطلب؛ فهذا الرجل الطيب صديق مخلص لي، وقد قدم لي كثيراً من المساعدة في الماضي.

- سنذهب بالتأكيد إن كنت ترى ذلك. وأظن أن تشارلوك بي مكان جميل، والواقع أنني لم أزره من قبل.

- إذن لنجمع بين العمل والمتعة. ستسأل أنت عن القطارات، إيه؟

- قد يعني ذلك تغيير القطار مرة أو مرتين، فأنت تعرف تلك الخطوط الداخلية في الريف. إن السفر من ساحل ديفون الجنوبي إلى ساحل ديفون الشمالي يستغرق أحياناً يوماً بكامله.

ولكن لدى سؤالي، وجدت أن الرحلة يمكن إجراؤها بتبديل واحد للقطار في ايكزيتر، وأن القطارات جيدة. وكنت عائداً بسرعة إلى بوارو بهذه المعلومات عندما مررت -مصادفةً- بمكاتب الحافلات السريعة، ورأيت لافتة كتب عليها: «غداً، جولة لمدة يوم كامل وصولاً إلى تشارلوك بي. تبدأ الساعة الثامنة والنصف وتمر عبر أجمل المناظر في مقاطعة ديفون».

دخلت وسألت عن بعض التفصيلات، ثم عدت إلى الفندق مفعماً بالحماسة. ولسوء الحظ وجدت صعوبةً في حمل بوارو على

مشاركتي بمشاعري! قال: يا صديقي، لماذا هذا الولع بالحافلات؟ إن القطار أفضل، صدقني! فعجلاته لا تنفجر، والحوادث لا تقع له، ولا يتزعج المرء فيه من كثرة الهواء القوي، ويمكن فيه إغلاق النوافذ ومنع التيارات الهوائية من الدخول.

لمّحت له برقة إلى أن ميزة الهواء النقي هي أكثر ما جذبني إلى فكرة السفر بالحافلة السياحية المكشوفة، فقال: وإذا أمطرت؟ إن طقسكم الإنكليزي دائم التقلب!

- للحافلة غطاء، وغيره من الاحتياطات. ناهيك عن حقيقةِ أنّها إن أمطرت كثيراً فلن تتم الرحلة.

- آه! دعنا نأمل إذن أن تمطر.

- كلا، إن كنت تشعر بأنك لا ترغب في...

- كلا، كلا يا صديقي... أرى أن قلبك قد تعلق بالرحلة. ولحسن الحظ فإن معي معطفي، وعندي لفاعان. ولكن هل يكون لدينا وقت كافٍ في تشارلوك بي؟

- حسناً، أخشى أننا سنضطر لقضاء الليل هناك، فالرحلة تمر في دارتمور، ثم نتناول الغداء في مونكهامبتن، ومن ثم نصل إلى تشارلوك بي في نحو الرابعة عصراً، وتبدأ الحافلة رحلة العودة في الساعة الخامسة حيث تصل هنا في العاشرة ليلاً.

- هكذا! ورغم ذلك فإن أناساً يقومون بذلك طلباً للمتعة! سنحصل بالطبع على تخفيض للأجرة ما دمنا لن نقوم برحلة العودة، أليس كذلك؟

- لا أظن ذلك ممكناً.

- عليك أن تصر على ذلك.

- هيا يا بوارو... لا تكن بخيلاً؛ فأنت تربح الكثير.

- هذا ليس بخلاً يا صديقي، بل هو العقل التجاري. فحتى لو كنت مليونيراً فلن أدفع إلاّ ما يكون حقاً وصحيحاً.

ولكن، كما توقعت، كان مقدراً على بوارو أن يفشل في هذا الصدد، فقد كان الرجل الذي يُصدر التذاكر في مكتب الحافلات السريعة هادئاً، خالياً من العواطف، ولكنه كان صلباً عنيداً. كانت حجته أنه ينبغي أن نعود. بل أنه لّمح إلى أنه ربما كان علينا أن ندفع مبلغاً إضافياً مقابل ميزة مغادرة الحافلة في تشارلوك بي.

اضطر بوارو -وقد هُزم- إلى دفع المبلغ المطلوب. وغادر المكتب متذمراً: الإنكليز! لا إحساس لديهم بالمال. هل لاحظت -يا هيستنغز- الشاب الذي دفع الأجرة كاملة، ومع ذلك ذكر بأنه ينوي مغادرة الحافلة في مونكهامبتن؟

- لا أظنني لاحظته. وفي الحقيقة...

- أنك كنت تراقب تلك الشابة الحسناء التي حجزت المقعد رقم ٥ المحاذي لمقعدنا. آه! نعم يا صديقي، لقد رأيتك. ولذلك فعندما أوشكتُ على حجز المقعدين ١٣ و١٤ اللذين يقعان في الوسط ويوفران أقصى حماية ممكنة في هذه الحافلة، اندفعتَ بوقاحة إلى الأمام وقلتَ إن المقعدين ٣ و ٤ سيكونان أفضل.

قلت خجلاً: هذا صحيح يا بوارو!

- الشعر الداكن المحمر، نقطة ضعفك دوماً... الشعر المحمر!

- على كلٍّ، كانت تستحق النظر إليها أكثر من شاب غريب.

- هذا يعتمد على وجهة النظر. بالنسبة لي كان الشاب مثيراً للاهتمام.

شيءٌ ما ذو مغزى في نبرة بوارو جعلني أنظر إليه بسرعة وأقول: لماذا؟ ما الذي تعنيه؟

- آه، لا تتحمس كثيراً. لنقل إنه أثار اهتمامي لأنه كان يحاول تنمية شارب له، وكانت النتيجة بائسة حتى تاريخه.

ثم نقف بوارو شاربه الضخم برفق وقال: إنه فن... تربية الشارب فن! وأنا أتعاطف مع كل من يحاوله.

يصعب دوماً مع بوارو أن تعرف متى يكون جاداً، ومتى يكون منصرفاً لمجرد تسلية نفسه على حسابك، ولذلك فقد ارتأيت أنّ من الأسلم السكوت.

جاء فجر اليوم التالي مشمساً بهياً... يوم رائع حقاً! ولكن بوارو لم يكن ليدخل في أية مجازفات، فقد ارتدى صدرية صوفية ومعطفاً ثقيلاً ورداءً واقياً من المطر ولفاعلين، ناهيك عن ارتدائه أثقل بدلاته. كما أنه ابتلع حبتي دواء مضاد للزّكام قبل الانطلاق، وأخذ معه خزيناً احتياطياً من هذه الحبوب.

أخذنا معنا حقيبتين صغيرتين، وكان لدى الفتاة الجميلة التي رأيناها البارحة حقيبةٌ صغيرة، وكذلك هي الحال مع الشاب الذي استنتجت بأنه كان موضع تعاطف بوارو. ولم توجد أمتعة إلا هذه الحقائب الأربع التي رتبها السائق في موضعها، وأخذنا جميعاً مقاعدنا.

وقد خصص لي بوارو -بشيء من الحقد كما أظن- المقعد الجانبي على اعتبار أنّ «لديّ هوساً بالهواء النقي»، واحتل شخصياً المقعد المجاور لمقعد جارتنا الجميلة. ولكنه سرعان ما أجرى تعديلاً، لأن الرجل الذي شغل المقعد رقم ٦ كان كثير اللغط والحركة ميالاً إلى الفكاهة والصخب، ولذلك فقد سأل بوارو الفتاة بصوت خافت إن كانت ترغب بتبادل المقاعد معه. قبلَتْ ذلك بامتنان، وما أن تم تبادل المقاعد حتى دخلت الفتاة في حديث معنا، وسرعان ما غدونا نحن الثلاثة نلغو بمرح.

كانت شابة صغيرة كما هو واضح، لا تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها، وكانت بريئة براءة الأطفال، وسرعان ما أفضت لنا بسبب رحلتها: كانت ذاهبة في رحلة عمل لصالح عمتها التي تملك محل أثريات مثيراً في إيبر ماوث.

كانت تلك العمة قد وجدت نفسها -بعد موت والدها- فقيرة بعد غنىً، فاستخدمت رأس المال البسيط لديها، بالإضافة إلى بيت مليء بالتحفيات والأشياء الجميلة التي تركها لها أبوها، لتبدأ عملاً تجارياً. ولقد نجحت نجاحاً منقطع النظير، وصنعت لنفسها اسماً مرموقاً في هذه التجارة. وقد انضمت هذه الفتاة -ماري دورانت- إلى

عمتها فتعلمت العمل وغدت متحمسة كثيراً له، مفضلةً إياه كثيراً عن البدائل الأخرى كالتمريض مثلاً.

هزّ بوارو رأسه اهتماماً وتأييداً لكل ذلك وقال متودداً: أنا واثق أن الآنسة ستصبح ناجحة. ولكنني سأبذل لك نصيحة صغيرة: لا تكوني كثيرة الثقة بالناس يا آنستي؛ ففي كل مكان من العالم محتالون ومشردون أشرار، بل يمكن وجودهم حتى هنا، في حافلتنا. على المرء أن يبقى دوماً محترساً مرتاباً!

حدقتُ إليه وقد فغرت فاها، فهزّ رأسه بحكمة وأضاف: "نعم، الأمر كما أقول لك. من يدري؟ حتى أنا الذي أتكلم معك قد أكون وغداً يحمل أسوأ الصفات". ورمش بعينيه أمام وجهها المدهوش.

توقفنا لتناول الغداء في مونكهامبتن، وبعد تبادل كلمات قليلة مع النادل تمكن بوارو من تأمين طاولة صغيرة لنا قرب النافذة. وفي باحة خارجية كبيرة اصطفّت أكثر من عشرين حافلة سياحية جاءت من جميع أنحاء البلاد. كانت قاعة المطعم مليئة بالزبائن، والضجة عالية نوعاً ما.

قلت: يمكن للمرء أن يحس بالكثير من روح العطلة هنا.

وافقتني ماري دورانت وقالت: إن إيبرماوث تفسد تماماً في الصيف هذه الأيام. تقول عمتي إنها كانت تختلف تماماً في الماضي، أما الآن فلا يكاد المرء يستطيع السير على الأرصفة لكثرة الزحام.

بوارو: ولكن ذلك جيد لأغراض العمل يا آنسة.

ماري: ليس لأغراض عملنا نحن بشكل خاص؛ فنحن لا نبيع

إلاّ الأشياء النادرة الثمينة، ولا نهتم بالأشياء الرخيصة والخردوات. إن لعمتي زبائنها الخاصين في طول إنكلترا وعرضها، فإن أرادوا -مثلاً- طاولة أو كرسياً يعود لحقبة تاريخية معينة، أو قطعة معينة من الخزف الصيني، فإنهم يكتبون لها بذلك، وهي تجلبها لهم عاجلاً أم آجلاً. وهو ما حصل في هذه القضية التي أنا بصددها الآن.

ظهر علينا الاهتمام، ومضت هي شارحة. رجل أمريكي، اسمه السيد بيكر وود، كان خبيراً بالأجسام المصغَّرة، المنمنمات والتماثيل الصغيرة، وكان يهوى جمعها أيضاً. وكانت مجموعة ثمينة جداً من هذه التماثيل والمنمنمات الصغيرة قد طرحت مؤخراً في السوق، واشترتها السيدة إليزابيث بين عمة ماري. وقد كتبت للسيد وود تصف له مفردات هذه المجموعة وأسعار كل منها، فأجابها على الفور قائلاً إنه مستعد للشراء إن كانت المنمنمات والتماثيل كما وُصفت في الرسالة، وطالباً إرسال أحدٍ مع هذه المجموعة إليه ليراه حيث يقيم في تشارلوك بي. وقد أُرسلت الآنسة دورانت -بناء على ذلك- ممثلةً لشركة عمتها.

قالت: إنها أشياء جميلة طبعاً، ولكنني لا أستطيع تصوّر وجود من يدفع كل تلك الأموال ثمناً لها. خمسمئة جنيه! تخيلوا ذلك! إنها مصنوعة على يد كوزوي... هل اسمه كوزوي؟ لقد أصبحت أخلط كثيراً في هذه المسائل.

ابتسم بوارو وقال: أنت لست خبيرة بعد، أليس كذلك يا آنسة؟

قالت ماري بحزن: لم أخضع لتدريب؛ إذ لم نُنشّأ على معرفة

الكثير عن الأشياء القديمة... أمامي الكثير مما ينبغي تعلمه.

سكتت. وفجأة، اتسعت عيناها دهشة. كانت تجلس مقابل النافذة، وكانت نظرتها الآن مصوبة خارجها باتجاه الباحة. نهضت بسرعة عن كرسيها واندفعت خارج الحافلة أشبه بالراكضة، ثم عادت بعد بضع دقائق مقطوعة الأنفاس معتذرة لتقول: آسفة جداً لاندفاعي على ذلك النحو... ظننت أنني رأيت رجلاً يأخذ حقيبتي من الحافلة، فطرتُ خلفه، ولكن تبين أنها حقيبته. إنها تشبه حقيبتي تماماً. شعرت بأنني مغفلة؛ فقد بدا الأمر وكأنني أتهمه بالسرقة!

ضحكت من الفكرة. ولكن بوارو لم يضحك، بل قال: أي رجل منهم يا آنسة؟ صفيه لي.

ماري: شاب نحيل شديد الهزال، ذو شارب غير واضح بتاتاً، وكان يرتدي بدلة بنية.

بوارو: آها... صديق البارحة يا هيستنغز. أتعرفين هذا الشاب يا آنسة؟ هل رأيتِه من قبل؟

ماري: كلا، أبداً. لماذا؟

قال بوارو: "لا شيء... أمر غريب! هذا كل ما في الأمر". ثم عاد إلى صمته ولم يشارك في الحديث حتى استرعى انتباهه شيءٌ قالته ماري. سأل فجأة: ماذا يا آنسة، ما الذي قلتِه.

– قلت: ينبغي أن أكون حريصة أثناء عودتي من «الأشقياء» كما سميتهم أنت. السيد وود يدفع دوماً أموالاً نقدية وعلى الفور مقابل البضاعة التي يشتريها، وإن كنت سأحمل معي خمسمئة جنيه من

الأوراق النقدية فلا شك أنني سأستحق انتباه «شقي» ما!

ثم ضحكت، ولكن بوارو لم يجب، بل سألها بدل ذلك عن الفندق الذي تعتزم النزول فيه في تشارلوك بي.

قالت: فندق آنكور. إنه صغير معتدل الأجر، ولكنه جيد تماماً.

قال بوارو: "هكذا! فندق آنكور، نفس الفندق الذي قرر صديقي هيستنغز أن ننزل فيه. يا للمصادفة!". وغمز لي بعينيه.

ماري: ستمكثان طويلاً في تشارلوك بي؟

بوارو: ليلة واحدة فقط. أنا واثق أنك لن تستطيعي أن تخمني ما هي مهنتي يا آنسة؟

رأيت ماري تفكر في العديد من الاحتمالات ثم تستبعدها، ربما بسبب شعور بالحذر. وأخيراً جازفت بطرح اقتراح يقول إن بوارو ساحر... وقد استمتع كثيراً بذلك.

قال بوارو: آه! ولكنها فكرة رائعة! تظنين أنني أخرج الأرانب من القبعة؟ كلا يا آنستي. إنني نقيض الساحر، فالساحر يجعل الأشياء تختفي، أما أنا فأجعل الأشياء المختفية تظهر ثانية.

ثم مال بجسمه إلى الأمام كثيراً بحيث يعطي لكلماته تأثيرها الأقصى وقال: إنه سر يا آنستي، ولكنني سأخبرك به. إنني رجل تحرٍّ!

ثم عاد ليعتدل في جلسته على الكرسي مسروراً بالتأثير الذي أوجده، فقد حدقت ماري دورانت إليه مأخوذة بالمفاجأة. ولكن، لم يعد الحديث بعد ذلك ممكناً إذ أعاقه إطلاق أبواق الحافلات العديدة في الخارج معلنة استعدادها للتحرك.

وبينما كنا نخرج أنا وبوارو سوية، علّقت أنا على سحر وجاذبية زميلتنا في وجبة الغداء. وقد وافقني بوارو الرأي قائلاً: نعم، إنها فاتنة. ولكنها أيضاً سخيفة بعض الشيء.

- سخيفة؟

- لا تغضب هكذا، فقد تكون الفتاة جميلة وذات شعر داكن محمر وتكون مع ذلك سخيفة. إن لمن أشد الحماقة أن تثق باثنين غريبين كما فعلت.

- حسناً، لقد استطاعت معرفة أننا على ما يرام.

- إن هذا الذي تقوله هراء يا صديقي، فمن شأن أي امرئ يعرف عمله أن يبدو بشكل طبيعي و«على ما يرام». ثم انظر إلى تلك العبارة التي قالتها حول ضرورة حذرها عند حملها خمسمئة جنيه معها لدى عودتها... في حين أنها تحمل خمسمئة جنيه الآن بالفعل!

- على شكل تماثيل ومثمنات.

- بالضبط. وليس بين الاثنين فرق كبير يا صديقي.

- ولكن أحداً لا يعرف عن ذلك غيرنا.

- والخادم؟ والناس الجالسون على الطاولة المجاورة؟ بالإضافة إلى العديد من الناس في إيبرماوث بلا شك! هذه الآنسة دورانت فاتنة بالفعل، ولكنني -لو كنت مكان عمتها إليزابيث بين- لكنت اهتممت بدايةً بتعليم مساعدتي أصول الحصافة والتصرف السليم.

سكت بوارو قليلاً ثم قال بصوت مختلف: أتدري يا صديقي؟ إن من أسهل الأشياء أخذ حقيبة من إحدى تلك الحافلات أثناء وجودنا جميعاً في الغداء.

- آه، كلا يا بوارو. كان لا بد أن يرى ذلك أحد.

- وما الذي سيرونه؟ شخص يأخذ أمتعته. بالإمكان القيام بذلك بشكل مكشوف على الملأ، وليس لأحد أن يتدخل.

- هل تعني... بوارو هل تُلمّح إلى... ولكن ذلك الشخص صاحب البدلة البنية، كانت الحقيبة حقيبته الخاصة؟

قطب بوارو جبينه وقال: هكذا يبدو، وعلى كل حال، فأمر غريب -يا هيستنغز- أن لا يقدم على أخذ حقيبته من قبل، لدى وصول الحافلة مباشرة. إنه لم يتغدّ هنا كما لاحظت.

قلت ببطء: لو لم تكن الآنسة دورانت تجلس مقابل النافذة لما رأته.

- وما دامت كانت حقيبته فلم يكن ذلك ليهم، ولذلك دعنا نخرج الموضوع من عقولنا يا صديقي.

ومع ذلك، فعندما عدنا إلى أماكننا وبدأت الحافلة تتسارع مرة أخرى على الطريق، اغتنم بوارو الفرصة لإلقاء محاضرة أخرى على ماري دورانت حول مخاطر عدم التكتم والثقة بالناس، تلك المحاضرة التي تلقتها الفتاة بخنوع، ولكن بنفسية من يعتبر الأمر كله مجرد نكتة.

وصلنا إلى تشارلوك بي في الساعة الرابعة، وكنا محظوظين تماماً؛ إذ استطعنا الحصول على غرف في فندق آنكور، وهو فندق رائع ينتمي إلى العالم القديم، مقام في أحد الشوارع الجانبية.

كان بوارو قد أخرج لتوه بعض الضروريات من الحقائب، وكان يجري بعض عمليات التزيين على شاربيه استعداداً للخروج لزيارة أرونز، عندما سمعنا طرقاً عنيفاً على الباب. صحت أنا "تفضل"، ولدهشتي الشديدة دخلت ماري دورانت شاحبة الوجه، وقد تكوّرت في عينيها دمعتان ضخمتان. قالت: إنني آسفة جداً، ولكن... ولكن أفظع الأمور قد حدث. وقد قلت إنك رجل تحرٍّ يا سيد بوارو.

- ما الذي حدث يا آنسة؟

- لقد فتحت حقيبتي. كانت التماثيل والمنمنمات في داخل حقيبة صغيرة من جلد التمساح... مقفلة بالطبع. والآن، انظر!

وأبرزت حقيبة صغيرة مربّعة من جلد التمساح. كان غطاؤها يتدلى مفتوحاً. أخذها بوارو منها. كانت قد فُتحت بالقوة، ولا بد أن قوة هائلة استخدمت لفتحها... كانت العلامات واضحة تماماً.

تفحصها بوارو وهزّ رأسه، ثم سألها: "والمنمنمات؟"، مع أننا

كنا نحن الاثنين نعرف الجواب تماماً.

ماري: اختفت. لقد سُرقت. آه، ماذا عساني أفعل؟

قلت: لا تقلقي. إن صديقي هو هيركيول بوارو... لا بد أنك سمعت به... وإن كان لأحد أن يعيدها لك فلن يكون إلاّ هو!

- السيد بوارو؟ السيد بوارو العظيم!

كان بوارو من الخيلاء بحيث أطربه الاحترام الواضح في صوتها. قال لها: نعم يا طفلتي. إنه أنا، بنفسي. ويمكنك أن تضعي قضيتك الصغيرة بين يدي، وسأفعل كل ما يمكن فعله. ولكنني أخشى، بل أخشى كثيراً، أن يكون الوقت قد فات. أخبريني، هل فتح قفل حقيبتك الكبيرة بالقوة هو الآخر؟

هزّت رأسها بالنفي، فقال بوارو: دعيني أنظر إليه رجاء.

ذهبنا معاً إلى غرفتها، وتفحص بوارو الحقيبة بدقة. كان واضحاً أنها قد فتحت بمفتاح. قال بوارو: وهو أمر بسيط للغاية، فأقفال الحقائب هذه كلها من نفس النمط. حسناً، علينا أن نتصل بالشرطة، كما أن علينا أن نرى السيد بيكر وود بأسرع ما يمكن، وسوف أهتم بذلك بنفسي.

ذهبت معه وسألته ما الذي يعنيه من قوله إنه يخشى أن يكون الوقت قد فات فأجابني: يا عزيزي، لقد قلت اليوم إنني نقيض الساحر، وإنني أجعل الأشياء المختفية تظهر ثانية، ولكن لنفترض أن أحداً سبقني. ألم تفهم؟ ستفهم بعد دقيقة.

اختفى داخل كشك الهاتف، ثم خرج بعد دقائق وهو مكتئب جاد. قال: وقع ما كنت أخشاه؛ زارت سيدةٌ السيد وود ومعها المنمنمات قبل نصف ساعة، وادّعت أنها مرسلة من لدن الآنسة إليزابيث بين. ولقد فرح بالمنمنمات والتماثيل، ودفع ثمنها فوراً!

قلت: قبل نصف ساعة، أي قبل أن نصل إلى هنا.

ابتسم بوارو بشكل مبهم بعض الشيء وقال: تلك «الحافلات السريعة» سريعة فعلاً، ولكن سيارة سريعة تنطلق من مونكهامبتن مثلاً، ستصل إلى هنا قبل الحافلة بساعة على الأقل.

- وماذا نفعل الآن؟

- هيستنغز الطيب... عمليٌّ دوماً. نخبر الشرطة، ونقوم بكل ما نستطيعه من أجل الآنسة دورانت، ثم... نعم... بكل تأكيد... سنقابل بيكر وود.

وقد نفذنا هذا البرنامج. كانت المسكينة ماري دورانت منزعجة جداً، وخائفة من لوم عمتها لها. علق بوارو بعد أن انطلقنا باتجاه فندق سيسايد حيث يقيم السيد وود: لا شك أن عمتها ستلومها، وستكون محقة تماماً في لومها، فمن الإهمال أن تترك ما قيمته خمسمئة جنيه من التحفيات في حقيبة وتذهب للغداء! ومع ذلك فإن في هذه القضية -يا صديقي- نقطة أو نقطتين غريبتين. تلك الحقيبة الصغيرة مثلاً، لماذا فتحت بالقوة؟

- لإخراج المنمنمات والتماثيل.

- ولكن، ألم يكن ذلك حماقة؟ لنفترض أن لِصّنا يعبث بالأمتعة

أثناء فترة الغداء بحجة إخراج حقيبته، فمن المؤكد أنه كان من الأسهل عليه أن يفتح الحقيبة، وينقل الحقيبة الصغيرة مقفولة كما هي إلى حقيبته، ثم يهرب، بدل إضاعة الوقت في فتح القفل بالقوة.

- كان يريد التأكد من وجود المنمنمات داخل الحقيبة الصغيرة.

لم يبدُ بوارو مقتنعاً، ولكن بما أنه أتى من يقودنا إلى جناح السيد وود، فلم يكن لدينا وقت للاستمرار في النقاش. انتابتني كراهية للسيد بيكر وود منذ البداية. كان رجلاً ضخماً جلفاً، أثقل نفسه بالملابس الكثيرة، ووضع في أصبعه خاتم سوليتير ماسي، وكان صّخاباً كثير اللغط.

لم يَشُكّ طبعاً بحدوث أية مشكلة. ولماذا عساه يشك؟ لقد قالت المرأة إنها أحضرت المنمنمات والتماثيل كما كان ينتظر. وكانت تلك عينات رائعة جداً أيضاً! ولدى سؤاله إن كان يعرف أرقام الأوراق النقدية التي دفعها، أجاب بالنفي. ومن هو السيد... بوارو هذا على أية حال، حتى يأتي ويسأله كل هذه الأسئلة؟

بوارو: لن أسألك شيئاً بعد يا سيدي إلاّ أمراً واحداً فقط: أن تعطيني وصفاً للمرأة التي زارتك. هل كانت شابة وجميلة؟

السيد وود: كلا يا سيدي، لم تكن كذلك. كانت أبعد ما تكون عن الجمال. كانت امرأة طويلة، في أواسط عمرها، ذات شعر أشيب، وبشرة مليئة بالبثور. وبعض الشعر فوق الفم كأنه مشروع لإنبات شارب.

صحت بعد أن استأذنا بالخروج: بوارو... شارب، هل سمعت ذلك؟

بوارو: إن أذنيّ على ما يرام، شكراً يا هيستنغز!

- ولكن، يا له من رجل كريه!

- لم يكن ذا أسلوب ساحر، هذا صحيح.

- حسناً، علينا أن نمسك باللص بالتأكيد. يمكننا أن نتعرف إليه.

- إن لك لبساطة ساذجة جداً يا هيستنغز! ألا تعلم بوجود شيء يسمونه «دفع بالغياب عن مسرح الجريمة»؟

- أتظن أنه سيمتلك دليل غياب؟

أجاب بوارو جواباً غير متوقع: أنا أتمنى -مخلصاً- أن يمتلك مثل ذلك الدليل!

- مشكلتك أنك تحب تصعيب الأمور.

- هذا صحيح تماماً يا صديقي. إنني لا أحب... كيف تعبّرون عن ذلك... الطير الذي يرقد!

وقد كانت نبوءة بوارو صحيحة تماماً، فقد تبيّن أن زميلنا في السفر ذا البدلة البنية يُدعى نورتن كين. وكان قد ذهب مباشرة إلى فندق جورج في مونكهامبتن، وبقي هناك أثناء فترة بعد الظهر. وكان الدليل الوحيد ضده هو دعوى الآنسة دورانت التي أعلنت أنها رأته يُخرج أمتعته من الحافلة فيما كنا نتناول الغداء. قال بوارو متأملاً: وهو أمر غير مريب بحد ذاته.

بعد تلك الملاحظة عاد بوارو للزوم الصمت، ورفض المضي في

مناقشة القضية أكثر من ذلك، قائلاً -عندما ألححتُ عليه- إنه كان يفكر بالشوارب عامة، وإنه ينصحني أن أحذو حذوه. ولكنني أدركت بأنه قد طلب من جوزيف آرونز -الذي ذهب وقضى المساء معه- أن يعطيه كل التفصيلات الممكنة حول السيد بيكر وود. وبما أن كلا الرجلين كانا يقيمان في نفس الفندق، فقد كانت لديه فرصة لتسقّط بعض المعلومات. ولكن بوارو لم يصرح بشيء ممّا عرفه على أية حال.

أما ماري دورانت فقد عادت -بعد عدة مقابلات مع الشرطة- إلى إيبرماوث على متن قطار الصباح الباكر. تغدينا مع جوزيف آرونز، وبعد الغداء أبلغني بوارو بأنه قد حل مشكلة صديقه الوكيل المسرحي بشكل مقنع، وأن بوسعنا العودة إلى إيبرماوث بالسرعة التي نرغب بها. قال: ولكن ليس بالحافلات يا صديقي، سنذهب بالقطار هذه المرة.

قلت: أأنت خائف من أن تُسرق جيوبك، أم من مقابلة فتاة أخرى في محنة؟

- كلا هذين الأمرين يمكن أن يصيبني في القطار يا هيستنغز. كلا، إنني مستعجل على العودة إلى إيبرماوث لأنني أريد المضي في قضيتنا.

- قضيتنا؟

قال بوارو: نعم يا صديقي. لقد لجأت الآنسة دورانت إليّ طلباً للمساعدة. وإن كانت القضية الآن في يد الشرطة، فهذا لا يعني أنني أستطيع غسل يديّ منها. لقد جئت هنا لتقديم خدمة لصديق قديم،

ولكنني لن أسمح -أبداً- بأن يقال عن هيركيول بوارو إنه تخلّى عن غريب بحاجة إليه.

ثم شدّ قامته بشكل يوحي بالفخامة المتبجحة. قلت له غامزاً: ولكنني أعتقد أنك اهتممت بالقضية قبل ذلك، في مكتب الحافلات عندما رأيت ذلك الشاب لأول مرة، مع أنني لا أعرف ما الذي جذب انتباهك إليه.

- ألا تعرف يا هيستنغز؟ كان عليك أن تعرف. حسناً، حسناً، يجب أن يبقى ذلك سراً صغيراً خاصاً بي.

تبادلنا حديثاً قصيراً مع مفتش الشرطة المكلف بالقضية قبل مغادرتنا. كان المفتش قد حقق مع السيد نورتن كين، وأخبر بوارو بصفة سرية بأن سلوك الشاب وتصرفاته لم تعجبه كثيراً، فقد هاج وماج، وأنكر، وناقض نفسه. وأضاف المفتش قائلاً: ولكنني لم أعرف بالضبط كيف تمت هذه الخدعة؟ ربما كان قد سلم المسروقات إلى شريك له، وانطلق ذلك الشريك فوراً بسيارة سريعة. ولكن هذا مجرد نظرية. علينا أن نجد السيارة والشريك لكي ينجلي الأمر تماماً.

هزّ بوراو رأسه متفكراً. وفي القطار سألت بوارو بعد أن جلسنا في مقاعدنا: أتعتقد بأن هذه هي الطريقة التي اتبعت في السرقة؟

- كلا يا صديقي، لم يكن الأمر بهذه الكيفية. بل كان أذكى من ذلك.

- ألن تخبرني؟

- ليس بعد. إن نقطة ضعفي -كما تعلم- هي أنني أحب الاحتفاظ بأسراري الصغيرة حتى النهاية.

- وهل تكون النهاية قريبة؟

- قريبة جداً الآن.

وصلنا إلى إيبرماوث بعد السادسة بقليل، ومضى بوارو مباشرة إلى المحل الذي يحمل اسم إليزابيث بين. كان المحل مغلقاً، ولكن بوارو قرع الجرس، وسرعان ما فتحت ماري بنفسها الباب، وعبّرت عن دهشتها وسعادتها لرؤيتنا. قالت: تفضلا رجاء لترَيا عمتي.

قادتنا إلى غرفة خلفية، وتقدمت لتحيتنا سيدة متوسطة العمر. كانت ذات شعر أبيض، وبدت كما لو أنها -هي ذاتها- إحدى المنمنمات ببشرتها الحمراء والبيضاء، وعينيها الزرقاوين. وقد ارتدت حول كتفيها المقوسين -بعض الشيء- وشاحاً قديماً غير ذي قيمة.

سألت السيدة بصوت خافت ساحر: هل هذا هو السيد بوارو العظيم؟ لقد كانت ماري تخبرني عنك، ولم أكد أصدق ذلك. وهل ستساعدنا حقاً في مشكلتنا؟ هل ستقدم لنا المشورة؟

نظر بوارو إليها برهة، ثم انحنى وقال: سيدة بين... إن تأثيرك رائع. ولكن عليك حقاً أن تطلقي شارباً.

شهقت الآنسة بين وعادت بجذعها إلى الخلف دهشة.

بوارو: لقد كنتِ غائبة عن العمل أمس، أليس كذلك؟

- كنت هنا في الصباح. وفيما بعد لزمني صداع فذهبت مباشرة إلى البيت.

قال بوارو: ليس إلى البيت يا سيدتي. فللتخفيف من الصداع جربت تغيير الهواء، أليس كذلك؟ إن هواء تشارلوك بي منشط جداً... كما أعتقد.

ثم أمسكني من ذراعي وسحبني نحو الباب. وهناك توقف وقال ملتفتاً للمرأة: أتفهمين؟ إنني أعرف كل شيء. هذه التمثيلية التهريجية الصغيرة يجب أن تتوقف.

كان في نبرته تهديد. أما السيدة بين فقد هزت رأسها موافقة بصمت ووجهها شاحب كالموتى. التفت بوارو إلى الفتاة وقال بلطف: يا آنسة، أنت شابة وفاتنة، ولكن الاشتراك في هذه القضايا الصغيرة سيؤدي إلى اختفاء ذلك الشباب وتلك الفتنة خلف جدران السجن، وأنا -هيركيول- بوارو أقول لك إن ذلك سيكون مؤسفاً.

ثم خرج مباشرة إلى الشارع، ولحقت به مذعوراً.

بوارو: من البداية يا صديقي كنت مهتماً. عندما حجز ذلك الشاب مقعده لغاية مونكهامبتن فقط، رأيت انتباه الفتاة وقد تسمّر وجهها فجأة عليه. لماذا؟ إنه لم يكن من ذلك النوع الذي يجعل النساء تنظر إليه لشخصه فقط. وعندما انطلقنا في الحافلة كان لديّ شعور بأن شيئاً ما سيحصل. من الذي رأى الشاب يعبث بالأمتعة؟ الآنسة، والآنسة وحدها، وتذكّر أنها هي التي اختارت ذلك المقعد، المقعد المواجه للنافذة، وهو خيار غير أنثوي أبداً.

ثم جاءت إلينا بقصة السرقة، والحقيبة الصغيرة التي فتحت بالقوة، وهو أمر لا يستقيم مع التفكير السليم... كما أخبرتك وقتها. وما هي نتيجة الأمر كله؟ ستكون النتيجة أن السيد بيكر وود قد دفع ثمناً غالياً لبضائع مسروقة، وستعود التماثيل والمنمنمات إلى السيدة بين، فتبيعها مرة أخرى، وبذلك تكون قد ربحت ألف جنيه بدل خمسمئة. لقد قمت بتحريات سرية، وعلمت بأن عملها في حالة سيئة وغير مضمون النتائج. وقلت لنفسي: إن العمة وابنة أخيها مشتركتان معاً في هذا الأمر.

- فأنت إذن لم تشكّ أبداً في نورتن كين؟

- يا صديقي! أأشك فيه وهو بذلك الشارب؟ إن المجرم يكون -عادةً- إما حليق الذقن والشارب تماماً، أو ذا شارب محترم يمكن حلاقته عند الضرورة. ولكن، يا لها من فرصة لتلك السيدة الذكية «بين»... امرأة كهلة منحنية الكتفين ذات بشرة يتداخل فيها البياض والحمرة كما رأيناها. فإن هي شدّت جسمها واعتدلت، ولبست حذاء رجالياً ضخماً، وبدلت لون بشرتها ببضع بثور ولطخات غير ملائمة، ثم أضافت -كلمسة نهائية- بضع شعرات متناثرة على شفتيها العليا، فما الذي يحدث عندها؟ امرأة مسترجلة كما قال السيد وود، فيما قلنا نحن على الفور: «رجل متنكر».

- هل ذهبتَ حقاً إلى تشارلوك أمس؟

- بالتأكيد. إن القطار -كما أخبرتني أنت إن كنت تذكر- يغادر في الساعة الحادية عشرة، ويصل إلى تشارلوك بي في الساعة الثانية بعد الظهر. كما أن قطار العودة أسرع من ذلك، وهو القطار الذي

عدنا به، فهو يغادر تشارلوك في الرابعة وخمس دقائق، ويصل إلى هنا في السادسة والربع. إن التماثيل والمنمنمات لم تكن أبداً في الحقيبة الصغيرة، فتلك الحقيبة فُتحت بالقوة بشكل فني قبل وضعها في الحقيبة الكبرى. ولم يكن على الآنسة ماري إلاّ أن تجد مغفلَيْن للتعاطف مع فتنتها وسحرها، ودعم وتأييد الجمال الذي وقع في محنة. ولكن أحد المغفلين لم يكن مغفلاً، فقد كان هيركيول بوارو!

لم أكد أطيق تلميحه الخفي. قلت له بسرعة: إذن فأنت، عندما قلت بأنك إنما تساعد غريباً، كنت تخدعني عن قصد وتصميم. هذا بالضبط ما كنت تفعله.

قال بوارو: أنا لم أخدعك أبداً يا هيستنغز... بل تركتك فقط تخدع نفسك! إنني كنت أشير -عندما قلت ذلك- إلى السيد بيكر وود، وهو غريب عن هذه المناطق.

ثم تجهم وجهه وقال: آه! عندما أذكر ذلك الاستغلال، بتلك الأجرة الفاحشة الجائرة، وتقاضي أجرة على الذهاب إلى تشارلوك هي نفسها أجرة الذهاب والإياب، عندما أذكر ذلك كله يغلي دمي في عروقي بما يدفعني لحماية الضيف! إن السيد بيكر وود لم يكن رجلاً لطيفاً مسلياً، لم يكن -كما قد تصفه- متعاطفاً. ولكنه ضيف! ونحن الضيوف -يا هيستنغز- ينبغي أن نقف متكاتفين. وأنا شخصياً من أشد أنصار الضيوف!

* * *

المحتويات

قَضَايا بْوارو المُبَكِّرة

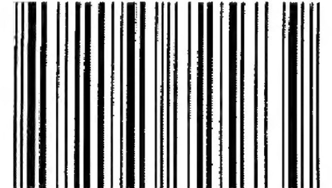
ينطلقُ بوارو في أعمال التحرّي؛ ممسكاً باللصوص، كاشفاً المجرمين، محبِطاً محاولةَ اختطاف، حائلاً دون جريمة تكاد تُرتكَب، باحثاً عن أشياء ثمينة مسروقة وأناس مفقودين...

ولكن قد لا ينجح بوارو الشهير في كل المرات؛ فهنا مرة واحدة واجه فيها رجل التحرّي العظيم الفشل!

ستة عشر من أفضل ألغاز بوارو وقِصصه القصيرة.

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجِمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَيْ مليون نسخة!

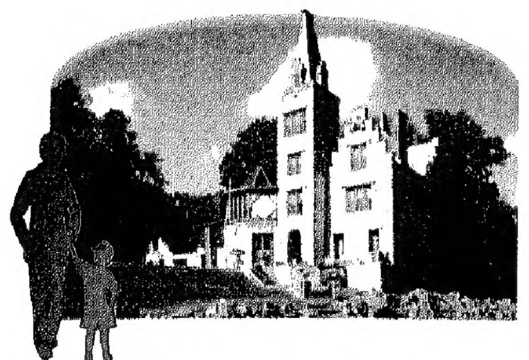
ISBN 2-1957-2573-7



9782195725739

توزيع دار الأفق
٦ شارع حسين فهمي من عباس العقاد
ت: ٢٧٢٥٣٣٥ - موبايل : ٠١٢/١٠٣٣١٦٠

Agatha Christie



Poirot's Early Cases

هيركيول بوارو





رقم هذه الرواية حسب
صدور الروايات بالإنـ





الأجيال
للترجمة والنشر